

Mngool.Com

الانسان
وبداية المجتمع

٢

سيلكا - سويسرا

فهـــــرس

Imprimé en Italie par G.E.P. Cremo
Printed in Italy by G.E.P. Cremona

متى بدأ سباق الانسان نحو التكنولوجيا

مقــــدمــة

لو طَلَبْنا من أجدادنا أن يحْكُوا لنا عن بعض فترات حياة آبائهم، لظَهَر لنا أن الإختلافَ واضح جداً بين نَمَط حياتنا الآن وأنماط الحياة المتواجدة في السنين والقرون التي سبقت عهدَنا. وإذَا تصفَّحنا بعض كتُب التاريخ، فسوف نتأكّد من ذلك باطّلاعِنا على نماذج الحياة في العُصور السّالفة والتي تظْهَر غريبةً عن أفق معرفتنا. و يتجدّد الإختلاف كلّما تعمّقنا في أغوار التاريخ البعيد ببعض آلاف السّنين. و يبدو لَنا مُدهشاً إنْ علِمْنا أنّ امتداد الكوْن إستغرق ما بين ١٢ و٢٠ مليار سنة، وان تصلّب القِشرة الأرضية يرجعُ إلى ما قبل خمسة ملايير سنة حيثُ بدأت الحياة تدِبُّ في أرجاء الكُرة الأرضية. أمّا ميلاد أُولي التذْيِيّات فقد بدأ حَوالَيْ ما قبل ١٠٠ و١٥٠ مليون سنة، اما المُقَدّمات التي ينتمي إليها الجنس البشري فقد ظهرت قبل ٦٠ مليون سنة.

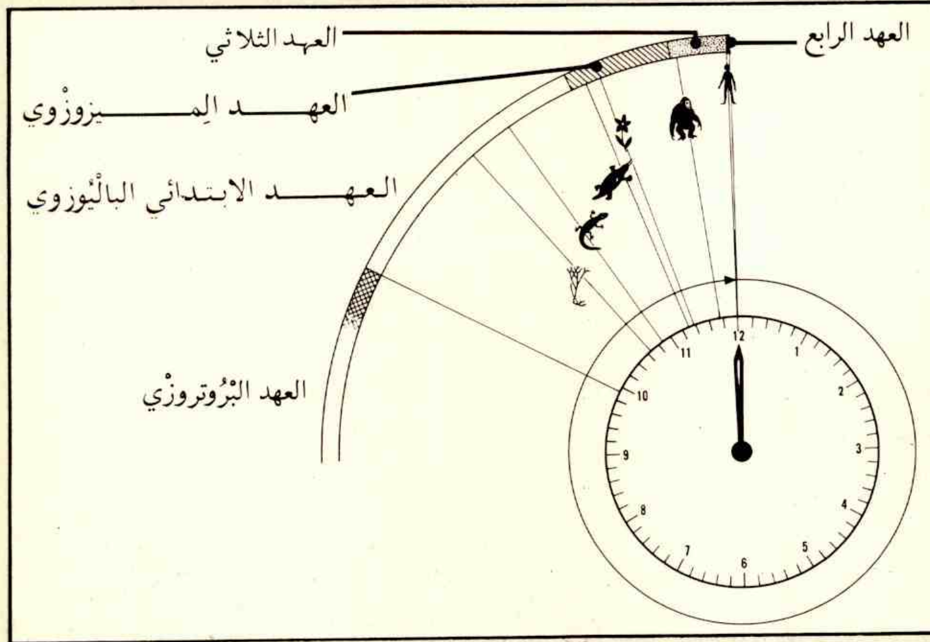
لو أمعنّا التّفكير في حقيقة الاعْداد الخيالية التي يُقَدّر بها العلماء عُمر الارْض لأصَابنا الذُّهول لأن ذلك يتعدّى طاقات فكرنا وواقعنا الملموس، فالعلماء يتحدثون عن خمسة ملايير سنة لتقْييم الحقْبة التي استغرقتْها الكرة الارضية بعد ما تصَلّبت كُتْلتها واكتملْت قشْرتها. ولكي ندرك مدى السُّرعة التي تم بها التطور الانساني، نتصَوّر أن خمسة ملايير سنة تعادل الـ ٣٦٥ يوما التى تشملها السنة الواحدة. وهكذا يمكن تتبُّع مراحل التطوُّر الانساني على نحو مصغّر. فيبدو لنا أن اول أثر للحياة الجُسيْمِيّة قد ظهرت حوالي ٧ غشت (اغسطس) مما يجلعنا نتكهن باهم التواريخ الاخرى على الشكل التالي :

— ٢٤ نوفمبر/ ظهور أولى الاسماك الفقرية
— ٩ دجنبر: ميلاد أولى التذْييّات
— ٣٠ دجنبر: حوالي الساعة العاشرة: الرئيسات (المُقَدّمات)

الرابعة صباحا: البشَريات
التاسعة مساء: ظهور الانسان الواقف
الحادية عشر و٥٣ دقيقة مساء: الانسان النيندرتالي
الحادية عشر و٥٦ دقيقة مساء: إنسان سابْيانْس

أما آخر دقيقة فيجب تقسيمها الي ثواني ثم إلى أعشار لأنَّ هذه الفترة الوجيزة تشكل ما تبقّى من تاريخ الانسانية، وهذه السّرعة تبدو مُهْولة حين التّمعُّن فيها.

وفي هذا السّياق بالذات تكمن اسباب وعوامل الاختلاف والتنوُّع والتعدد التي تحدد خاصيات المُجتمعات البشرية، بما فيها من مظاهر عرقية وثقافية ودينية تشكّلت وتطورت عبر العصور التاريخية.



وهذه الأرقام المُذْهلة كلُها تبدُو لنا وَكَأنَّها من صنع الخيال الذي لا يمكننا تصوُّره إنْطِلاقاً من معرفتنا المحدودة للفَتَرات الزَمنية، لأنَّها تتعدّى نطاق تجرَبتنا في هذا المجال. ولكيْ نفهم سَيْرورة تطور الجِنس البشري، من شَكْلِه البدائي الأوّل إلى ما هوعليه الآن، لابدّ من التعامُل بواقِعيّة مع جملة هذه الأرقام الخياليّة التي تُستَعْمل كمقاييس زَمَنِيّة مُبَسَّطة بهدف تحقيق تصَوّرٍ واضِح للمراحل المُختلفة التي قطعها الانسان خلال مسيرته التطوريّة.

ومن هذا المُنْطَلَق تظهر لنا المُهِمّة الشاقة التي على عُلماء الإحَاثةِ إنْجازها للتَّحَقُّق من التّاريخ الحَقيقي لكُل مظاهر الحياة القديمة جداً. فرغم تَوفُّرهِم على أحْدث الآلياتِ والوسَائل، فهم دائماً في حاجةٍ الى الإعتماد على الافْتراض والتقدير والتخمين لوَضْع المَعَالم التاريخية الدقيقة المتعلقة بالعادات وأنماط الحياة أو تقنيات العَمَل لدى جيلٍ مُعيّن من أجيال العُصور القديمة. وقد تَتَعرّضُ الإستنْتاجات المُحَصّل عليها أحياناً إلى التفنيد على إثْر

ان البقايا المتحجّرة بإمكانها أن تبقى محفوظة في الأماكن ذات الطقس الجاف وفي المجْلدات وذلك بفضل الطّمي الذي يترسب في الأرض بعد كُلّ تجليدة والذي يثبت في التربة كل ما يجده فيها. في الصورة احدى المجلدات الموجودة حاليا.



التجليدة عَلاَمَةٌ لتَحْقِيب الانسانية.

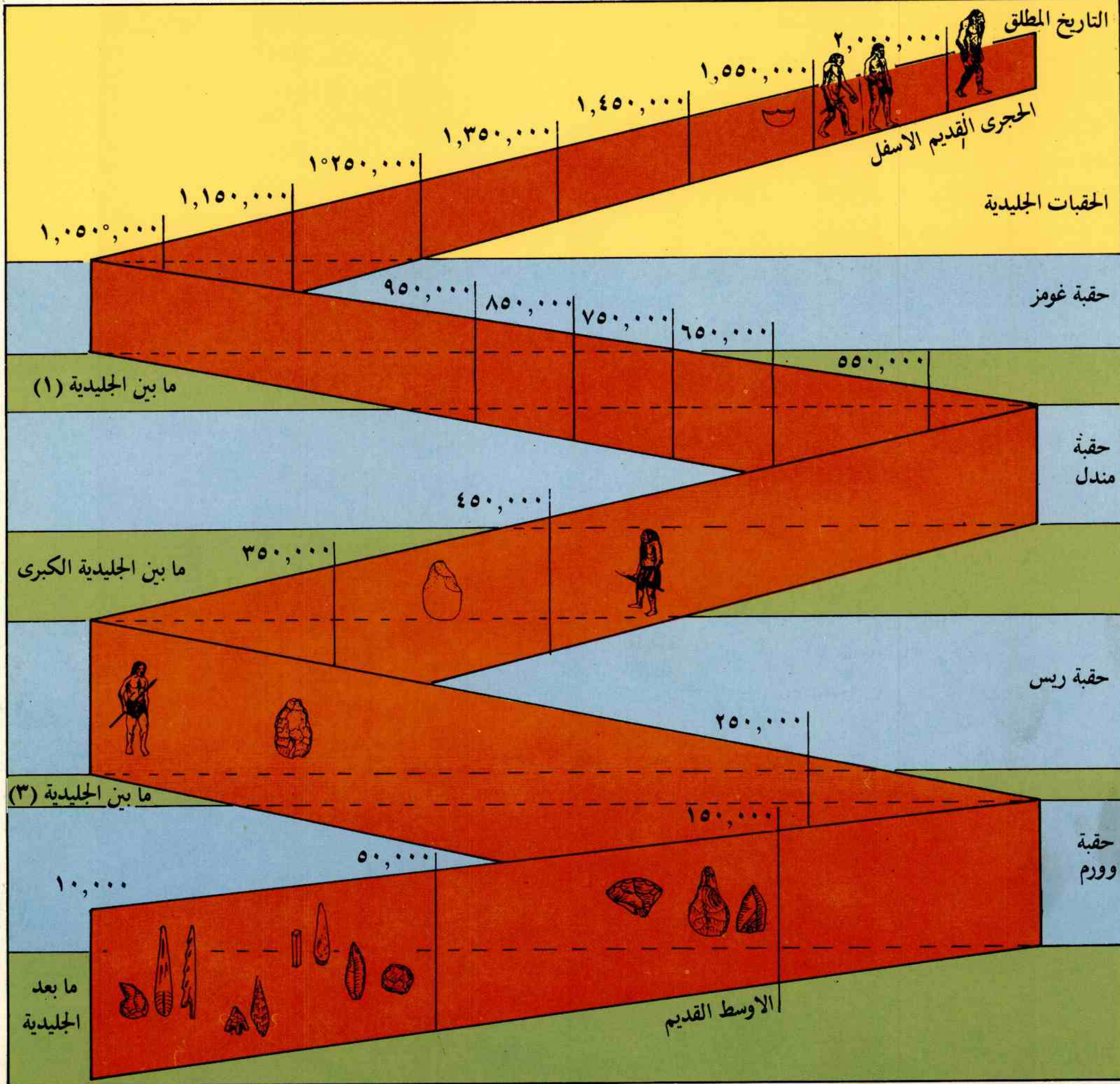
في السنوات الاخيرة أعلن علماء الارصاد الجوية عن قرب ظهور تجْليدة جديدة قد تمس كل المناخات في كل الاقطار بدءاً بالمناطق القُطبية. وقبل محاولة التأكدُ من مصداقية هذا التَّنبُّؤ نتساءل اولاً عن ماهية التجْليدة ثم عن مفعول التَّجليد ت وأثرها على حياة الانسان في عصور ماقبل التاريخ.؟

إن ظهور التجليدة يبدأ بانخفاض مهم في درجات الحرارة وتضاعف في نسبة التَّساقُطات في فصْل الشتاء مما يترتَّب عنه تجْليد الارض بصفة دائمة أو مؤقتة. وعندما تتقدَّم التجليدة تزداد درجة الحرارة انخفاضاً وتتفاوت الفترات المطرية. آنذاك تتقلّص المساحات الغابوية تاركة المجال للسُّهب والفيافي و يظهر على السُّهول مناخ يلائم تطوُّر كبار التَّدْييات كفيل الغابات والماموث والكركدن المصوَّف والايّليات والبقريّات والخيليات.وفي الحقب الموالية التي تميّزت بقساوة الطقس غادر الانسان المساحات الواسعة والهواء الطلق والمآوى التي لم تعدْ ملائمة له. ومالبثت الرياح والزوابع والعواصف ان مسحت السهول المعشبة والمشجرة لتحيلها الى اراضي جرداء قاحلة لا تصلح الا لإيواء أصْناف القواضم وحْدها،ثم اكتست بعد ذلك بالرمال الطّميّة الصّفراء التي نقلتْها الرياح من الانهار ومن قمم الجبال. وهكذا بدأت هذه الرمال تتراكم لتُصبح كتلاً وتلالاً هائلة تجمدت حاملة معها آثار انسان العصور القديمة، على شكل احفورات ومتحجرات عظْمية وحجرية بقيت محفُوظة الى ان تم اكتشافها اليوم لتكون الوسيلة الوحيدة لقراءة تاريخ تلك العصور الغابرة وخاصة منها حقب ما قبل التاريخ.

وخلال التَّجليدة لا يبقى الطقس مستقراً، ولكنه يتميَّز بتعاقُب فترات الرُّطوبة القُصْوى حيث تتهاطل الامطار التي تساهم في تحويل سطح كتل الطّمي ليصبح لوْنها محمراً، وتعود قابلة لاستقبال النباتات وجلب الانسان اليها من جديد، و بعد حقب اخرى

يعود الطقس القاهر ليمحو كل أشكال الحياة ولا يترك لنا في طبقات الطمي الا آثاراً عظمية ومتحجرة للانسان وأدواته والعناصر المكونة لبيئته آنذاك. وبعد انسحاب المجلدات ترتفع درجات الحرارة فتصبح السُّهب والفيافي غنية بالاشجار وتتحوّل الى غابات، ثم تستعيد المياه مجاريها فتفيض على المساحات الارضية اليابسة التي كانت طافية خلال مدَّة التَّجْليدة.

وتعرف المرحلة اللاحقة التي تستقر فيها درجات الحرارة البيْجليديَّة. والتجليدات و المراحل البيْجليدية التي أعْقَبَتها والتي شهدت خلال المناطق القطبية والاستوائية فترات مطريَّة وبيْمطريَّة هي عماد مسلْسل احداث ووقائع ما قبل التاريخ، كما يظهر في الرَّسم.



ظهور اكتشافاتٍ جديدة تُضِيف معلومات جديدة عن إحدى الجوانب المَدْروسة. وهكذا فإنّنا لاً نستغرب تعدُّد التفسيرات المُتعَلقة بظاهرة من ظواهر عصور ما قبل التاريخ، وقد تَتَناقَض هذه التفسيرات فيما بْينها، إلى درجة أننا نتوفر على تواريخ وأرقام مُختلفة خاصّة بنفس الحِقْبة وقد يكون التبايُن ذَا أهِمّية كبرَى حين يصل إلى فارق خمسة ملايين سنة، مثلاً.

وهناك إختلاف آخر بين العالم الحاليّ والحِقب الماضية و يتعلّق بالمناخ والطقس. فإذا استثْنَينا الإضطرابات والتقلّبات الجيولوجية كالزلازل والتّيارات البحريّة والزّوابع، فَلْن نَجدَ أيّ قاسمٍ مشتركٍ آخر بين أحْوال عصْرنا الطّقسية وأحوال العُصور التي سبقْته بملايين السّنين، بما تشمله من خصائص مناخية وظواهر جيولوجية لا تكاد تُصدّقُ حالياً. فقد كانت الحَياة الإنسانية وغيْرُهَا مرهونة آنذاكَ بتعاقُب الفترات الجليدية والبَيْجليدية والفترات المَطرّية والبَيْطرّية التي يؤدّي انجلاؤُها إلى طَفَاوة أراضي جديدة وظُهور النّباتات في مناطق كانت صحراويّة منْ قبل. وهكذا فإن هذه الظّواهر كلُّها وغيرها كانت توافق تطوُّر بعض مَظاهر الحياة الإنسانية كما كانت تُساهم في انقراض بعض أشْكالها. وهذا ما يفسّر انقراض النّماذج الحَيوانيّة والنباتية التي كانتْ تعيش في عصور ما قبْل التاريخ، ثم تغيّرت بعض النّماذج الأُخرى وتطورت تحْت تأثير الظّروف المناخية التي تفرض عليْها التّكيُّف لِضمان البَقاء وقد اعتبر الانسان من المخلوقات التي استطاعت التّكيّف أكثر مع مُتَطَلبّات وضُغوط الطّبيعة وتسْخيرها أحيانا لأغْراضِه الخاصّة وحاجياته المُلِحّة.

ومن الأكيد أنّ سيْرورة تطوُّر الْكائن البَشري غير بَسِيطة وأنّها تَمّتْ عبْرَ سِلسلةٍ من المراحل المُعَقّدة والتي يصعُب ضبْطُها حالياً بكل تدقيق، لأن هناك عدّة فروع شجرة نَسَب وانْحدار الإنسان قد ضاعتْ ولم يتمكّن العِلْم من إثْبَاتها، وقد تكون مُتعلقةً بعناصر بَشَريّة إنقرَضَتْ لضُعْفِها أو لأسباب أُخرى، ولم تُخَلّف لها ذُرّيةً. ومَا يُمكن إثباته هو ما يتعلق بالعناصر الأُخرى التي ظلّت صامدةً تَتَكَيّف مَعَ تَغيُّرات الطّبيعة والبيئة، إلى أن طَوّرتْ لَدَيْهَا قابِليّة الاستجابة إلى قوانين النُّمو واستعمال المَصَادر من أجل البَقَاء والتّوالد.

في وقت كانت فيه أوروبا ونصف الكرة الأرضية الشمالي تشهد المجلدات كان خط الاستواء يعرف حقبا مطريّة تمتلِيء فيها الغابات بنباتات كثيفة كما يظهر في الصورة أسْفَلَه.



نشـــأة الإنســـان



بحثا عن أجدادنا.

تَطوُّر البَشريّات

إنّ دِرَاسة تطوُّر الجِنس تنطلق أساساً من التعرُّض لاحتمال وجود سيْرورة مُمْكنة يكون فيها شَكْل الإنسان الحاليّ نتيجة تطوُّر أَحَد التَّدْييّات ذَاتِ الخصائص الفِرْديّة أصلاً، قد افْلحتْ في التطوُّر في اتّجاه مُعيَّن عبْر مَرَاحل مُعقّدة إلى أن وصلتْ إلى درجة التّطوُّر الذي عليه الإنسان الحالي. وكما سبقت الإشارة إلى أن أَهَمّ اختلاف بين الإنسان وبَاقي الحيوانات الأخرى كَامنٌ في قدرته على التفكير الذّكيّ، فإن التّأريخ لتطوُّر الصنف البشري يكون بمثابة التّأريخ لتطوّر الذّكاء نفْسه، من مراحِلِه البدائيّة إلى أقْصى دَرَجاته عند الإنسان. وإضافةً إلى ذَلك، فإنّه لاَ مناص من التّعرُّض في نفس الوقت إلى التّطوّر الجِسْماني والخُلقي الذي يُصاحب التطوُّر الفِكريّ والذّكائي منذُ أن كان الأجداد الأوائل المُفْترَضون للانسان يمشون على أربع (!) إلى المرحلة التي افتَقَدَ فيها الوجْهُ البشَري وخِلْقته السّمات القِرْدية. وبطبيعة الحال، فإنّ التطور الفكريّ والجَسَدي مرهون ببعْضهما. ذلك أنّ كُلّ تطور في الجسم ناتج عن ضرورة اسْتجابته إلى متطلبات ذهنيّة يستخْلصها الإنسان من تجْربة تَعَامله وتكيُّفه مع البِيئة التي يعيش فيها.

ولنأْخذ كَمِثال على ذلك، أجداد الإنسان الذين كانوا

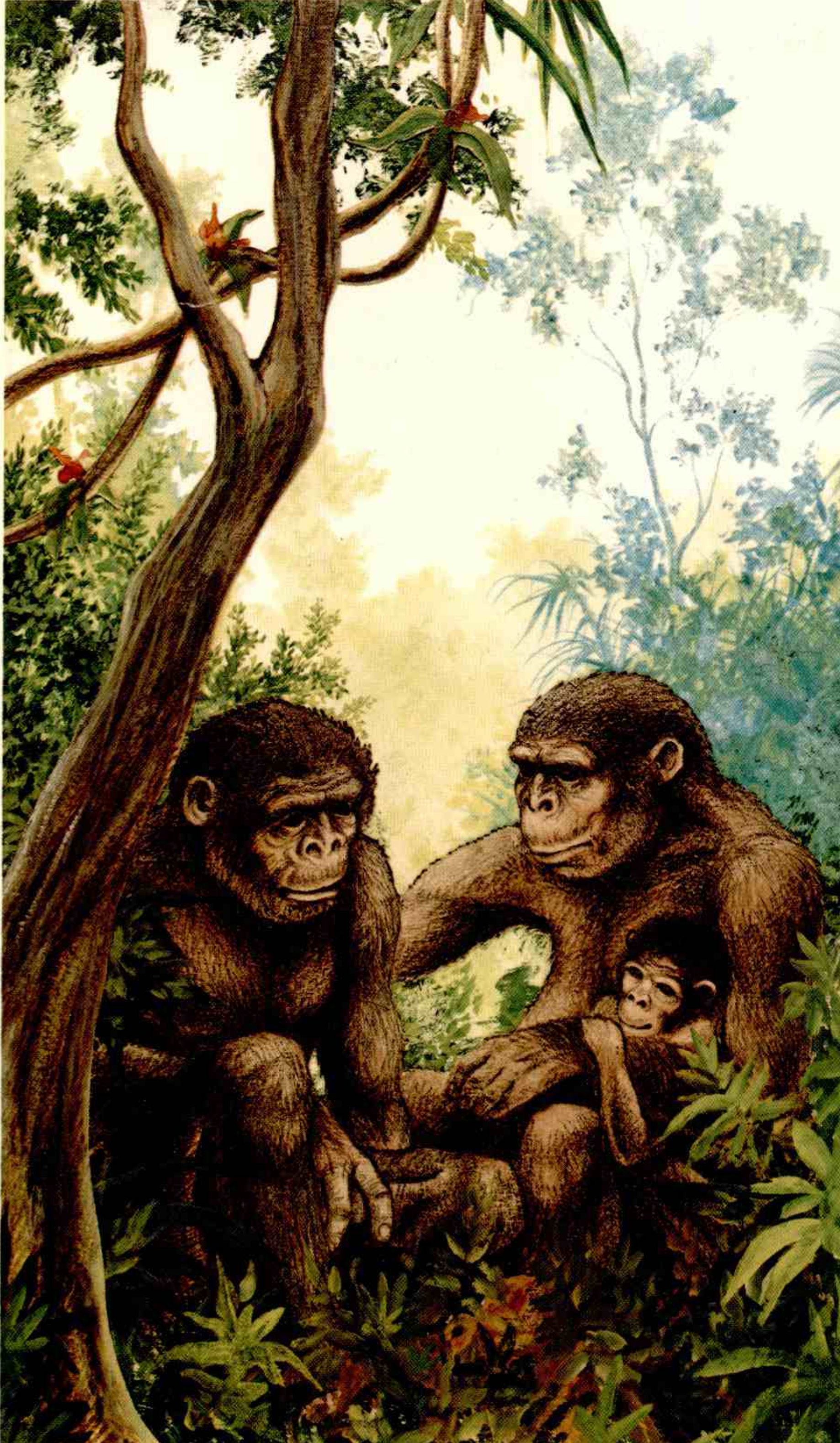


يسكُنون فوق الأشجار ولا ينزلون على سطح الارض الاّ نادِراً، حيث يتغذّون فقطْ بالحبوب وغلال النّباتات. ولذلك كانت أعضاؤهم العُلْويّة تُستَعملُ فقط للتنَقُّل من شجرةٍ الى أخرى ولإمْساك واقتطاف الحبوب والفوَاكه. أمّا حين ينْزلون من فوق الأشجار ليمشوا على الأرض فكانوا يستعملون الأيادي إلى جانب القَدَميْن وخاصّةً للجَرْي، أي أنهم كانوا يمشون عموماً على أرْبع. إلاّ أنّه في إحْدَى الفَترات التاريخية ظهرت عوامل مناخية قَلّصَتْ من المساحات الغابويّة، فاضطرّت هذه المخلوقات إلى العَيْش باستمرار فوق سطح الأرض لِتتَكَيّف ثانيةً مع الحياة بين السُهب والفَيَافي وفي السُهول المُعْشبة، صحبة الوحوش المفترسة التي كان عليهم اتّقاء شَرّها والاستعداد لمقاومة هجماتها، ثم بجانب الحيوانات التي تصلح للاصْطياد كغنيمة صالحة للتّغذية. وكان لابد لْلإنسان من اللّحاق بهذه الأخيرة جرياً على الأقْدام. وهكذا انتصَبَ أجدَادنا واقفين على اقْدَامهم ليتمكّنوا من النّظر البعيد نَحْوَ الافُق والتنقُّل بُسرْعة، وبالتالي من الانتظام في تجمُّعات بَشَرية. أمّا اليَدَان اللّتان تحرَّرتا من وظيفة المَشْي، فقد تَعَلّمَ الانسان مع مرور الزّمن وتعاقب التّجارب، أن يستَعْمِلهَا لأغراض أُخرى. وهكذا ظهرت فكْرة استعمال الحَجَر والعِصِيّ لاصْطياد الحيوانات ثم تقْليع قشور حجر الصّوَّان وشَحْذه ليصلح أدَاة لقَطْع لَحْم الفَريسة وغيرها من الأشياء الصّالحة لْلأكل أو لأغراض الحياة اليومية.

ويظهَر من هذا التّبْسيط لمراحل التّطور البَشري، كيف أنّ التطور العضويّ والجَسَديّ قد نَتَج عنْ تطوُّر الفكْر والذّكاء ومُتطلَّباتهما، وكيف أنّه كلّما تَمَادى الجسْم في تطوير إمكانياته الجسدية كلما نتج عن ذلك تطور جديد في الامكانيات الذّهنية والفكرية. فانتصاب الإنسان واقفاً مثلًا، مع الزمن تقلّص في الحوض وتحوّل في العمود الفِقري الذي سهّل تدريجياً انتصاب الرّأس مستقيما فوق فقرات العنق.

ولا يجب الإعتقاد أنّ الأمُور قد تمّتْ على هذا النّحو بِكُلّ انسجامٍ وبَساطة، كما لا يجبُ أن نبالغ في التّبْسيط ونحن نوَاري بين التّطوُّر الذّهني والجَسَدي وَكَأنّ ذلك قدْ تَمَّ في نفس المراحل وبنَفْس الإيقاع الزّمني، وفي جميع المَناطق التي عاش فيها الكائن البَشَريّ. ففي بعض الأماكن من المَعْمور قد تمّ التطوُّر في ظروفٍ حَسَنَةٍ بيْنَما في مناطق أُخرى قد ساهَمَت الظّروف على توجيه التّطوُّر نحو انقراض الجِنس البشريّ وتَلاَشيه نِهَائياً. وسوف

في الرسم أسفله، تمثيل للبيئة التي كان يعيش فيها أجدادنا خلال حقبة الانتقال من العيش فوق الأشجار إلى سطح الأرض.



نتطرّق إلى كلّ هذه الحالات حين نستعرض مُختلف الأصناف البشريّة. وقبل ذلك، نُعْطي أولاً فكرة عن أهم الاخْتلافَات البيولجية الموجودة بين الإنسان و باقي الحيوانات الأُخرى و بين هذه الأخيرة والفَصِيلة التي يظْهَرُ أنّ الإنسان قد إنحدر منْهَا، وهي فصيلة «المُقَدَّمات».

كانت المُقدَّمات تسكن إفريقيا وآسْيا وأمريكا، وتتميّز عن باقي التَّدْييّات ببعض الخَصائص الاساسية، ومنْهَا:

— أنّها كانتْ كلّها تقريباً ساكِنة أشجاراً وكانت اعضاؤها الأربعة نَشَّابَةً، أيْ أنّها صالحة للتَّشَبّتِ بأغْصَان الأشجار.

— أنّ كثيراً من الأصناف تتوفر على ذَنَب نَشّاب يستعمل كعُضْو خامس.

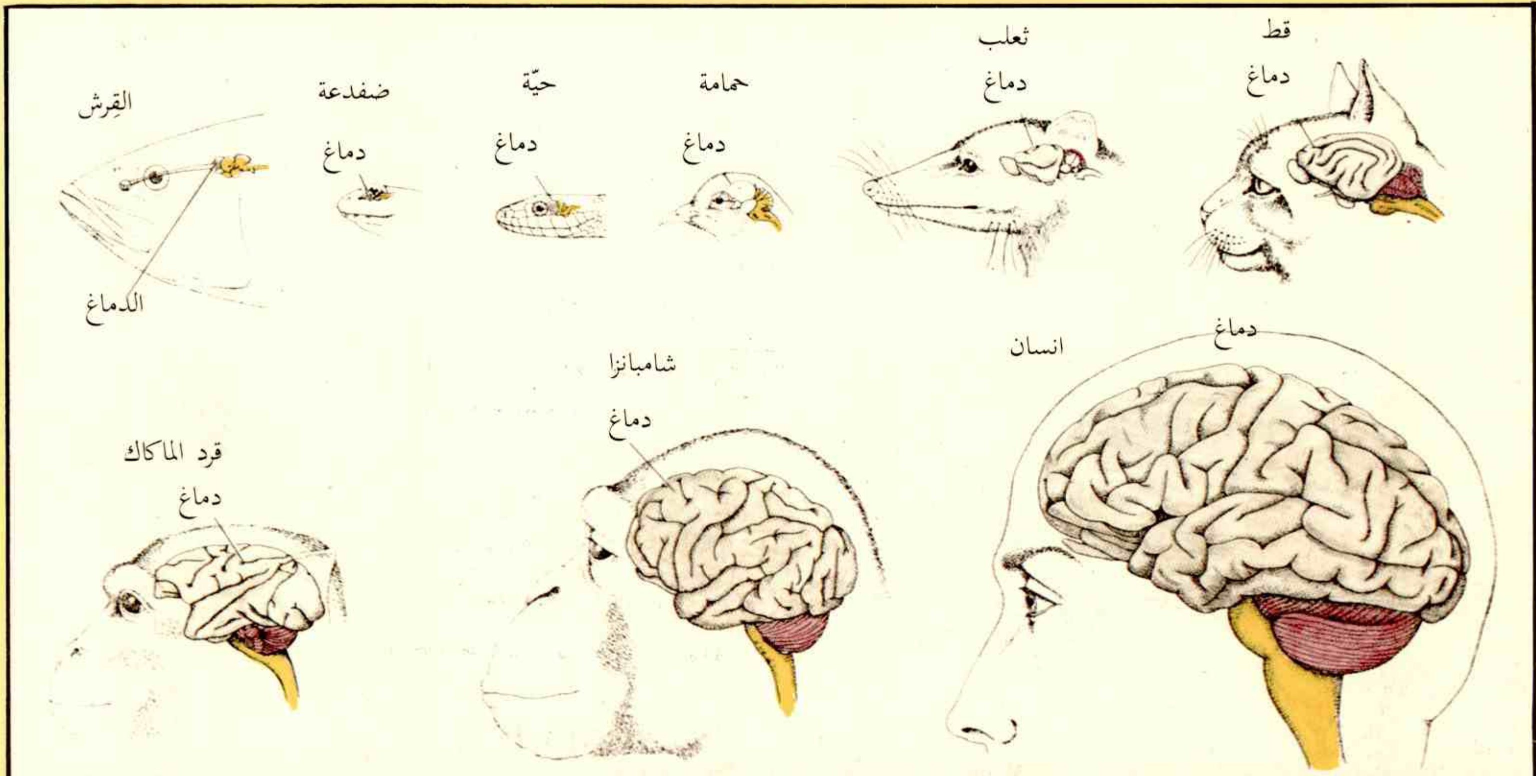
— أن أصابعَها لا تَتَوفر عَلَى مَخَالب، ولكنْ على أظافر مُسطَّحة، إضافةً إلى حَساسِيَّةٍ قُصْوى في أطْرافها عَلَى غرار أنَامل الإنسان الحالي.

إن الاختلاف الأساسي الموْجود بَيْن الانسان والحيوانات الأخرى يَكْمن في التطور الذّهني والنّفسي.

يتكوّن دِماغ الحيواناتِ من أجزاء مختلفة يؤدي كلّ منها وظيفة خاصة. وتوجد اختلافات مهمة بين أدمغة مختلف أصناف الحيوانات، حسب مستوى تطورها وتكوينها الجسماني والنفسي.

والرسم أسفله يبيّن لنا أهم الاختلافات الموجودة بين الفِقَريّات الصغيرة من جهة وبين الحيوانات الشبيهة بالانسان (الشامبانزي) والانسان من جهة أخرى. ونلاحظ أن المادة الرمادية موجودة بوفرة في دماغ الانسان بينما تقل في دماغ الضفدعة. والمادة الرمادية التي تتعدد تَلافيفها كلّما اقترب منها الانسان **هي طرف الدماغ الذي يتحكم في** القرارات والتفكير أما المخيخ والنواة المركزية والفلقة الجبهية فهي الأجزاء التي تتحكم في آلية الحركات وتكون هي مجال الغريزة. وما يفرق بين دماغ الانسان ودماغ الحيوانات هو التطور النفسي. ولهذا فلابد من أن توخذ بعين الاعتبار علامات التطور البيولوجي المرتبط بالدماغ ونشاطه حين نقوم بدراسة تطور الجنس البشري.

ان الاختلاف الأساسي بين الانسان والحيوانات يكمن في التطور العقلي والنفسي.



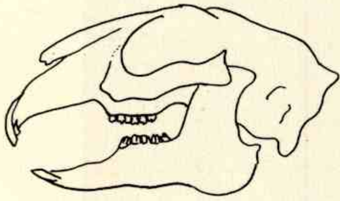
عن انحدار الإنسان من إحدى الفصائل القردية او الحَيَوانية. وكانت فصيلة «البروكونسول» حسب رأي العلماء، على شكْلين مختلفين من حيث نَمَط الحياة، فالصّنف الأول يعيش فوق الاشجار والصنف الثاني يعيش في السُّهُب والفَيافي. ومن هذا النّوع الاخير يُحْتَمل أن يكون قد إنحدر العِرق البشريّ البِدائي، الا انه لا تَتَوَفَّر لَدَيْنا أيَّةُ أدِلَّة قاطعة للتَّحقُّق من هذه الفَرَضيّات كُلّها، وذلك لانْعدام أيّ أثرٍ ملْموس يقود إلى إعادة إنْشاء وتَصَوُّر خِلْقَة هذا الجَدِّ المَزْعُوم. ثم إنّ هناك نَظَريات أوْرَدَها بعض العلماء تقول بِكَوْن جد الانسَان الأَصْلي كان مَوْجُوداً قبل ظهور البْرُوكُونْسول، وهذا ما يُظْهِر لنا أن منطق ظَوَاهر ما قبل التّاريخ تتجاوز في تَعْقيدها حدود إمكانيات الدّراسات العِمِلْميَّة الدّقيقة. لذلك بَقِي شائعا أن «البْرُوكُونْسول» الذي عاش في السُّهب والفَيافي هو الجَدُّ الأول للانْسان، ولذلك تَتَبَّعت الدّراسات مراحل تَطَوُّره عبر التاريخ إلى أن وقفت على صنْف «الرّامابيتيكوُوسْ» الذي يتوفر على خَصائص تجْعله ينْدرج في إطار الخَطّ السُّلالي للانسان الحالي.

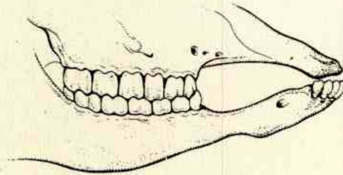
وفي هذه المرحلة من العَهد البْليوسِيني، أيْ بعد مرور ملايين السنين، لم نقفْ على آثار الانسان الحقيقي الذي لا يحوم حوله أيُّ شكٍ، مما يدلُّ على مَدَى بُطء سيرورة

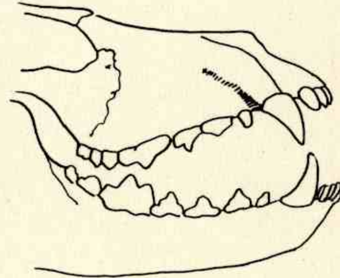


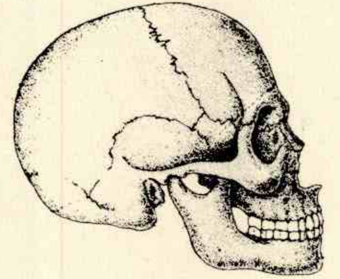
نجد « البْروكُونْسُول » وهو كائن قَصِير القامة، ذو ذراعيْن أطْول من السّاقيْن، و يُشْبه إلى حدٍ كبيرٍ القِرد الذي يتَغَذّى من النّباتات و يعيش فوق الأشجار. و يعدُّ هذا المخلوق أهمّ مَرْجِعٍ يعتمد عليه العلماء حين يتحدّثون

في الصورة أسفله : جماجم وصور لِنجاب وثور ونمر ثم انسان ومن الأكيد أن بين هذه المخلوقات اختلافات كبيرة.







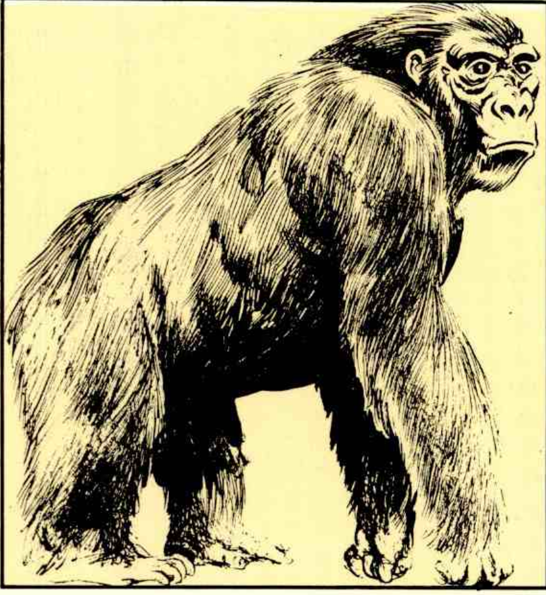












في الصورة أعلاه غوريلّا في استعداده للهجوم، وهو يبرز صدره دليلا على التحدّي.

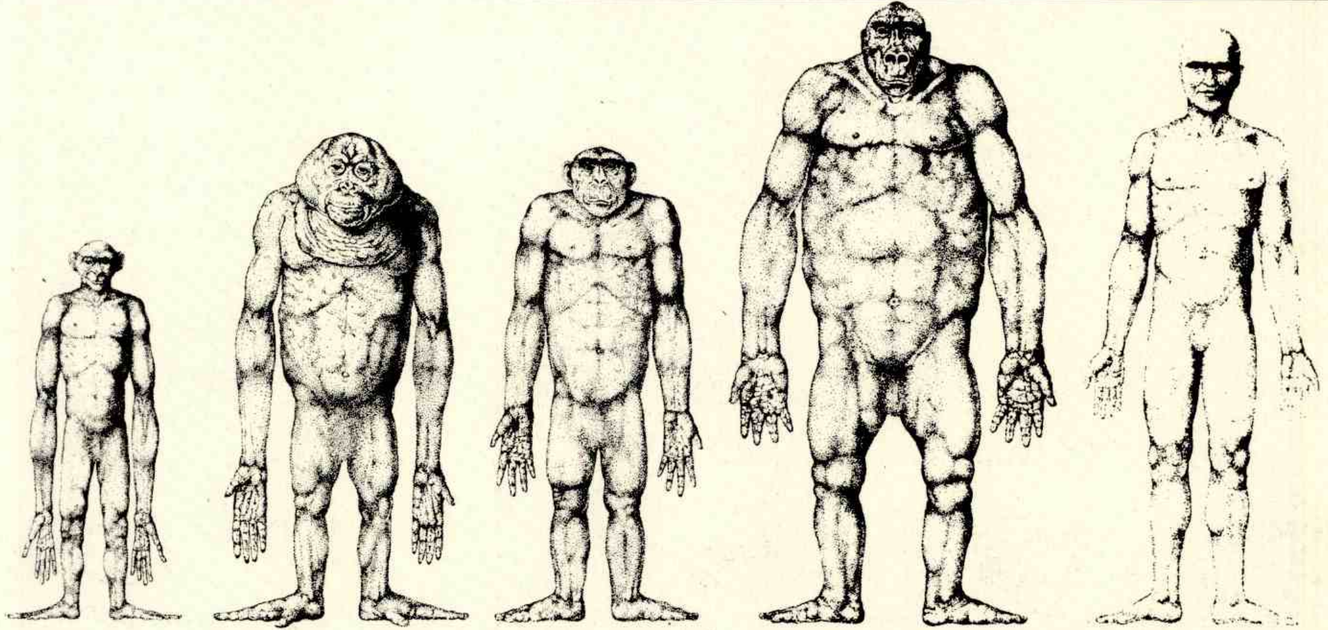
في الرسم أسفله : الاختلاف البنيوي بين الحيوانات الشبيهة بالانسان (وقد رسمناها بدون شعر) وبين الانسان. ونلاحظ تطور الصدر والبطن عند الغوريلا ومَدى طول ذراعي كل من الاورنغ والأوتنغ والشق.

التطوُّر والتَشكُّل البَشَريّ. وكما أشرْنا إلى ذلك سابقاً. فان هذا البُطء نفسه وهذه المدّة الطّويلة التي إستغرَقَتْها مراحل هذا التطوّر فهي لا تَعْدُو قَطْرَة من بَحرٍ إزاء عُمُر الكَوْن والأرض، بل بالعَكْس من ذلك فَسَيَظْهر لنا تاريخ البشرية قصيراً جداً ومُسْرعاً في دَوَرانه مُقابل ملايير السّنين التي استغْرقها تطوُّر الكَوْن، وخاصَّةً فيما يتعلّق بالمراحل التاريخية التي اثْبَتَتْها الدّراسات الجيولوجية.

ولنرجع إلى «الرّامابيتيكوسْ» الذي وجدَتْ بقاياه قرب جبال سيواليك بالبنْجاب (الهند) لنرى مظْهر خلْقته وخصائصه الجسمية: فقد كانتْ أسنانه مكافئة وكان لا يتوفر على فَجَوات بين الأسنان القاطعة والأنياب.

ونظراً لهذه الخصائص البشريَّة رأى بعض العلماء أن هذا المخلوق بدون شكٍّ يَنْتمي إلى خَطّ التَسلْسُل البشري. ولكنه لا يجب أن نَنْسى أنّ هذا الاسْتنْتاج مُبالغ فيه لأنَّ البَقَايا التي عثر عليْها لاَ تَتَعدّى الفَكَّ الأسْفَل لأحد نَماذج «الرّامابيتيكوسْ» ولم يُعثَرْ لهُ على هيكلٍ عظْمى مُتَكامل.

وبالمقابل، فقد عثر في توسْكانيا بإيطاليا على هيْكلٍ عَظْمي متكامل لأحد نَماذج الرّئيسات المتقدمة المعروفة

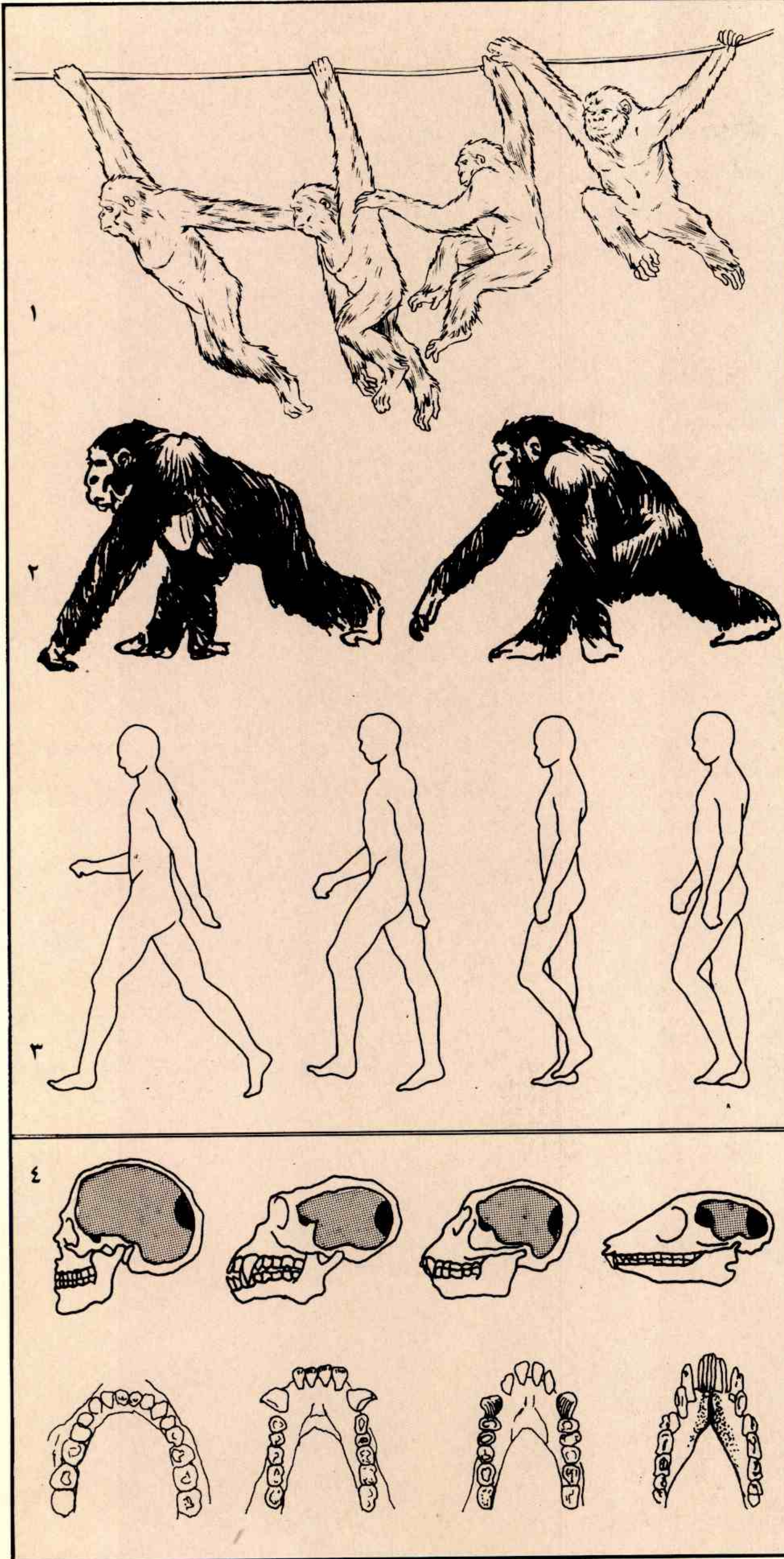


إنسان سابيانس	غوريلا	شامبانزي	اورانغو	
فصيلة واحدة	فصيلة واحدة	فصيلة واحدة	فصيلة واحدة	شـق
٥ أجناس	فصيلتان دونيتان	فصيلة دونية واحدة	فصيلتان دونيتان	٤ فصائل
١,٦٨ م — ١,٧٢م (ذكر)	١,٧٥ م ذكر	١,٧٠ م ذكر	١,٤٥ م ذكر	١٥ فصائل دونية.
١,٥٠ م — ١,٦٠ م (أنثى)	١,٦٥ م أنثى	١,٣٠ م انثى	١,١٠ م انثى	٠,٧٠ م
٦٥,٧٢ كلم — ٧١,١ كلغ	١١٠ — ٢٥٠ كلغ	معدل الوزن ٥٠ الى ٧٥ كلغ	٥٠ — ٦٧ كلغ	٥ إلى ٧ كلغ

بأوْريُوبيتيكُوسْ نامْبُولي. وهذا المخلوق الغريب يجمع بين عدّة خصائص بشريّة مثل شكل الجمجمة الجِشْوي الصّغير الحَجْم والوَجْه القصير وعظام الأنْف البارزة والاسنان المُتكافئة وغياب الفَجَوات بينها وشَكْل الحَوْض والخَصائص القِرديّة كتطوُّر أقْواس الحاجبيْن وتَساوي طول الذّراعين والسّاقين ونُقْصَان في تطوُّر السّعة الدّماغية التي لا تتعدّي سعة الدماغ البونْغوس الحاليين. ورغم ذلك فان هناك اختلافاً بين آراء العلماء حوْل الاريو بيتيكوس، فمنهم من يجْزم بكَونه ينتمي الى شجرة النّسب الانسانية ومنهم من يعتمد بالخصوص على الخصائص القردية لكي يؤكدوا قرابته من إحدى الأسر السُّلالية التي تفرّعت عنها الكائنات الشبيهة بالانسان من جهة أو القردة من جهة ثانية. وما يَهمنا هنا هو أنه قبل حوال ١٢ و١٠ ملاين سنة كان الارو يو بيتيكوس يتوفر على بعض الخصائص التي توجد لدى الانسان الحالي، مما يجعله المرشّح المُرجّح لكي يكون من أجداد الانسان المُفْترضِين.

وقَبْل مواصلة وصف أجداد الانسان المُحْتملين، علينا أن ننظر بعين التّمحُّص والتّكَهُّن إلى حقيقة ظواهر ما قبل التّاريخ. فما قبل التاريخ عبارة عن بهو واسع طويلٍ ومُظلم يوجد بقَعْرِه ثُقْب نَفَذْنَا منه مُسبّقاً، ولم نتمكن بعد ذلك من العثور عليه، وثقب آخر أمامنا ولكنّه بعيد جدّاً يظهر لنا على شكل نقطةٍ ضوئيةٍ، نتوخّى الوُصُول إليْها لأنها هي التاريخ المعروف والمسطّر في المؤلفات والحامل لشهادات حول الحروب والشّخصيات والآثار وكلّ الظواهر التي لا يصْعب علينا فهمها وتفسيرها. ومادمنا بصَدَد دراسة ما قبل التاريخ فنحن نبْقى في الدّهليز المُظلم نبحث عن بعض الإشارات الضّوئية القادمة من الخارج والتي تنير لنا الطريق بين الفَيْنَة والأخرى في غير انْتظام، لنتمكن من فهم جزء ضَئيل مِمّا يشْمَلُه البَهْو.

فبعد الأوريوبيتيكوس لم يكن هناك بعد أيّ لمعان لمدّة طويلةٍ من الزمن، وخرجنا من البهو المُظلم دونَ نتيجةٍ. ففي تاريخ التّطور البشري هناك «فَجْوة» من خمسة ملايين سنة تقريباً لا نتوفّر بشأنها على أية معطيات او

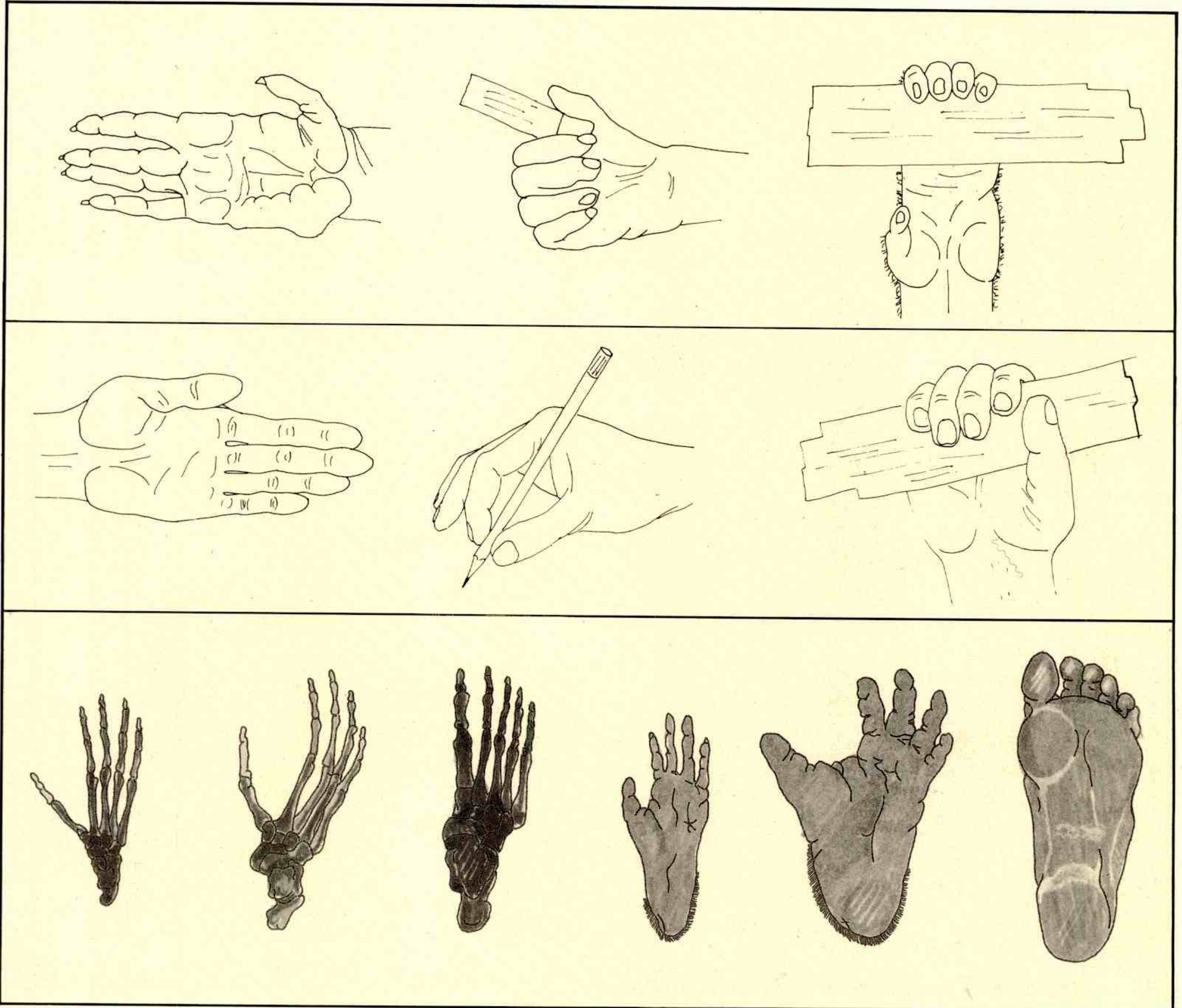


في الرسم التبياني اعلاه، تمثيل للاختلاف الموجود بين مشية الحيوانات الشبيهة للانسان (رسم ١ ورسم ٢) وبين مشية الانسان نفسه (رسم ٣). نلاحظ خفّة الحيوانات الأولى واستقامة ورشاقة جسم الانسان بالاضافة إلى الاختلاف في أسْنان كل واحد منهما (رسم ٤).

معلومات ولو كانت تقريبية أو خيالية و بذلك يمكننا التعرّض اليها بأيّة حال من الأحوال. وفجأة برزتْ الى الوجود النّماذج الأولى لإنسان أوستراليا الذي عاش قبل خمسة ملايين سنة. وعليه فتطوُّر الانسان الذي لا يمكن أن يكون قد توقَّف لفترةٍ زمنية معينة، قد تَوَاصَل وفْق إيقاعه البطيء، حيث تنْمحي الخصائص القردية تدريجيّاً وتظهر عوضها و بوضوح مختلف الخصائص البشرية. وقد يتخلل تلك التغيّرات فترات إنتقاليّة لا نعرف عنها أيَّ شيء ولا يمكن حتى تخيُّلُها.

وفي آخر العهد البَلْيوسيني، و بالخصوص في بداية البليسْتوسين، تحقّق الوضع الواقف لدى الانسان، وهو من الخصائص الاساسية في الخلقة البشرية. وقد تمكن العلماء من الوقوف على ذلك بفضْل الحَفْريات والأحفورات التي ترْجع إلى العهود القديمة. وقد وجد إنسان أوستراليا في القارة الافريقية ببشوالاند و ترانْسْفال، وهي تظهر تمكّنه من الوقوف عمودياً، ولذلك عرفت بعض نماذج انسان أستراليا بإنسان أستراليا الافريقي أو الهِيسيليس، وكان طول قامته يتراوح بين ١,١٠ متر و١,٢٠ مترا و يزنُ حواليْ ٤٠ كيلوغراماً. وكانتْ وقْفَته العموديَّة تقريباً متكاملة يتخللها

استعمال اليد عند الحيوانات الشبيهة بالانسان.

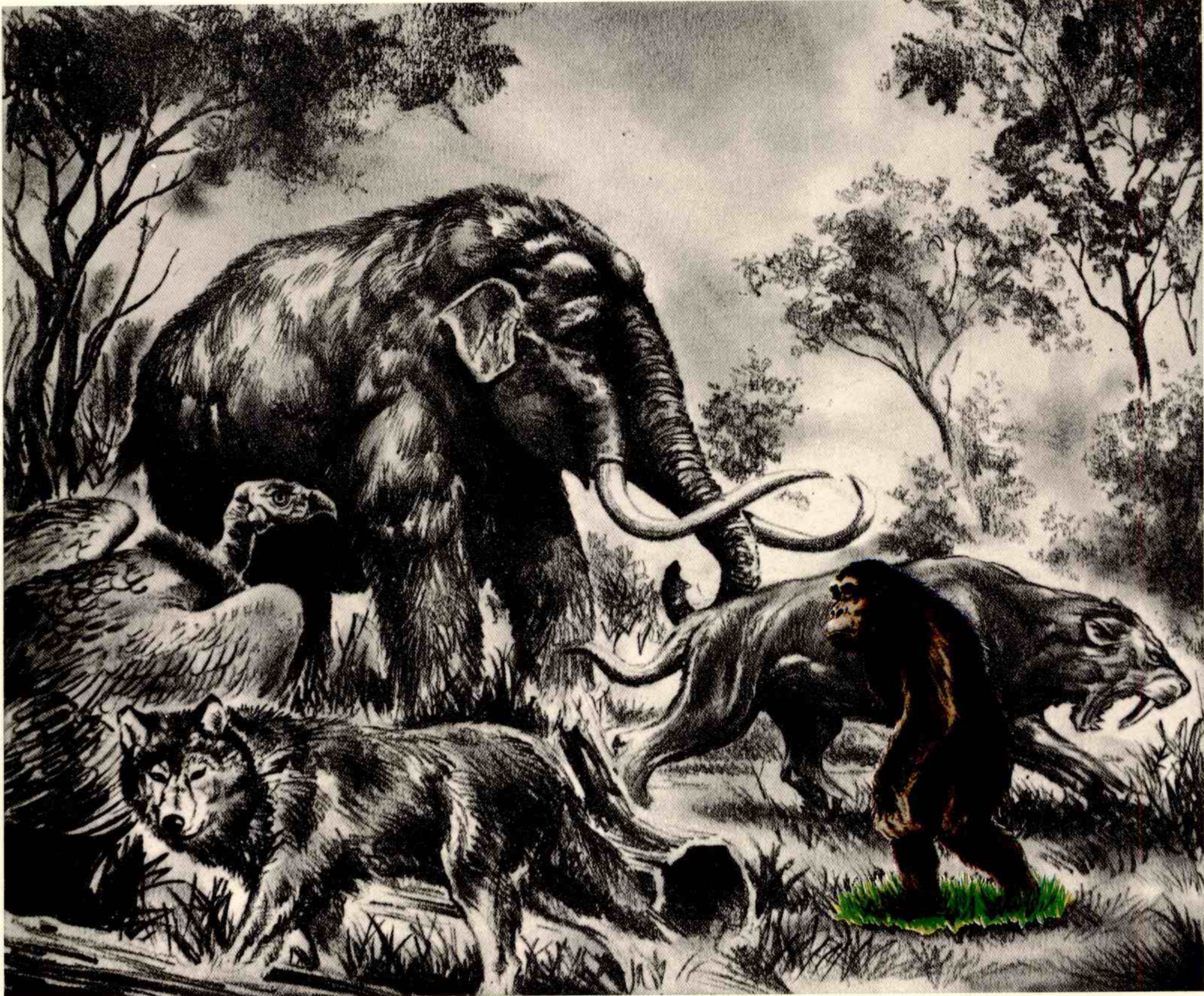


تـقـدُّم قَفَائي وارتفاع للرَّأس. وكـان من المُعتقد أنّ مِشْيَته كـانـت مـتـجرجرة، أمّا حوضه فهو يشبه حَوْض الانسان في حين أن عموده الفِقري **يشبه تقوُّسا** أقلّ مما عليه الانسان الـحَالي. وكـان يأكل كلّ شيء قابل للأكل و يعيش على الأ راضي العارية.

في الرسم أسفله، تمثيل للبْرُوكُونسول وهو شخص قصير القامة، مشعّر الجسد، ويصنفه بعض العلماء ضمن حلقات التطوّر الانساني. ويظهر في احدى سُهُب حقبة المْيُوسِين. ورغم الخطر الذي يتهدّده من قِبَل اعدائه الطبيعيين فقد استطاع البْرُوكُونْسُول البقاء ويتناسل مدّة آلاف السنين بعد ظهوره.

أمّا النّموذج الثاني وهو إنسان أوستراليا الأضْلع فكان ذا قـامةٍ يبلغ طولها متراً ونصف و يزن حوالي ٦٠ كلغ. وقد تـكـون وقْـفَـتُـه عموديّة تماماً الا انَّه يتوفَّر على أسنان شديدة وفك تُـحَرِكُـه عضلات قويّة ترتبط بعظْم القحْف. وكان يتـغَـذّى أسـاسـاً على النّباتات نظراً لتطوُّر اضراسه وشكْل أنيابه الصَّغيرة. و بالنسبة للنموذجين، الافريقي والاضلع، فإن سعة الدّماغ لم تصل بعد آنذاك الى المستوى الذي عليه دماغ الانسان ولا تتعدى سَعَة دِماغ البُونْجي الحالي.

وابـتـداءً من سنة ١٩٥٥ تَمَكّن العلماء من سلسلة من الاكـتـشـافـات المُهمَّة التي تمَّت في إفريقيا و بالضبط في تـانْـزانيْا، وهي على شكل مُتحجّرات عديدة توجد من بيْنها



إفـريـقـيـا مَـعـينٌ لا ينبض.

أُحفورات الزِّينْجَانْثرو بُوسْ بوَازْيي وهو نموذج لرجُل اوستراليا الاضلع الذي كان أوّل من نسبت إليه الاعمال البدائيّة المعتمدة على الأدوات الحَجَريَّة المُعالجة. وقد اثبت العالم دَارْتْ ان إنسان اوستراليا الافريقي بدَوْره كان قَدْ عالج العظام وأسنان الحيوانات وقرونها ليصنع منها بعض الأدوات البدائية الضّرورية لحياته اليومية الا ان بعض الاخصائيين في علم الاحاثة أنّ الامر يتعلق فقط باستعمال هذه الاشياء دون معالجة لها وأنّ أول عمل من هذا النّوع كان على يد إنسان زينْجَانْتروب الذي عثر عليه في أولْدوَاي، إذ يُعَدُّ أول من قام بمعالجة الحجارة ليصْنع منها أدوات بدائيّة. وكانت هذه الافتراضات من العوامل التي جعلت العلماء يعتبرون أن انسان أوستراليا الأَضلع رغم خلقته الشّبيهة بهيْئة القرْدَة، كان يتوفّر على قسطٍ من الذّكاء يمكنه من بعض أشكال الاختبار والقرار والتّنْفيذ. ويمكن القول إننا على نحو ما بدأنا في هذه الحقبة التاريخية نرى المزيد من الضَّوء المنير ليَبْهُونا المظلم وأنّنا نقترب من فجوة الخروج من عَتَمَتِه. ولكن لابدّ من المزيد في التفكير والتمحيص. فلنفْرضْ اننا أمام ثلاثة اخْوة اشقَّاء يبلغ عمرهم بالتوالي سنتين واثنا عشر سنة وخمساً وعشرين سنة، فإذا أمْعَنَّا النّظر في خلقة كل واحدٍ منهم فسَنَجِدُ أنهم يَخْتلفون اختلافاً كبيراً مع ما يُظْهرونه من التشابه العامّ في القسمات أو المَلاَمح. فالأ ول صغير الجسم وقصير الاعضاء، وهو سهل التأثُر والبُكاء من أجل أبسط الأعراض كالجوع والعَطش كما لا يستطيع حمل أثقال او المشي والجَرْي بسُهولة، وهو لهذا كلّه محتاج الى كلّ شيء والى رعاية الآخرين لأنه كائن بدون قوة ولا يستطيع حماية نفسه. أمّا الثاني فهو أقوى من الأ ول الى حدٍّ ما وأطول منه قامةً و بإمكانه حمل بعض الأ ثقال والاعتناء بنفسه وهو قادر على إنجاز حركات جَسَدِيَّة مُتَكَامِلة كالجرْي والقفز وغيرها. أما الثالث فهو رجل ناضج بصدْرٍ وَوَجه أشْعَرَيْن ومنكبَيْن عريضَين وأعضاء قو ية وذات عضلات شديدة. وهو بذلك عاقل، يفكّر لنفسه ولغيْره. وهذا الاختلاف الذي سجّلناه أثناء ملاحظتنا للاخوة الثلاثة لا تَتَعدّى حدود الثلاث والعشرين سنة فَمَا بالك بِحَقَب تفصل بينها آلاف السّنين، حين نعْثر على آثارِ اخوةٍ في كل واحدةٍ منها. فالواضح أنّ الفارق الزّمني بين النّماذج التي يعْثر عليها ولو في نفس البقعة الارضية كفيل بتفسير الفوارق الخلْقية والبِنْيوية وعليه يمكن اعادة إنشاء مراحل التطوُّر البشري.

وهذه الفرضيات هي التي أوردَتْها الباحثة ليك Leakey في أطروحَتِها حول بَقَايا النّموذج الذي عَثرتْ عليه في أُولْدُواي والذي سمَّته بالانسان الماهر والذي استنتَجَتْ أنَّه من أذكى نماذج إنسان أوستراليا. وكان يتوفّر على سَعَةٍ قِحفيَّة مُهمَّة وكان معاصراً للنماذج الأُخرى. وقد فتح هذا الاكتشاف افَاقاً مُتَشَائمة في علم الإحاثة. ذلك أنه تبيَّن أن إنسان أوستراليا قد لا يكون هو الجدّ للإنسان



تمثيل للرّامابيتيك، ويصنّفه بعض الدّارسين في إطار التسلسل التطوّري للانسان.

الحاليّ ولكنه كان مجرَّد نموذج من المخلوقات التي كان يصطادها الانسان الماهر. غير اننا لا يجب أن نسلم بهذه الفرضية ونحن مازلْنا في غَيَاهب كهْفنا المُظلم، بل يجب التفكير أكْثَر في الاخوات الثّلاثة وفي إمكانيات تفسيرٍ أخرى.

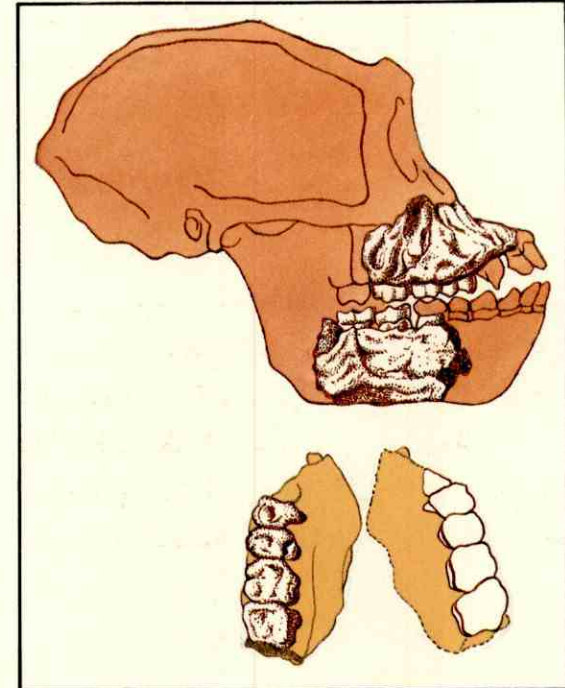
وقد عثر في عدّة أماكن من ناحية جاوة بطانْزانْيا على بقايا مخلوقات تعرف بالبيتيكانْترو بوس والميغَانْترو بوسْ والتي صُنّفَت ضمن فَصيلة الانسان الواقف الذي أُدرج ضمن سِلْسلة التّطور البشري.

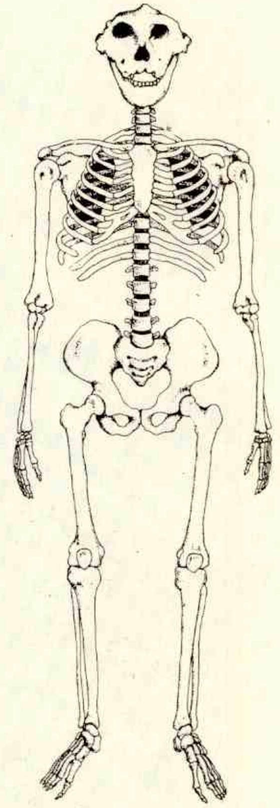
والانسان الواقف (أمُو إيريكْتُوسْ) مُعاصر لإنسان أوستراليا وتبلغ سَعَة جُمْجته ٩٠٠ سنتمتر مكعب. ولا يعرف إذا كان تضَاعُف السّعة الجمجمية من مظاهر الذّكاء الخَارق أو أنّه مجرد تناسب مع حجم الجِسم إذْ كان طول هذا الاخير يتجاوز ١,٧٠ متراً.

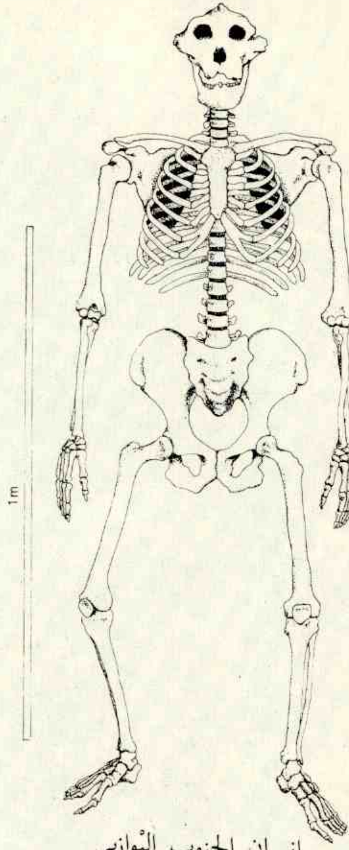
وبهذا الصدد، وبعد أن تأكّدنا من توفُّر الانسان الوافق على عدّة خصائص ما زالتْ اقرب إلى الخَصَائص القِرْدية منها إلى الخصائص الانسانية، فلْنَتوقف قليلاً عند نموذج الميغانْترو بوس: لقد إسْتنْتج بعض العلماء من بعض بقايا فك عثر عليه، أنّ هذا الانسان يتسم بالعَمْلقة، ومن هنا جاء إسمه، بالانسان العمْلاق، بحيث يبلغ طول جسمه حوالي مترين وكان يعيش بالخصوص في الغابات. وقد نسجت عدة خرافات وأساطير حول الميغانترو بوس ونظيره الجيغانْتُوبيتيك الصّيني (القرد العملاق) ومازال

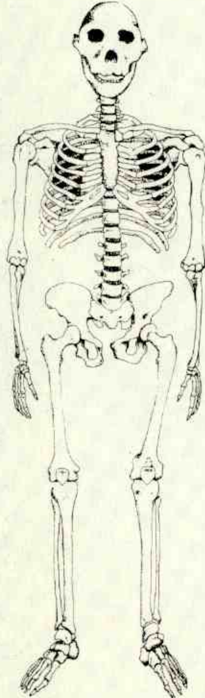
في الرسم أسفله : تمثيل لجُمجُمة لانسان الجنوب القوّي ونلاحظ حجم فكه الضّخم.

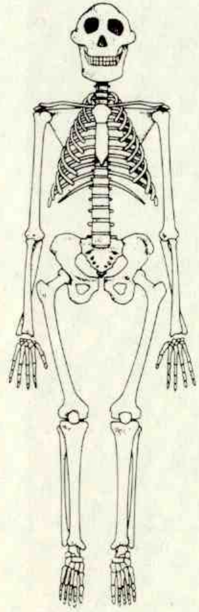
إلى اليسار : نموذج لانسان الجنوب الافريقي ممثّل حسب حجم وخصائص الجسم. وكما نلاحظ حين مقارنته بالرّامابيتيك في الصفحة الأخرى، فهو لا يختلف عنه كثيراً من حيث التطوّر. وحمل الانسان الجنوبي لعظم فخذ حيواني دليل على مسيرة الانسان نحو تطوير الذكاء الذي سيصل به شأواً بعيداً.





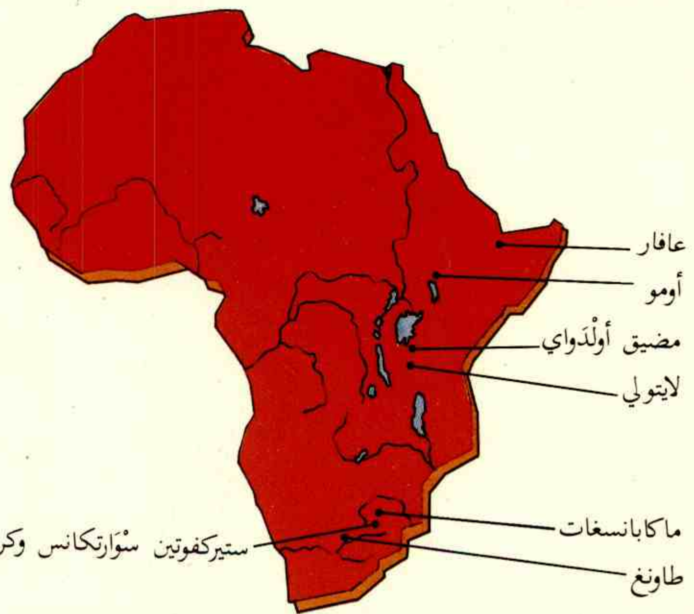






بعض من هذه الحكايات شائعاً إلى يومنا هذا في مناطق يتي ومنها ما يحكي عن رجل الثلوج الممقوت الذي عاش في كل من النيبال والساس قواتش ووسط الغابات الكبيرة شمال امريكا.

الرسم أعلاه يبيّن الاختلافات البنيويّة بين الأصناف المُنحدرة من الانسان الجنوبي : من اليمين الى اليسار : الأفارانسيس الذي يعود تاريخه إلى ١٣ و ١٤ أو ٥ مليون سنة، وإنسان إفريقيا الذي يبلغ طول قامته. ١,١٠ إلى ١,٣٠ متراً والبْوَاسيّ أو الزّنجاتروبوس الذي تنسب إليه الأعمال الحجرية البدائية، والانسان القوي الذي يمثل الفرع المنقرض. إلى اليمين، بعض الأماكن في إفريقيا، التي عثر فيها على بقايا انسان الجنوب.



والذّكاء نفسه يتطوُّر تدريجياً إلى أنْ يصل الى درجات قصوى لا تتَصور، وذلك ما يجب احْتماله ونحن نقارن بين هذا المخلوق و بين سابِقيه البِدائيّن. وقد تكون العوامل المناخية والطّقسية قد ساعَدَتْ على هذا التّطوّر الحاصل في السَّعة الجُمجمية لهذا النّموذج، فقد دفعت بالأَجْناس البشرية البِدائية الى مُغادرة الفَضاءات الوّاسعة والالْتجاء الى الكهوف حيث تسهُل التَكتّلات الأُسَريَّة والا تصالات المُجْتمعيَّة التي مافَتئت تَتَقَوّى وتتعمَّق لتَصْدُرَ عنها التّراكمات الاجتماعية والانسانية الأ وّليّة.

أما فيما يتعلّق بالصناعات الحَجَرية فقد سُجّل لديهم ميل إلى تقنيات نحت قشور الصَّوّان لصنع مختلف الأدوات ذات الاستعمال النّافع.

ولنرجع بعد هذه الاطْلالَة إلى الأحفورات التي تَمّ العُثور عليها في عدّة مناطق من العالم القديم:

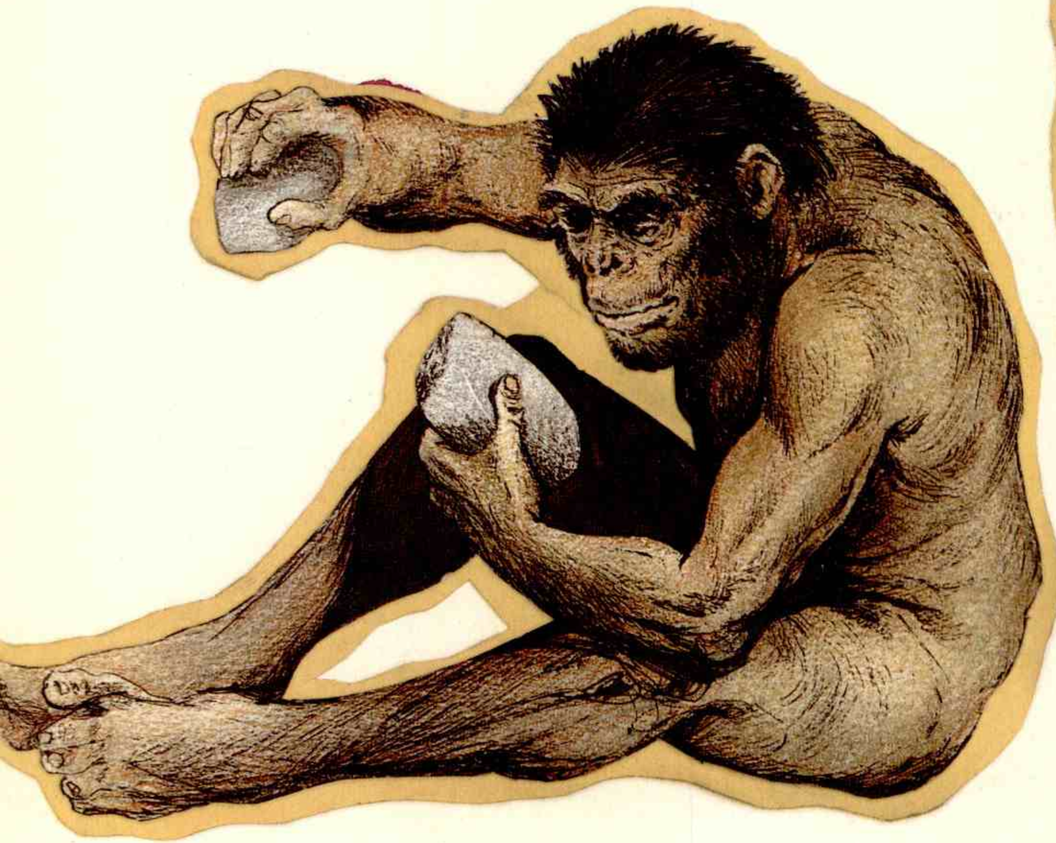
ففي آسيا و بالضبط في منطقة نْغانْونغ بِجَاوة، ثم اكتشاف بعض آثار إنسان قديم يرجع عهْده إلى حِقبة الريسْ - وُورْم. وقد عرف بإنْسان سُولُوونسيسْ الجَاوِي وهو يحتفظ بعدّة سمات قرْدية جَعَلت البعض يعتقد أنّه أوّل صنف مُنْحدرٍ مُبَاشَرَة من الفَصيلة القرْديَّة الحقيقية، إلاّ أنّه يتميّز بسَعَة جُمجُمتـه التي تصلُ إلى ١٣١٦سم.م ولم يتمكن العُلماء من العُثور على آثار تدلّ على استعماله لأدوات حجرية.

وفي إفريقيا الجنوبية، تم اكتشاف جمجمةٍ حجرية متكاملة وقطعية فك من العهد الحَجري والحقْبة الشّتويّة الأخيرة. وفي مناطق إفريقيا الشمالية بين الغابات الاستوائية والساحل الشرقي، عثر على مُتَحجّرات من نفس العهد ولكنّها لم تأت بمعلومات دقيقة. كما أنه تمّ اكتشاف أجزاء فكوكٍ عُلْوية وسُفْليّة من صِنْف خاصّ في عدّة مناطق مَغْربيَّة كَطَنْجة والرّباط والدّار البَيْضَاء، جعلت بعض المُخْتَصّين يؤكدون على أن المَغْرب كان

مهداً لحياة الانسان في العهد الحجري القديم، وافترض علماء آخرين أن هذه البقايا هي للانسان القديم الذي نَشَأ في أوربا وهاجَرَ إلى المَغْرِب، وقد اعتمدوا في ذلك على آثار مماثلة لهذا الانسان في القارة الأوروبية.

تمثيل للانسان القويّ والبّوَاسّي أثناء القيام بصنع أولى الأدوات الحجرية في تاريخ الانسان.







الصورة اعلاه : جُزء من جمجمة إنسان جنوبي قوي اكتُشف في مضْيَق أولدُواي بطانزانيا وفك للانسان القوي تم اكتشافه في بانينخ بطانزانيا، ثم جزء من جمجمة إنسان جنوبي أفريقي عثر عليه في ستيركفونتين بافريقيا الجنوبية.

بالنسبة للاحاثيِّين، يعتبر خليج أولداواي ميداناً غنيا بالمعلومات النفيسة عن العصور القديمة. في الرسم أسفله يمكن تمييز بقايا متنوعة حسب الطّبقات الأرضية التي اكتشفت فيها. وقد بقيت محفوظة بفضل عوامل خاصة بطبيعة التربة في تلك المناطق.

ففي كل من ألمانيا وفرنْسا وعدّة بلدان من أورو با الشّرقية وجدت مُتَحَجّرات و بقايا الأصناف البشرية البدائية المُمَثلة لعدة حقب مُتعاقبة، مما يَسْهل معه إعادة إنشاء وتَصَوُّر تسلْسلٍ مُمْكن للبشريَّة عبر الاحقاب والعهود الجيولوجية المعروفة. وعليه تم تصنيف هذه النماذج

إنسان الجنوب البوازِيي

الانسان الواقف.

انسان البيتيكانتروبوس الواقف ؟

امرأة من صنف الانسان الماهر

امرأة من صنف الانسان الماهر

بقايا مسكن قديم

الطّبقة الرّابعة

الطّبقة الثّالثة

الطّبقة الثّانية

الطّبقة الأولى

٥٠٠,٠٠٠ سنة

١,٠٠٠,٠٠٠ سنة

١,٨٠٠,٠٠٠ سنة



البشرية الى نموذجين: نموذج الانسان الْمَاقبْل النَّيْندرتَّالِيّ الذي عاش إلى غاية حقْبة الرّيس - وُورْم البَيْجَليديَّة ثم نموذج النَّيْندرتَّالي الذي عاش في أوائل حقبة الْوُورم. وكان النَّموذج الأول يتوفر على سَعَةٍ دماغِيَّة أقلّ من سَعَة دماغ الانسان الحاليّ، إلا أنه إستطاع تطوير بعض الخَصائص التي تجْمَع بين مُميزات النَّيْندرتّالي ومُميّزات انسان سَابْيانْس، ومن بين الآثار المُمَثّلة لهذا النَّموذج هناك إنسان سْتَانْهَايم الذي وجدتْ له جمجمة إنسان سَابْيَانْس. كما وجدت جمجمة أُخرى من نفس الحقبة ولكنها تشبه في بعض خَصائصها جمجمة الانسان التيندرتالي. وهناك إكتشافات أخرى تَمَّت في جبل طارق وَسَاكُوبَاسْتُور بإيطاليا وكَارْبينَا بكَرْواتْيَا، وهي عبارة عن جمجمات ذات خَصَائص متوسّطة تجمع بين سمات إنسان سَتَانْهَايْم وسمات الإنسان التيندرتالي الحقيقي. وهي بذلك دليل على نوعٍ من التَطوُّر الحاصِل لدى الجنس البشري في عهد الرّيسْ - وُورْم حيث بلغتْ سعة الجمجمة البَشَرية ٤٥٠سم.م.

وفي سْوَانْسْكُومْب بأَنْجْلَترا، عثر بين سنتي ١٩٣٥ و١٩٥٥ على أجزاء جمجمةٍ من الصّنف الذي يُسمَّى حَسَبَ مُصْطلح سيْرغي «البْرُوفَانْتْرُوبْ» الذي يتوفّر كذلك على خصائص الانسان «التّيندرتالي المُتَقَدّم» وقد إختلف العلماءُ في تاريخ هذه الحفريات لِيَخْلصوا أخيراً إلى الافْتراض بأنّها ترْجع إلى حقْبة ما بين الرّيس المتوسّط والرّيس - وُورْم.

وبالنسبة لبعض الدّارسين، يمثل إنسان نيندرتّال نُقطة الْوصُول البَشَريّ الحقيقيّ بَيْنَما يَعتبره آخرون نُقْطة انْطلاق هذا التَّطوُّر. ذلك أنّه من حيث خلْقَتها وتكوينها الجَسَدي تعتبر النَّماذج النَّيْندرتّاليّة نموذجاً نهائياً بدون ذُرّية ولعلّ إنقراضهم التّامّ يرْجع إلى الافراط في التَّمَيُّز والتَّخصُّص. وقد توقف النّموذج حواليْ ما قبْل ٣٠ ٣٥ ألف سنة.

أما الانسان سَابْيانْس فهو ليس منحدراً مباشرة من الانسان التّيندرتالي كما كان شائعاً، بل هو من نتائج تطوُّر صنف البْرُوفَانْترُوبْس أو الصّنف ما قَبْلَ التّيْندرتالي الذي

اعادة إنشاء لانسان مستقيم معاصر لانسان الجنوب، وكانت سعة جمجمته تصل ٩٠٠ س. م. ويرى البعض انه جد كل من البيتيكانتروب والميخانتروب .

تحدثنا عنْه آنفا. غير أن الدّراسات العلمية والتقْنية تَعْتَبِرُ أن الانسان النينْدرتالي هو الجدُّ الأعْلى للنّماذج التي جاءتْ بعْده. وهو يُعَدُّ مَرْجعاً قارّا لتَصْنِيفها والتأْريخ لَهَا ولخصائصها.

والانسان النينْدرتالي هو الذي تُنْسب إليه الثَّقافة المُوسْتِيرِيَّة الكُبْرى والّتي تنقسم إلى عدة حقب ثقافيَّة مُتَعاقبة : فمنها المُسْتِيرِيَّة النّموذَجيَّة والمُوسيِيْرِيّة السُّنينيَّة التي عَرَفت صناعة أسلحة مُتَكاملة ذَات حدَّين ومَقَارِس ومِحَكَّات لمعالجة الجِلد وصُنع الأسنَّة. وكَانَت هذه الأدوات تُصنع من نحت قُشُور الصَّخر والصَّوَّان. وإلى هذه الحقبة كذلك يرجع ظهور الشَّعائر والطقوس الجَنائِزية وأكل اللُّحوم الآدمية ونظام المقابر التي توضع فيها حاجيات الميت وغيرها من الأشياء المقدَّسة التي قد تحفظه وتُعينه في حياته في العالم الثَّاني.

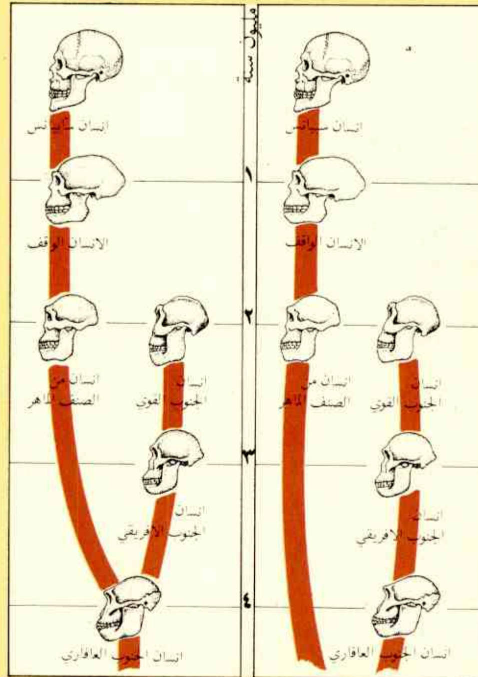
الأشياء المقدَّسة التي قد تحفَظه وتُعينه في حياته في العالم الثَّاني.

وانتشار الانسان النّيندرْتالي واسع جداً على مُسْتَوى مجموعةٍ من الأقْطَار. فَمُنْذُ أنْ وجِدتْ بَقَايَاه الأُولى بضواحي نينْدرتال بألمانيا إكتشف كذلك في سْبَايْ ببلْجيكا وفي المُوسْتِيي بفرنسا وفي جبل سيرْسي وطْوَارْنو بإيطاليا وفي جبل طارق و بروكْنْ - هيل وفي العراق وفَلسْطِين.

ومن الرَّاجح أن هذا الانتشار قد يرجع إلى كون الانْسان النيندرتالي كان يعيش حياة شبْه **التّرحلية. فقد** كان يُزاول صيْدَ الوَعْل البري ودُبَّ الكُهُوف و يُهاجر في الفُصول الشَّتْويَّة. ومن الناحية الجسْمية فقد كان قويَّ البنية، عظيم الكُتلة ذو عضلات بارزة في السّاعديْن

هل كان الانسان الجنوبي الإفريقي أحد أجدادنا؟

في هذا الرّسم يظهر ترتيب لُوسِي في الخطِّ التّطَوري للانسان. ولُوسي هو انسان استرالي مؤنَّث اكتشف سنة١٩٧٤بهَادار بناحية عَفَار بأثْيُوبيا، ومن قبل الأمريكي دُونَالْدْ جُوهَانْسْن الذي اقترح تصنيف هذه المرأة كإنسان أوستراليا العَفَاري و وضعها كبداية بعَرْق الانسان وللفرع المنقرض لانسان افريقيا والانسان القوي (الرسم الايسر).

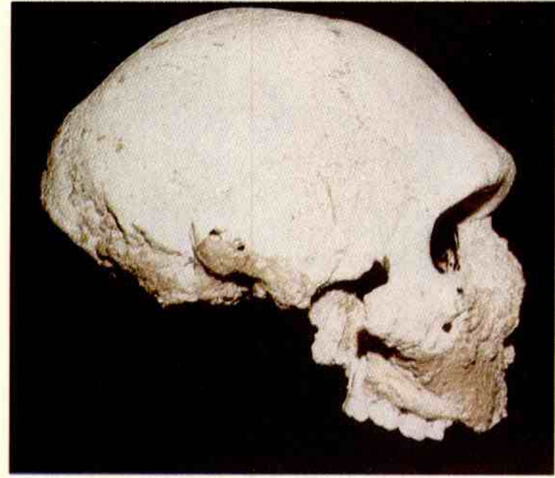


وإلى اليمين نلاحظ رسما تبيانيا يوضح نظرية ليكي LeaKey الذي صنف انسان افريقيا في خط متواز لخط التطور الانساني قبل الانسلن اليوناني والانسان القوي.

خلال هذه الدراسة ركزنا عدّة مرات على تنوّع وتباين النظريات حول الاكتشافات الحديثة وأهميتها وكل نظرية تعطي تأويلا وتفسيرا للظواهر المدروسة من منطَلَق معين قد يتعارض ومنطق النَّظَرِيّات التي قَبلها.

ومن آخر الاكتشافات ما توصلت إليه بعثة أمريكية، حيث عثرت على بقايا متحجرة لطفل يبلغ أربعة عشر سنة ينتمي إلى فصيلة الانسان الواقف وتبلغ قامته ١،٧٠ مترا. ويظهر في هذا الاكتشاف أن طول قامة الانسان ليست مرهونة بتطور متواصل بقدر ما هي مقترنة بعوامل وظروف بيئية، ويكفي للتأكد من ذلك أن نعلم أن الغريمالِدي وهو أحدث بكثير من الانسان الواقف لا يتعدى طول قامته ١،٦٠ مترا.

وأهم شيء في علم الاحاثة أن نعتبر كلّ الفرضيّات المُمكنة ومقارنتها للتوصل إلى الاحتفاظ بأهمها والتعامل مع الأخريات لتعميق التصنيف. ولا ننسى أن التساؤل حو أصل الانسان لم يبدأ إلا قبل قرن من الزمن، وما زالت الأبحاث العلمية والدراسات المعتمدة لأهم الوسائل التقنية المتقدمة تحاول الاجابة عن العديد من الأسئلة الغامضة حول أصل الانسان ومختلف مراحل تطوره.



في الصورة أعلاه جمجمة لانسان مستقيم عثر عليها في بيترالونا، باليونان، وتدلّ على انتشار هذا الصنف في عدة اقطار من العالم.

والساقيْن. وكان وزنه حواليْ ٨٠ كلغ أمّا قامته فتبْلغ ١,٦٠ متر وكان شكل جُمْجُمته مُتميزاً وتبْلغ سعتها ٦٠٠ سم.م **أي تفوق بكثير معدّل السعة الحالي.**

وكانت عظام رَقَبته وجَبْهَته ناتئة، الشّيء الذي يوفّر له مظهراً حيوانياً، كما أن العلماء ظَلّوا لِمُدَّة طويلة يَسْتَبْعدون أن يكون مخلوق على هذا الشكل قادراً على تلك الانْجازات وأن يكون جدّاً للانسان الحاليّ.

وخِلال حياته شِبه التّرَحُّلِيَّة كان إنسان نِينْدرتّال يعيش في الكُهوف، خاصَّةً أثناء الفَترات التي يكْثر فيها الصَّيد. وداخل الكهوف طَوَّر خصائص سيكولوجيَّة مُهمَّة تقترب كثيراً من الميل إلى العبادات الرُّوحية كما يظهر ذلك من خلال الطُّقوس الجَنائزية التي تحَدَّثْنا عنهَا سابقاً. وفي مَغَارة طْوارنْوَا بلغُورْيا، عُثر على رسمٍ على الصَّخر لدُب كبير وعليْه آثار الضَّرب بالحجارة، وقد يكون ذلك من **الدَّلائل التي تتعلَّق بأحدى الطقوس التي تفْرض قتل الوَحش رَمْزِيا قبل الفتك به ماديّا. ومن الغريب أن يكون أكبر أعداء الانسان النيندرتالي وهو دُبُّ الكُهوف قد لقي نفس المصير، أيْ الانقراض التّام.**

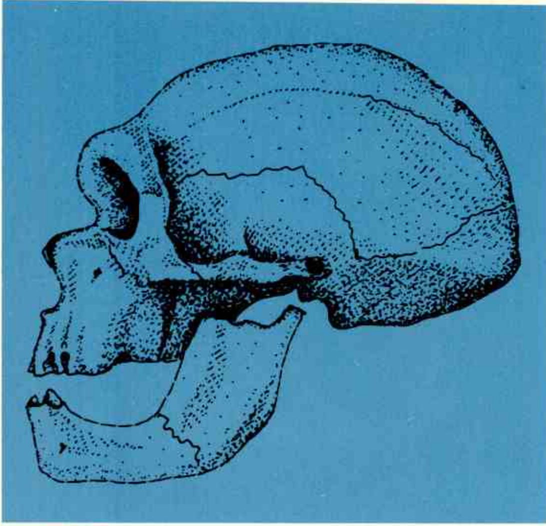
وفي نفس الحقبة التي شهدت آخر النّماذج النّيندرتالي ظهَر كذلك في كُلٍ من أوروبا وفلسطين ما يُعْرفُ بانْسان سَابْيانْس. وقد وجدَتْ عدَّة متحجرات منه بالخُصوص في

إنسان الصين، هل كان ساحراً أم آكلا لِلحوم الآدميّة؟

يرتبط ذكر اسم الانسان الصيني بأكبر خسارة في تاريخ علم الاحاثة. ذلك ان بقايا عظْمية لحوالي اربعين شخصاً، استغرق اكتشافها عشرة سنين، ضاعت في احدى الغواصات التي كانت تنقلها الى اوروبا لدراستها خلال الحرب العالمية الثانية. وقد كان هذا الضياع عائقاً للدراسات العلمية حول الانسان الصيني مما جعل كُلّ الدراسات تكتفي بملاحظات العالم د. بلاك (D.BLACK) الذي قام باكتشاف تلك البقايا النفيسة ومما يؤسف له هو ان تضيع فرصة نادرة كهذه يتمكن فيها العلماء من الحصول على عينة مهمة من الآثار العظيمة المتنوعة التي يرجع تاريخها الى حقبة بعيدة جداً في أغوار التاريخ وفي نفس الوقت قريبة منا بالنظر الى عمر الكون.



لقد عثر على نماذج مماثلة لهذه الجمجمة في تشيوَـتيان قرب بيكين. وهي تنتمي لفصيلة الانسان الصيني البيكيني. وكان هذا الأخير بدون شك قد استعمل النار ومارس اكل اللحوم البشرية الطقوسي. ويتميز بسعة دماغية تقارب سعة دماغ الانسان الحالي. في الصورة يظهر هذا الاتساع بوضوح رغم ان الجمجمة لنموذج نيندرتالي الذي كان يمارس بدوره هذه الطقوس .



في المربع صورةِ لجمجمة انسان صيني والى اليمين، اعادة انشائه .

فَرَنْسا بضواحي كْرومانُيون وشَانْسْلادْ وفي إيطاليا بناحية غْريمالْدي، إلاَّ أنَّ انْتِشاره إمتَدَّ إلى مُخْتلف أقْطار المَعْمُور.

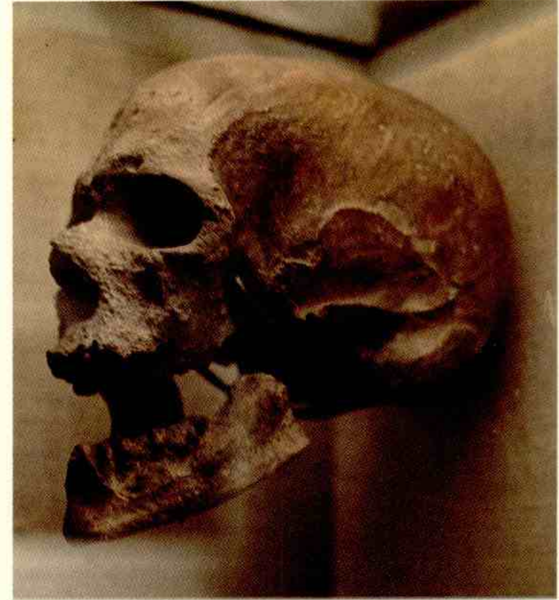
ومن خَصَائِصِه الجِسْمِيّة ما يُمْكن تلخيصُه في ثلاث نماذج كل واحد منها بالمناطق الثّلاثة أي كْرُومانيون وغْريمالدي وشَانسْلادْ. فالأوّل كان ذَا قامةٍ تصل من ۱,۷۰م الى ۱,۹۰م وكانت له أعضاء طويلة ومنْكبان عريضان مقابل ضِيق الوَرِك. وتتميز جُمجمته بجبْهة مُسْتديرة ومحْجريْن مرَبَّعين وأنف ضيقٍ وذَقن نَاتِيء وبسَعةٍ تصل إلى ۱٦۰۰ سم.م. أمّا الثاني وهو رجل غْريمالدي فكان ذا قامة أقْصر من الأول وجُمجمة مُسْتطيلة وفَكّ بارز وجبْهة مُنْحدرة تشبه بنْية الجنْس الزّنْجي الموجود بجنوب إفريقيا حالياً. أمّا إنسان شَانْسلاد فلَه جمجمة كبيرة تصل سعتها الى ۱۷۰۰ سم.م، وهي مُسْتطِيلَة مصحوبة بوجهٍ عريض وجبهة عاليه ومحْجرين مُسْتديريْن ومتَقَارِبين وأنف قصير وضيق أمّا عظام كلٍ من الوَجْنَتَين والذّقن فيشو بها **نتوءظاهر**. أمّا قامته فتتَراوح ما بين ۱,٦۰ و۱,٦٥م. أمّا هَيْكَلُه العَظْمي فيتميّز بالقُوّة والصَّلابة.

وقد وجدت في كلّ من كُومْبْ كابيل بِفَرَنْسا وبريدمُوست ببوهيمْيا بقايا تُشْبه آثار انسان كْرومانْيون، كَمَا أنّه تمّ العثور في بافْلوف على مثل تلْك البَقَايا مَصْحُوبة بأدوات وأواني مُتْقنة الصُّنع اعْتُمد في نَحْتها على مُعَالَجَة أنياب المَاموث والتي ترجع إلى ما قبل ۲٤۰۰۰ سنة. وقد عُثر كذلك على آثار لانْسان سَابْيانْسْ في عدة مقابر كُبْرى

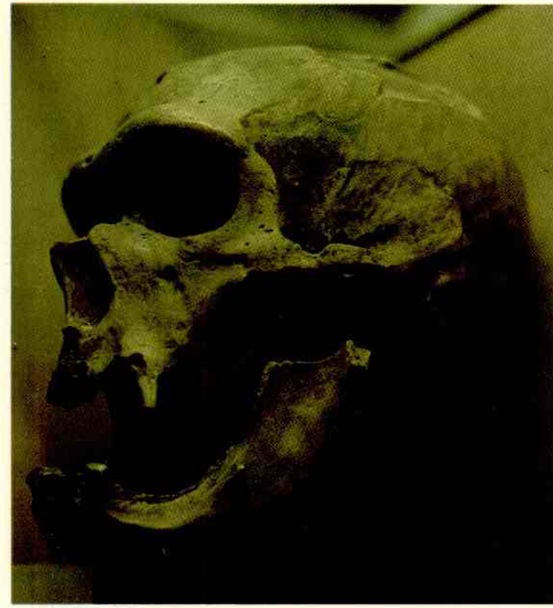


إلى اليسار : اعادة إنشاء لانسان نيندرتالي ذي الجمجمة الواسعة والأعضاء القوية. ويمثل النيندرتالي الفرع المبتور من شجرة الانحدار الانساني، يمثل أهم أطرافها نظرا لتطور فكره النسبي.

في الصورتين أسفله، جمجمتان نيندرتاليتان الأولى عثر عليها في شانديار وهي محفوظة في علم الآثار ببغداد، والثانية اكتشفت في لاشابيل ـــ أوسان وهي في متحف العصور القديمة بسان جيرمان أن لاي بفرنسا وتدلان على ان كلا من العراق وفَرنسا شَهِدا ظهور الانسان النيندرتالي المنتشر في الخط الذي يمر من أوروبا الى آسيا.







في الصورة، جمجمة لانسان سَابيانس من فصيلة الكرومانيُون، وقد عثر عليها في لاشابيل أو سان. في الرسم جانبه، إعادة إنشاء للكرومانيون ويصل طول قامته من ١,٨٥ الى ١,٩٠ مترا، وشكله مشابه لشكل الاوروبيين الحاليين.

تَمّ اكتشافُها بالمَغْرب وآسْتلار بالصَّحْراء وفي إفريقيا الوُسطى، وتظْهر كلُّها أن هذا الانسان كان يعيش على طريقة بدَائيَّةٍ.

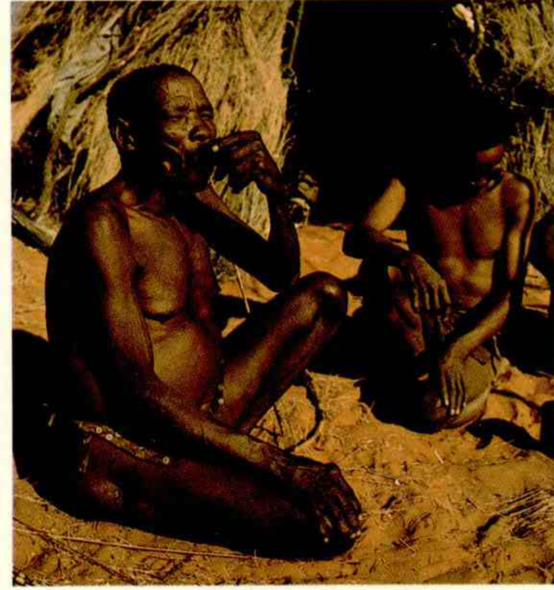
وتُعْتَبَرُ القارَّة الافريقية بصفةٍ عامة مجالاً ذا أهمية قصوى بالنِّسبة لِدراسات عُلَمَاء الاحاثة، ففي أراضيها، عُثر على أهم القطع الأثرية والمُتحجّرات التي ترْجع الى أقدم العصوروالّتي تحمل شَهادَات قيّمة على شَكْل؟وحَيَاة أقْدم النّماذج البَشَرية. وكأن هذه القارة عبارة عن مَهْد حفظ وصيَانَة هذه الآثار النَّفيسة.

ويمكن تفْسير امْتياز القارَّة الافريقية بهذه الخاصة الفريدة باعتبار الظروف الطقسية والمَنَاخية والجيولوجية التي تتميز بها. فرغم تَوَفُّرها على بعض الخصائص التي تشْترك فيها مع كلٍ من آسيا وأُورو با، بقيت محافظةً على بعض المناطق المُتميزة التي شهدتْ توقُّفاً لمسيرة التَّطور الثَّقافي و بالتالي الحفاظ على بقايا الماضي البعيد. ومن السَّهل تفسير أسْباب انْتشار وكثرة البقايا المُتحجرة في هذه القارة بالنَّظر الى طبيعة أراضيها الغنيَّة بالسُّهب والفيَافي والتي كانَتْ مَرْتعاً لمُخْتلف نماذج الرئيسات والنَّماذج الأ ولى للانسان القديم. ولذلك بات القُطر الافريقي في نظر العُلماء المَهْد الأ ول للانْسانية.

وقد تـوبعـت الدّراسات والتّنقيبات في مُختلف بِقاع العَـالـم بَـحْـثـاً عـن بَقايَا إنسان سَابْيَانْس. وهَكَذا عثر في الصّين بـنـاحـيـة تْشْووكيووتْيانْ عن نموذج صيني من نفس عَـهْـد إنـسـان سابْيَانْس وهو معروف بإنسان بيكين و يَتوفّر على قـامـةٍ مـهـمـة يَـتـرَاوَحُ طولها بين ١,٧٤م و١,٨٠م وله جمجمة مُسْتطيلة تُذَكر بِبَعْض خَصائص إنسان كْرُومَانْيون. ولَدَى تـفَـحُّـص الـنّـموذج تـبين أنـه يـقـتـرب كذلك من الأصـنـاف الـيـابـانـيـة والـمـنـغُـوليَّـة والصّينية والأمريكية الشّمالية.

وهَـذَا مـا يَـجْعَلنا نَرَى أن القارة الأسيو ية على خِلاف الـقـارّة الافـريـقـيـة الـمُـحـافـظـة هي مجال للتّطوُّر والتّنقل الـعـرقـي، ذلك أنَّه من المُحتمل أن يكون إنسان سَابْيانس الـذي بآسـيـا وأمـريـكـا قـبـل افـتـراقهما. وهكذا انتقلت الـنـماذج السَّابْيَانْسِيَّة الى الأ راضي الأمريكية الشّمالية الى أن وَصَلَـتْ إلى الـمِـكسيك والتّابيكْسان حيث وجد هناك متـحجر يرجع إلى ما قبل ٩٠٠٠ سنة، وهو يمثل الخصائص المميزة لصنف الألغُونْكينيين الذين مازالت ذُرّياتهم تعيش بكندا والمناطق الاستوائية الامريكية (الهنود الحُمر).

وعـلاوة على ذلـك، فـقـد عـثـر فى امـريـكـا على بـقايا مـتـحـجـرات قـديمة يـرجـع تـاريخها إلى ما قبل ٢٠,٠٠٠ و٣٠,٠٠٠ سنة.



في الصورة أعلاه بوشيمانس من صحراء كالاهاري بافريقيا الجنوبية كان انسان غريمالدي وهو من اصناف انسان سابيانس الثلاثة ذا بنية مماثلة لبنية البوشيمانس الحاليين بما في ذلك شكل الوجه والأنف الأفطس والشفاه الغليظة البارزة.

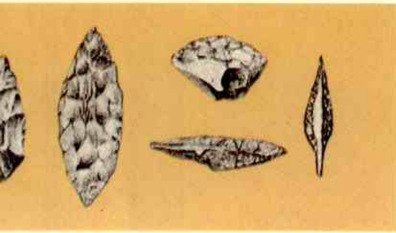
النقط السوداء أسفله تمثل الاماكن التي عثر فيها على بقايا نماذج انسان سابيانس.

وتُعْرَف الصناعات التي صاحبتْ إنسان كرومانيون الذي يُمثل بكثرة إنسان سابْيانْس، بكوْنها ذات قيمةٍ بالنّسبة للدّراسات الاحادثيّة. فإنسان كْرومانيو قد إستبدل الآلات الثّقيلة والخشنة المصنوعة من الصَّوّان والعظام بآلاتٍ أدَقّ كالشَّفرات الحادّة المصنوعة من أقْدام الحيَوانات والرّماح المنْحوتة من العِظام وربما من الخشب، لأنّ هذا الأخير لا يمكنه أن يبقى محْفوظاً من التّلف الى الآن. أمّا معالجتُه للصَّوان فقد كانت مُتَفَوقة عن ما كانت عليه من قبْله. استمرَّ تنْسيل صفائحه كَما يفعلُ بالعظام كأدوات منزليّة وكذلك لصنع تُحف ذات قيمة سحرية وطقُوسيّة وفنية. وقد إستطاع ان يتفوق في عملية التّشْسيل هذه الى أنْ تَوَصَّل إلى صنع الابرة ليَخيط بها جلوداً يكتسي بها وجِرابات وقرباً لِخزْن الماء وحَمله أثناء رَحَلاته وأسْفاره نحْو مناطق تفْتقر إلى الماء، واكتشف إنطلاقا من

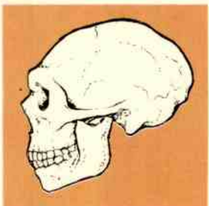
الى اليسار : من الرمابيتيك الى الكرومانيون، مرورا بانسان الجنوب الافريقي والانسان القوي والانسان الماهر والانسان المستقيم وانسان ستانهايم والانسان النيندرتالي.

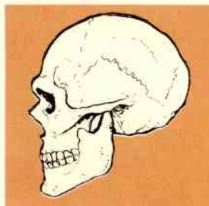
الى اليسار اعلاه : تطور تقنيات معلجة الحجارة.

الى أسفل : التطور القحفي. ويمكن ان نلاحظ ضخامة جمجمة النيندرتالي بالنسبة لانسان سابيانس والكرومانيون. ولو أن ذلك لا يدل على تفوقه من حيث الذكاء .









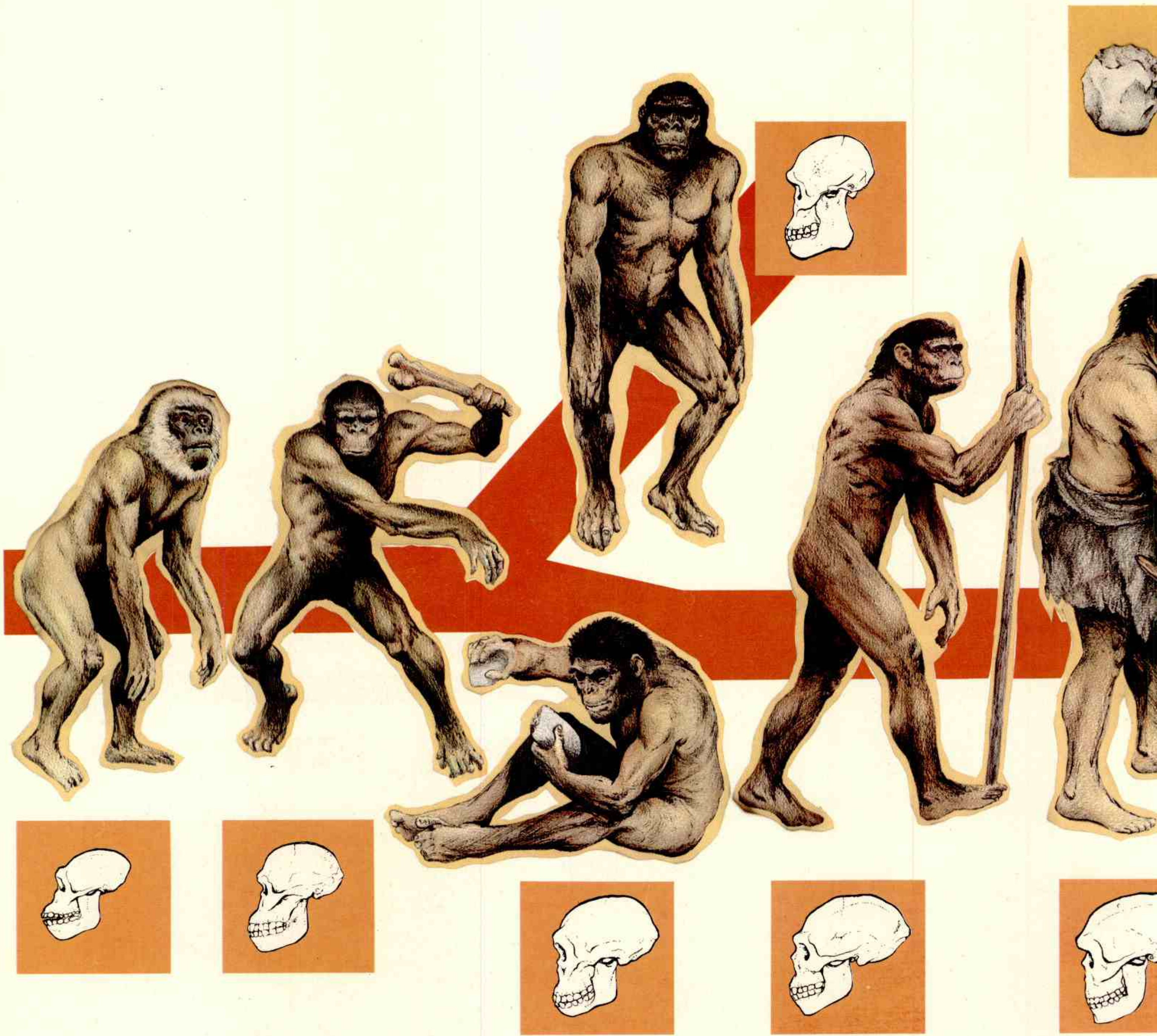
الصورة أسفله تبين قاربا من النوع المستعمل في بحيرة تيتيكاكا بالبيرو. ويظهر أن قوارب مماثلة كانت تصنع في عهد الكرومانيون من الجلود. وبالفعل فقد كان الكرومانيون قد انتشروا في مختلف بقاع العالم وخاصة المناطق الساحلية التي لايمكن الوصول اليها الا بقوارب ومراكب بحرية .



إستعماله القربة الجلْدية أنها، وهي فارغة قد تَخْتزن الهَواء وقدْ تصْلح كأدَاةٍ أوّلا ثُمَّ كَمَرْكَبة مائية بدائيَّة فيما بعد.

ومن الراجح ان اختراع الابرة هو الذي أدّى الى صنع زوارق الكَلْيَاكك التي مازالت نماذج متطورة منها مُستعملة في المناطق القطبية وأنّه ساعد الانسان على تحدّي بعض الصعاب الطقسية كالبرْد وغيره...

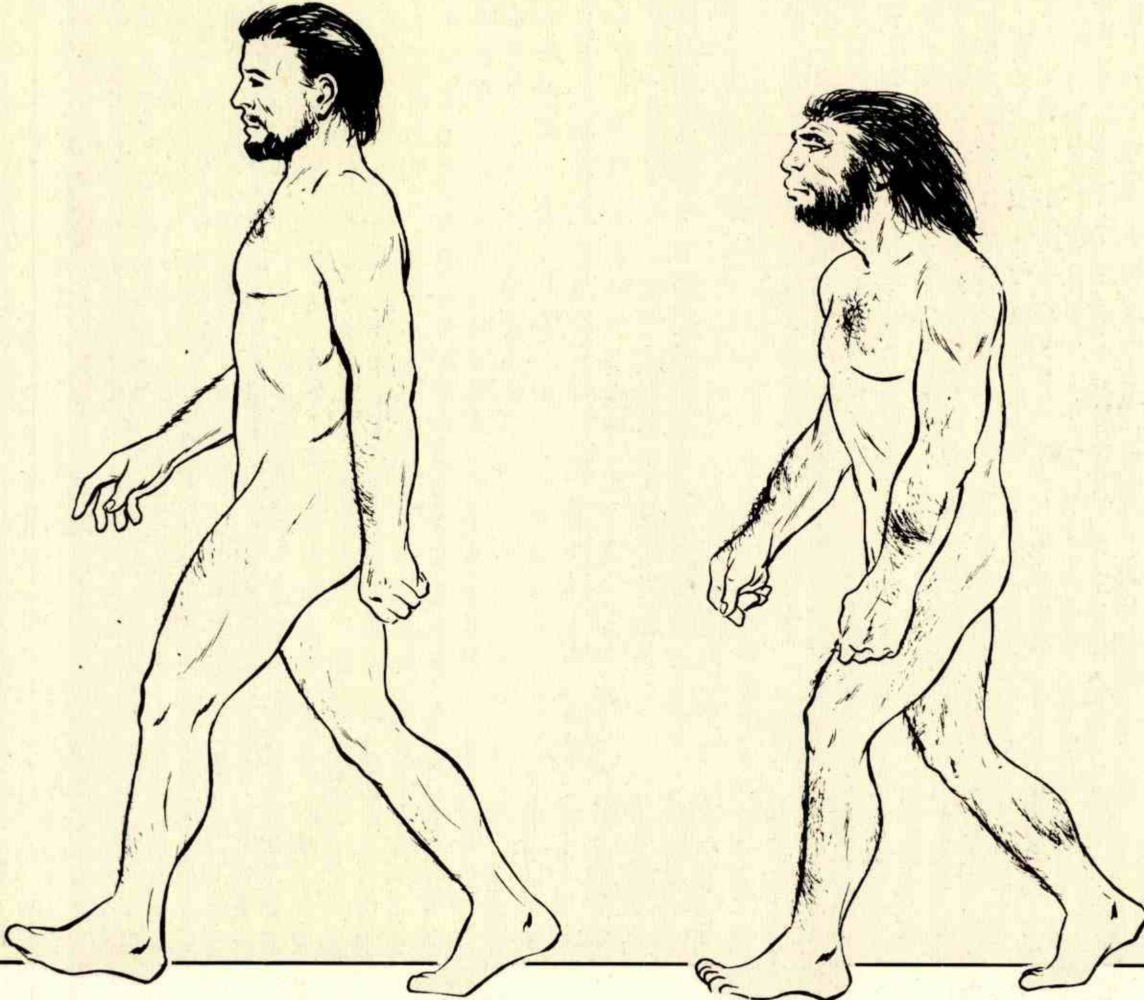
وقد مكّن استعمال النّار من تَطْوير حياة إنسان سابْيانْس حيث تحسَّنت تغْذِيته وتَبْلورتْ علاقاته الاجتماعية ونَشَاطاته الفنية. فقد اكتشفت دَاخل الكُهوف حجارة منضَّدة على شكل موقد يتّسع لنارٍ كبيرة صالحة للطَّهي والتَّدفئة. كما عثر في إحْدى الكهوف على حفْرة كبيرة يبلغ عُمْقها ٤٠ سم، بها ركام من الحِجارة بعضها فوْقَ بعض على شكل قُبَّة. ولكن الرّاجح ان الحِجارة كانت تُنْقل من مواقد أخرى وهي مُلْتهبة



وتستبدل بغيرها كلّما تردّتْ وهي توضع بقـرب الماء لتسْخينه. وتصلح كذلك لطبخ طيور الحجل التي وجدت بقايا عظامها في تلك الاماكن. واستطاع انسان كرومانيون أن يتوصل الى طريقة ينير بها كهوفه. وذلك أنه عَمَدَ إلى حُفْرة في الصّخر ليمْلأها بشَحْم الحيوانات و يزودها بفتيلٍ مُشْتعل. وقد عثِر على أشكال المصابيح المُحاكية لهذه الطريقة ومازالت نماذج متطورة منها مستعملة لحدّ الآن عند بعض الشّعوب. و بفضل الانارة إستطاع هذا الانسان ان يرى جدران كهفه لِيرْسُم عليها أشكالاً مختلفةً من الأشياء والحيوانات. معتمداً في ذلك على أدوات مُختلفة تقوم مقام الفرشاة وعلى مواةّ تعطي اصباغا مختلفة كالأمْغَر والأحْمر والبَنَفْسجي والأصفر والأسود. وتعتبر هذه الرُسوم شهادة قيِمة على تلْك الحضارة البدائيَّة وعلى مَعَالم الفنّ الانساني القديم. كما أنها أثْبتَتْ ظهور المُعْتَقَدات الدّينية والسّحرية عند الانسان الأ وّل كما يظهر من خلال رسوم مغارة الاخوة الثّلا ثة التي تمثل آدم وحواء وحيواناً اسطورياً كبيراً.

وإذا تَتَبّعنا البَحث في عُهُود ما قبل التّاريخ فاننا نصل الآن الى ميدان الاشكال الحَياتيَّة بما فيها من تَنَقُّلات عبر الأَراضي الجَرْداء واستِقرار ونشوء مظاهر التّجارة الحَقيقيَّة التي بدأتْ بين السُّومَريّين البُلْدان المُجاورة في حقْبة تعرف بالنيوليتي أو العصر الحَجري الحَديث. وسَنَتَوقف كذلك عند تطوُّر العلاقات الاجتماعية وأشكال التكُّون الأسْروِيّ والجَماعيّ وتطوّر تقْنيات العمل والمَعيشة والتّحْسين التّدريجي للسَّكن لا تقاء أخْطار الطّبيعة والوحوش وهي مساكن تستجيب إلى مُتطلّبات الحياة الضرورية والجَمالية. واخيراً سوف نتطرَّق إلى بزوغ وتفجُّر الامكانيات الابداعية لَدَى الأفراد والمُجتَمَعات والتي ترجمت عن طريق المَظَاهر الفنية والجمالية وميلاد الاحساس بالحاجة إلى الرّوحانيات الذي تمَخَّض عن نشوء الظاهرة الدّينية.

وهكذا سوف نخصص الفصول الّلاحقة لحقبة طويلة تمتد من العصر الحجري القديم (البَالْيوليتيكْ) إلى العَصر الحديث (النيوليتيكْ)، كما سنتطرَّق إلى الحضارتين المصرية والسّومرية اللتان ظهرتا في أوْج العُصور التّاريخية.



الاتصالات البَشرَيّة وتكوّن المجموعات العِرْقيّة

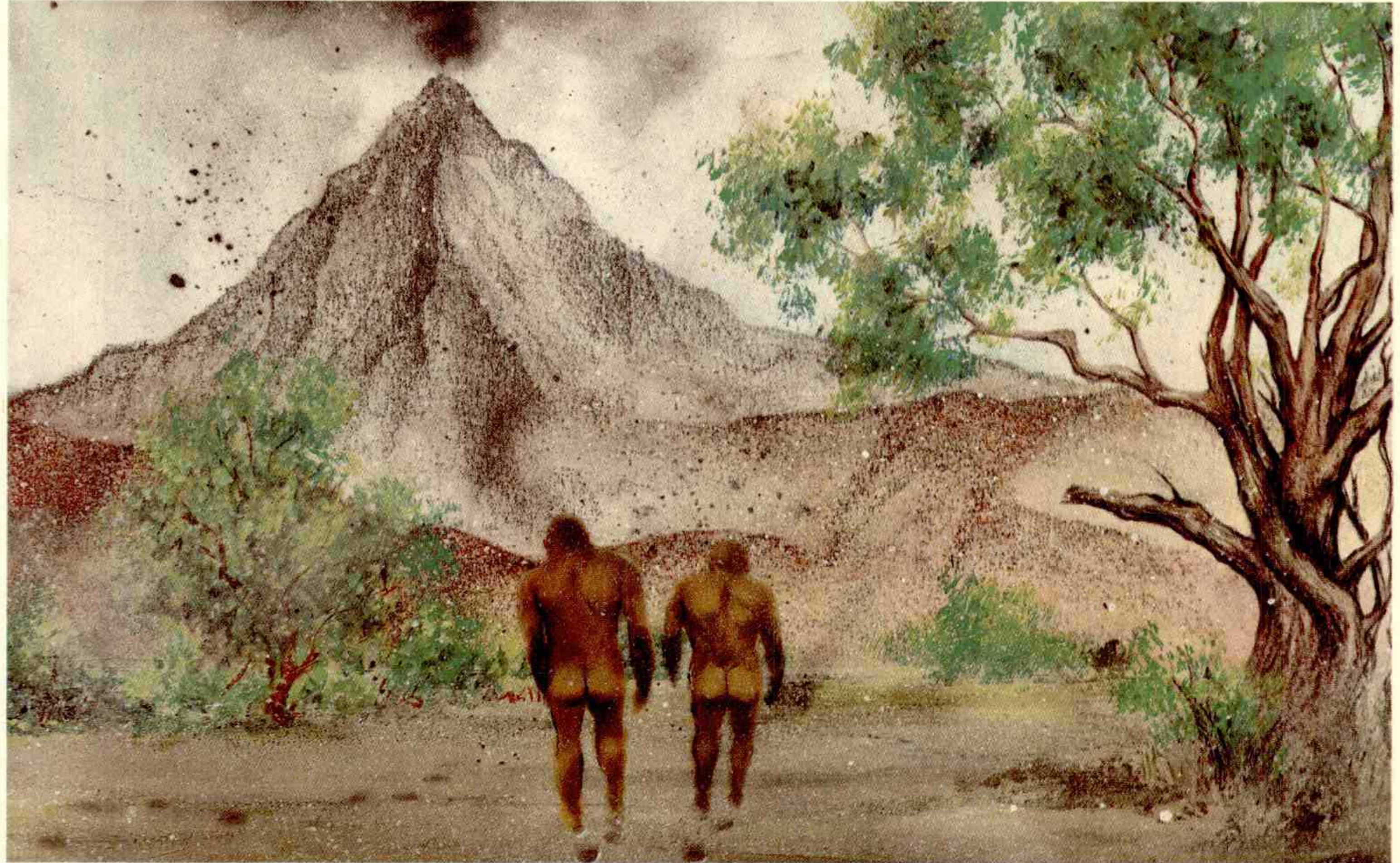


العصر الحجري : من السُّكُون إلى غَزْو المياه.

العصر الحجرى الأول : كانت الاتصالات البشرية شبه مُنعدمة

إنّ الأدوات الحجرية التي ظهرت في العصر الحجري القديم كانت كلُّها مصنوعة أساساً من الصّخور الطبيعية الموجودة في بعض المَنَاطق الجَبَلية مما يدُل على أن هذه الأدوات أو القطع الحجرية التي تصْنع منها، **تُنْقل** من منطقة الى اخرى حَسَب ظروف وحاجيات السّكان. وهكذا نجد مجموعات بشرية مختلفة تستعمل نفس الأدوات الحجرية أو ادوات مختلفة من نفس القطع الصّخرية حسب تخصّصها في الفلاحة أو الصّيد البرّي أو غير ذلك. وقد نشأت عن تنوع التّخصصات اتّصالات بين المجموعات البشرية ومبادلات على مستوى الأدوات والغلال أو الحيوانات المُصْطادة. وقد إستنتج العلماءُ هذه المعلومات من تَوَاجد أدوات و بقايا عظام أو غيرها في مناطق لا تتوفّر فيها مصادر هذه الأشياء على شكلها الطبيعي. وقد ظهر من خِلال دراسة الاكتشافات المُتعلقة

في العصر الحجري الأوّل، كانت الاتصالات البشرية قليلة اذ كانت التنقلاتَ والرحلات محدودة جغرافيا .



هجومات الشعوب المحربة كانت من عوامل توقّف الرحلات والاكتشافات القطرية.

من خلال المعطيات المُتوفرة لدينا، تمكّن التكهُّن بأن الاتصالات البشرية خلال العصر الحجري القديم لم تكن سلْميّة فقد عاشتْ اصناف بشرية متأخرة ومتوحّشة الى جانب مجموعات اخرى تمكنت من التطوّر من الناحية الثقافية، مما لا يُستبْعد معه حدوث حالات أكل اللحوم البشرية المترتبة عن الهجومات العنيفة والمطاردات المتوحشة. وفي مثل هذه الظروف يمكن القول بأن للموقع الجغرافي والبيئة التي كانت تعيش فيها المجموعاتُ البشرية الأولى، دور أساسي في تحديد نوعية العلاقات بين أبناء الانسان. ولنتصور مجموعة بشرية تعيش على الصيد والقنص وجني الفواكه والثمار وتستقر على ضفاف مجرى مائي، وهي على يقين ان بضْعة كيلمترات فقد تفصلها عن مجموعة اخرى غاية في التوحُّش وحبّ الحرب وأكل اللحوم الآدمية. فليس هناك ما يدفع المجموعة الاولى الى التنقل والرّحيل، على عكس المجموعة الثانية التي لن تستقر الا على انقاض مجموعات اخرى وبعْد فترات طويلة من استيعاب كل الاشكال الثقافية الدّاعية الى الاستقرار والمتوفرة لدى من تتصل بهم وتحاربهم أو تفتك بهم. وقد تميّزت حقب العصر الحجري القديم بعزْلة المناطق الجغرافية وتنوُّع الممارسات الثّقافية باختلاف المجموعات البشرية المتواجدة في الاقطار المتباعدة. ومن الناحية الثقافية فانه يفْترض ان يكون الانسان القديم متوفراً على فكر متطور ومتقدم لكي يتنقل عبر الاقطار بدافع التغيير المحْض والمغامرة الغيْر النّفْعيّة تحت وطأة الفضول وحب الاستطلاع والاكتشافات. ومن عوامل التنقُّل والهجرة وتغْيير منطقة الاستقرار والتي اثبتتها الاكتشافات الاثرية ما يمثله الصّيد ومطاردة الوحوش المهاجرة خلال الفصول السَّنوية، وقد كانت هذه المطاردة من علامات بداية تطوّر فكر إنسان العصر الحجري القديم.



عثر في إحدى أراضي أولدواي على آثار مرور الانسان: رجل وامرأة وطفل مروا من هنا قبل أربعة ملايين سنة. ويدل الاكتشاف على أن التنقلات البشرية كانت نادرة وكانت لا تتم الا بواسطة مجموعات قليلة العدد

بالحقب المتعاقبة في ذلك العصر أن هناك تطابقاً وتشابهاً بين المظاهر التّقنية لصناعة الأدوات المتواجدة في مناطق مختلفة مما يدلّ على وجود واستمرار التواصل والتبادل بين المجموعات البشرية المُختلفة. وقد عُرفت الحقب المُتلاحقة بأسماء مُقْتَبَسَة من نَمط الصّناعة وطبيعة المواد التي كانت موجودةً بها. فكانت هناك الحِقب الأبيفيليّة والأشوليّة والكالْتونية والفَالْواسية. كما شاعت ثقافة تُعرف بثقافة «الحَصى» والحجارة القاطعة نظراً لانْتشار الأدوات المصنوعة من الصَّوّان والتي كانت تَتَغيّر أشكالها كلّما ظهر عدم ملاءمَتها أو عدم فَعَاليتها الشّيء الذي يُفسّر تواجد عِدة انواع من نفس الأدوات في نفس الأماكن، كما يدل على توفُّر الانسان آنذاك على ذكاء يجعله يَختبر الأشياء التي يستعملها ويحاول تَعْويضَها بِغَيْرها الى أن يجد الأداة المُلائمة لقَضَاء أغراضه وحاجياته اليوْمية.

وفيما يتعلّق بالاتصالات والعلاقات التي ظهرت

تاريخ الانسان هو تاريخ النضال من أجل البقاء.

لقد غَزا الانسان الطَبيعة وسيْطر على عناصرها ومن أهمها الحجارة والنّار والحَيَوانات المختلفة. ويمكن تلخيص تاريخ الانسان بالتاريخ الى تطوّر ذكائه الذي جَعَله يُواصل اكتِشاف الحلول تلو الأخرى لتحسين أوضاعه والتغلّب على المشاكل والمخاطر الطبيعية التي تَعْتَرِضه، وكل ذلك يظهر من خلال تحْقِيبِ تاريخ التّقنيات والآلات التي توَصّل الى صُنْعِها. وقد بدأت تجاربه تصقل تدريجيا من قَتْل أول حيوان ليتغذّى من لحمه ثم بعدَ ذلك صنع له المساكن الحجرية والطينيّة التي بقيت تتطور إلى العصور الحالية. وكانت أدواته في البداية لا تتعدى قطعا صَوَانِيّة جعل منها أسلحة بدائية تضطره للاقتراب من الطريدة التي يريد طَعْنها، وما لبث أن شحَّذ هذه القطع ويربطها إلى مقبض خشبي ليقذف بها فريسته من بعيد. وبعد ذلك توصل إلى صنع مختلف الأسلحة الحجريَّة كالخطاف دوي المقبض الخشبي ثم الفأس الحجرية فالرُّمح. وفي نفس الوقت عرف الصَّيْد والقَنص والحرب وطور تقنيات البناء والنّجارة البِدائية والأدوات القاطعة والابرَة التي يخيط بها الجلود والقِرَب والقَوارب.

ومع توصّله إلى تحقيق مختلف أهدافه بِفضْلِ كاخْتِراعه لِمختلف الأدوات وأساليب العيش استطاع الانسان تجَاوُز مَرْحَلة مُقاومة الطّبيعة والوُحوش لتصبح إمكانية السَّيطرة عليْهِمَا مُمْكنة له بفضل تَطَوّر ذكائه.

في الرسم ادوات حجرية :

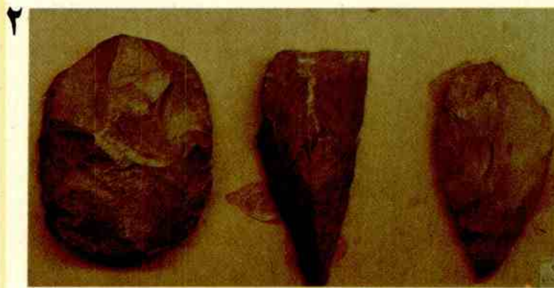
١ ــ صوَّان قاطع

٢ ــ كاشطات وقاطعات ذات حدّين

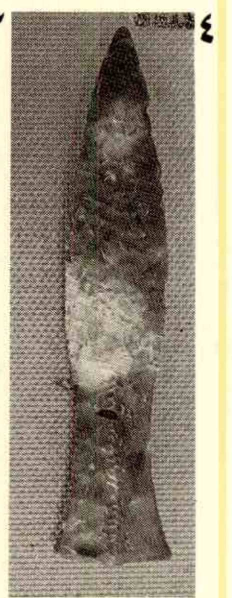
٣ ــ مطارق ماغدالانية

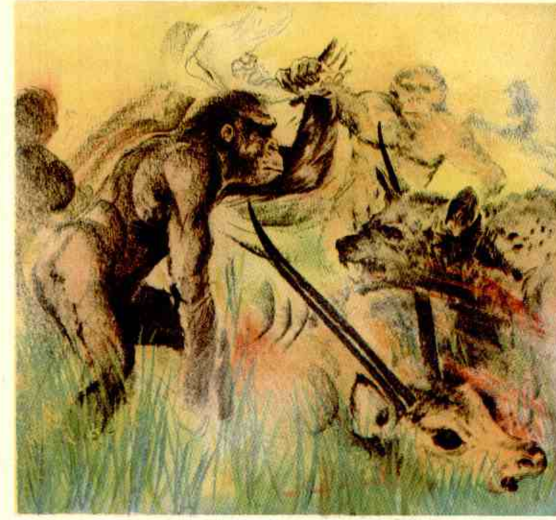
٤ ــ رأس نبلة من العصر الحجري .











من بين الأسْباب التي جعلت انسان العصر الحجري يميل الى حياة العزلة والانفراد دون الاقدام على الرحلات البعيدة كونه انذاك لا يتوفر على أدوات وأسلحة يواجه بها مخاطر الطبيعة. في الرسم اعلاه اعادة انشاء الانسان الجنوبي في صراع مع ضبع حول فريسة ويقاوم مستعملا فكّا حيوانيا كسلاح .

آنذاك بين المجموعات البشرية، فلم تُعْرف بَعْدُ الأسباب الحقيقية التي خَلَقَتْ عِند الانسان هذه الحاجة إلى التَّواصل، ولا يَعرف هل يَرْجعُ ذلك فقطْ الى عامل الهِجرة والتنقُّل ثم الالتقاء العَفْوِي او لأسباب تاريخية عميقة مازالت مَجْهولة ولم تَتوفر عوامل التَّحَقُّق منها بكيفيّة قَطْعيّة. وما يجعل الشك حائماً حولَ هذه المَسْألة هو الانتشار الكَمي لنفس الأدوات والمواد الحَجرية في جميع المناطق الافريقية بينما ينذر ذلك فيما يتعلّق بالمناطق الاسْيوية التي عاش فيها نَفْس النموذج البَشري. وهذا ما جعَل العُلماء يحاولون تفسير ذلك بوجود إختلاف بين طريقة تطوُّر المجتمعات البشرية في إفريقيا وطريقة تطورها في آسيا، اللهُم اذا كان غياب آثار و بقايا نفس الأدوات الحجرية يرجع إلى اسباب طبيعية و يرى بعض العلماء الذين اهتمّوا بمنطقة الشرق الاقصى أن افتقار هذه المنطقة إلى البقايا الأركيولجية لا يرْجع إلى تطوُّر مُستقِلٍ للمجموعات البشريّة في آسيا، بل يمكن تفسيره إلى تفقيرٍ تدريجيٍ للمنطقة كلّها لأنَة قد عِثر في الهِند على نفس الأسلحة الصَّوَّانية التي انتشرت في إفريقيا.

أما غياب نفس الآثار في كل من امريك وأوستراليا فيفسَّر فقط بِكوْن هاتين القارتين لم تعرفا آنذاك تجَمُّعاتٍ بشرية. ويحاول بعض الدّارسين تفسير هذا الاختلاف في

انتشار وتوزيع التجمُّعات البشرية بين أقْطار المَعْمور كلّها، حين يفترضون أن الانسان كان على دراية نسبيّة بالمُعطيات الجُغرافية والطّقسيّة والطّبيعية ممّا جعَلَهُ يختار مناطق دون أُخرى لتجمُّعاته. لكن هذا الافتراض لا يُمْكن تأكيده بأدلّة ولذلك لم يَحْظ بأيّ اهتمامٍ في حقل الدّراسات الإحاثيّة.

وسنكْتفي هنا بالتوقُّف عند الافتراضات التي نالت حظَّها من التأييد والترْجيح، وهي تتعلق بالاتصال بين قارّتي إفريقيا وأوروبا. فقد كانت القارتان متّصلتيْن عن طريق قنْطرة مهمة تقع في منطقة البلْقان والتي كانتْ بدون شكٍ يابسة يسهُل عبورها من قبل الانْسان الأوّل الذي كان لا يَتحمَّس إلى الابْحار عبر المَسافات الطويلة، والدّليل على ذلك أنه في صِقِلّية التي لا تبعد عن إفريقيا الا بخمس كيلومترات لم توجد ايُّ آثارٍ لانسان العصر الحجري القديم، مما يبعد كذلك فكرة احتمال عبور الانسان الافريقي من منطقة مضيق جبل طارق.

ومن الافتراضات الشّائعة في هذا المجال ما يتعلق بانتشار الاسلحة والأدوات الصَّوَّانيَّة في القطرين الافريقي والأوربي. فاحتمال تواجدٍ مُتَوازٍ لنفس الصناعة في القطرين معاً مستبْعَد جداً، ولكن ما يمْكن التسليم به هو أن هذه الأشياء تصنع في القطر ثمّ نقلُها إلى القُطْر الآخر. وقد تكون آسيا مَمَراً ونقطة انتقالٍ من قطرٍ إلى آخر مما جعَلَها لم تحظ باستقرارٍ مُهمٍ للآثار القديمة.

ـ العصـــر الحجـــــري المتوســـط

بقدر ما نَتوفّر على مُعطيات وشَهادت وآثار تُثْبت قيام

الانسان النيندرتالي ودب الكهوف الكبير عدوان جمعتهما الاقدار في نفس الحقبة.

لقد انتشرت الثقافة المُوسْتيرية في كل من اوروبا وآسيا بعد ان ظهرت في بيئة اكثر تقدما وتطوُّرا من سابقتها التي شهدت حياة الانسان النيندرتالي شبة التّرحُّلية والمتخصصة في الصيّد والقنص. وقد نتساءل عن مصير الانسانية لو ان النّموذج النيندرالي لم ينقرض ويأتي بعده نموذج آخر أكثر تقدُّماً. فالانسان النيندرتالي قد استطاع ان يتكيّف مع البيئة مستعملاً قدراته الجسدية التي ساعدتْه على التّغلُّب على قساوة الطّقس ومواجهة أخطار الطبيعة بما فيها من وحوش، الى انّه اصبح يطارد الدّببة ويحتل كُهوفها ثم توصّل الى اختراع وسائل وطرق وحيل مطاردة قُطْعان الفيليات والايليات التي كانت تقوده أحياناً الى مناطق جغرافية بعيدة عن أماكن استقراره غيران بنيته كانت مرْهونة بالطقس البارد، فلم يتمكن من تحمُّل قساوة آخر المراحل الطقسية الحارة فانقرض كما انقرض معه دُبّ الكهوف، وذلك خلال حقبة الوورم. وهناك في النظريات التي ترى ان انْقراض كبار الأخمصيات كان مردُّه الى عدوى الرّئْية، وهي تعْتمد في ذلك على دراسة البقايا العظمية، وتستنْتج ان الانسان النيندرتالى قد انقرض لنفس السبب (؟)



الانسان النيندرتالي ودب الكهوف الكبير : عدوان جمعتهما الاقدار في نفس الحقبة.

العلاقات والاتصالات بين المجموعات البشرية في كل من أوروبا وإفريقيا وآسيا وإفريقيا، بقدر ما نفْتقر إلى أدنى هذه المُعطيات بالنسبة للمناطق الجغرافية الأخرى. وذلك راجع على ما يبدو إلى جهل الانسان بوجُود مناطق أخرى غير التي عَرَفها وانْتَشَر فيها في العصر الحجري القديم. وهذه الفَرَضيَّة هي التي يَعتمدها العلماء للْقول بكوْن أمريكا وأستراليا بقِيَتا غير مُكْتَشَفَيْن إلى حدود العصر الحجري المتوسط. كما يمكن أن يكون ذلك الافتراض خاطئاً وأن غياب البقايا الاثرية يرجع فقط إلى أسباب مجهولة لحدّ الآن.

في شمال شرق آسيا عثر على بقايا أثرية تشبه إلى حدٍّ بعيد الآثار المُوسْتيريَّة الغَرْبية. وقد أستنْتج العلماء من هذا الاكتشاف أنّ هناك علاقة واتصالاً بين المِنطقتين، ولكنهم لم يتمكنوا من التَّيقُّن من مَدَى مساهمة هذه المنطقة الأسيوية في التطوّر للحِقبة المُستيرية.

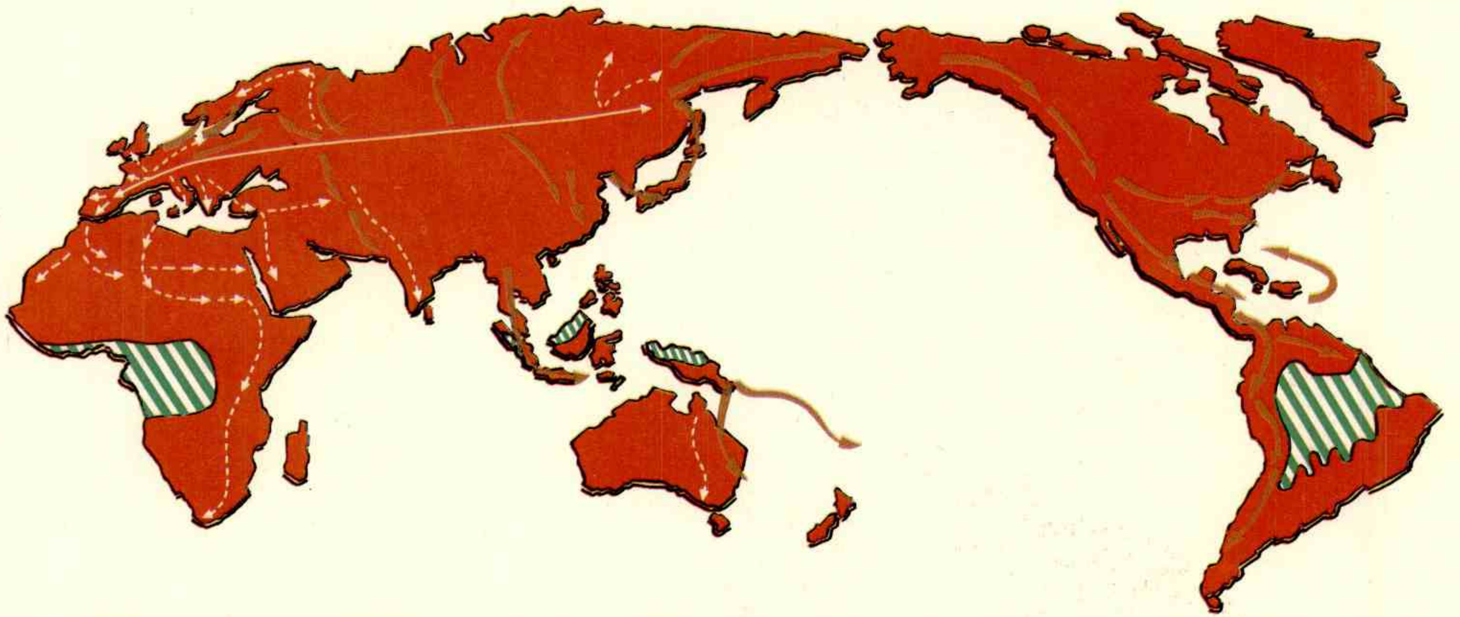
وبالمقابل، تتميّز افريقيا بخصائصها المُتناقضة التي يمكن تفسيرها باستمرار الاتصالات والعلاقات بين مناطقها الشمالية والمتوسّطيَّة بصفة أكثر كثافة مِمّا هي عليه في مناطقها الاستوائية والجنوبيّة، و يَظْهرُ ان هذا هو التفسير الذي يمكن إعطاؤه لنُدْرة الادوات القاطعة والرماح المُوستيرية في المناطق الافريقية الجنوبية والتَّوفُّر الموازي للحجارة واللَّوزيَّة الشَّكل في كل من الشمال والجنوب.

واذا كانت هذه الحِجارة الملوَّرة الصّادرة عن الجنوب الافريقي معاصرةً لوجود الأسلحة المُوسْتيريّة المتوسطيَّة والافريقية والشمالية، فإن ذلك يجعلنا نفترض أنّه خِلال العصر الحجري المتوسّط، توقَّف مدُّ الاتصالاتِ الثَّقافية وسط القُطر الافريقي، ربما لامْتداد الغابات الاستوائية وانتشارها.

توجد بين رأس أمير الغال بأمريكا وأقصى رأس شرق آسيا ثمانون كيلومترا تحدّد مساحة مضيق بيرنْغ. وفي حالة الجوّ الصافي يمكن معاينة قمم جبال الأسْكا انطلاقا من آسيا. ويمكن القوْل بأن نفس التطلع الى الآفاق البعيدة حيث اراضي أخرى قد عاشه الانسان الأول محاولاً تخطي الحواجز والعبور الى عوالم جديدة قد يجد بها مالمْ تُوفرْه له منطقة استقراره الاصْلية. الا انه عاجز عن ذلك لعدم توفرُّ وسائل العبور والابحار، الى ان جاءت الحقبة البعيدة التي تمكن فيها من تحقيق حلمه.

ومع كل تجْليدة يُؤدي تصُّلب المجْلدات انخفاضا في مستوى المحيطات التي تتناقض مياهها

الرسم اسفله يمثّل خطوط التنقّل خلال العصر الحجري القديم وكما نلاحظ فالانسان قد وضع قدمه على كل الأراضي الطافية.





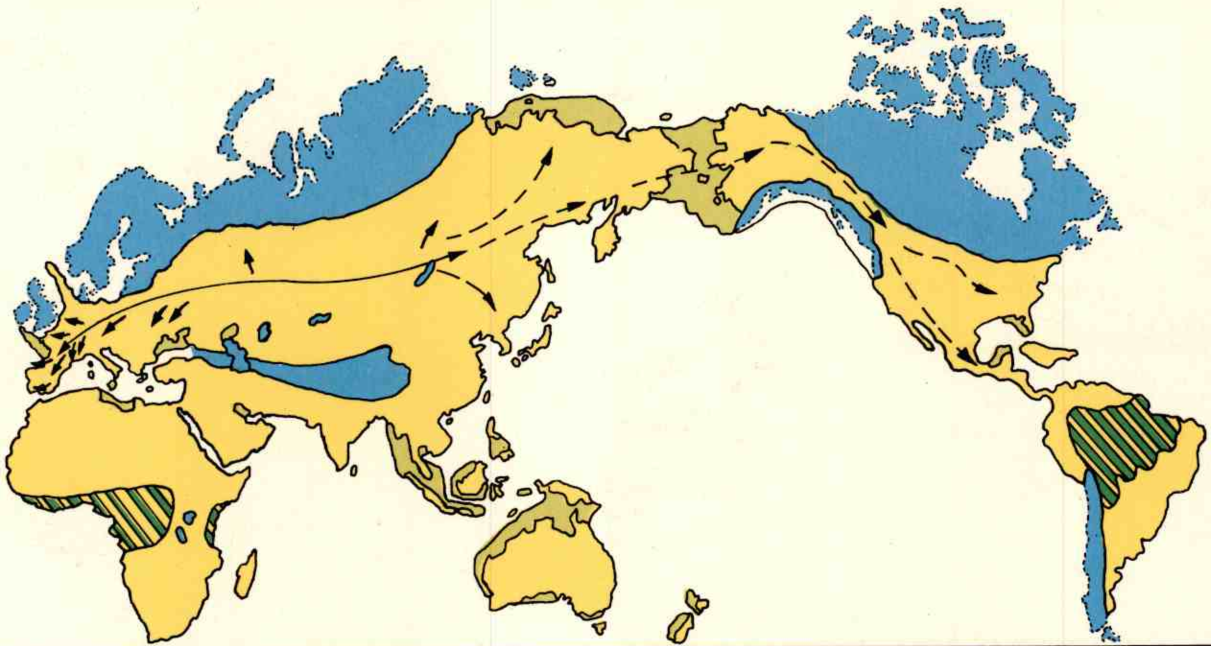
عثر على هذه الجمجمة في تيبيكسبان وهو نفس المكان الذي اكتشف فيه ماموثات قادمة من اوروبا عبر مضيق بيرنغ .

و يظهر من خلال ذلك أن الثقافة الموستيرية لم تكن من اختراع المنطقة المتوسّطيّة لأنها قد نشأت على أنقاض الثقافات السّابقة التي عرفها العصر الحجري القديم، كما لا يمكن القول بنَشْأتها في آسيا القديمة رغم الدّور الفعال الذي لعِبته هذه القارة في انتشار تلك الحضارة، لأنه لا يمكن التأكيد على وجود المُخترع الأ وّل للأشكال الثقافية التي عثر عليها والتي انتشرت في مناطق مُتَفرقَة ومتباعدة كالأ ردن وأزْ باكستان مثلاً حيْثُ وجدت نفس القطع الحجرية في ترْبةٍ ترجع إلى نفس الحقبة الجيولوجية. ولهذا يبْدو أن الافتراض الأ رْجح هو أن العصر الحجري المتوسّط شَهِد سلسلة من التطورات والتّحْسينات المُتعلقة بشتّى الاشكال الثقافية التي كان أساسها فكرةً مُجرَّدة أو تقنيَّات أصْليَّة مُنْقرضة.

وقد عرف العصر الحجري المتوسط تجمُّعات محلِية قد يكون الدّافع اليها هو ضرورة التّعاون والتّكاثف لدَرْء الأخطار الطّبيعية التي لا يقْوى عليها الأفْراد. ومن الناحية الأ ثرية فقد عُثر في بعض المناطق على عدّة قطع محدودة

بفعل التَّجْليد وخلال حقبة وورم إنخفض مستوى المحيط بمعدّل ٨٥ مترا بينما يبلغ عمق مصيق بيرنغ الاقصى ٣٦ مترا. وقد كان بذلك بمثابة قنطرة طبيعية بين آسيا وأمريكا حيث عم تيار كورودشيفو الدّافيء الذي ساعد على تطور الحياة هناك. وهكذا عرفت أودية يوكون وأنادير المتحررة من المجْلدات ظهور تطوُّر حيوانات كالرّنّة والماموث والبيسون. وفي الحقبة الموالية حيث اصبح الطقس اقل قساوة انقسمت المجلدة القطرية الامريكية الى قطعتين، هما المجلدة الارتيكية ومجلدة الجبال الصخرية، وأمكن المرور الى المناطق الجنوبية. وقد انتهى المطاف بكبار الفيليات الى المكسيك بينما تابع الانسان رحلاته نحو امريكا الجنوبية وبعدهذا الى بانتغونيا.

الى أسفل : مسيرة إنسان الكرومانيون المحتملة عبر آسيا الى أمريكا.



جداً. ويمكن ان نستخلص من ذلك أن تلك الأدوات وغيرها كانت تُستعمل لأهداف وأغراض معيّنة لخدمة الأفراد والجَماعات في نفس الوقت كسَلْخ الجلود ومعالَجتها في الاماكن التي يتجمع فيها أجدادنا في الفصول الشّتوية القارسة. وقد عثر على هذه القطع الاثرية في كلٍ من أوروبا الوسطى وأفريقيا الشمالية وبعض المناطق الأسيوية.

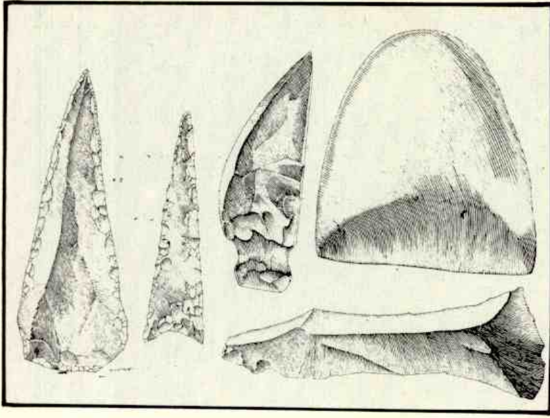
وكانت التجمُّعات البشرية غير مقتصرة على منطقة جغرافية محدّدة بل انتشرت تدريجياً في عدّة مناطق شاسعة من الأقطار التي عرفتها. كما ساعدت الهجرة التي نتجت عن تطوير الصّيد ومُطاردة الوُحوش على الاتصال بين سكان مختلف المناطق، وبالتالي على التبادل بيْنَهم بكيفية متَواصلة ومُنْتَظمة ولو بعد انتهاء رَحلات الصّيد والرُّجوع الى مناطق التّجمع الاصلية. وقد عرف العصر الحجري المتوسط ظروفاً طقسية جعلتْ بعض المناطق تَنْعزل عن باقي المناطق الأخرى، مما سَّهل التكاثر فيها مرْحلياً ثُمّ انتشار الافراد والجماعات بعد انتهاء الحِقبة الطقسية الصّعبة عبر المناطق المجاورة الأخرى. ويُحتمل أن تكون فَترات العُزلة الطويلة هذه هي التي تَمَخّضَتْ عنْها تكوّنُات الاختلافات العِرْقية.

وهكذا فإن ما نَعرفه عن الانسان النينْدرْتالي المتقدم يتعلّق فقط بمرحلةٍ متطوّرة من العصر الحجري المتوسط. ومن الراجح أن يكون معاصراً لنماذج بشرية أخرى عاشتْ في نفس الحقبة ولكن لا نَتوفّر بشأنِها على أيّ اثر. ذلك أن المُعاينة الدّقيقة لبقايا مُتحجرات عن أوصاف النّيندرتالي المعروف؟. إلاّ ان هذه الآثار محدودة الانتشار ولا يمكن الاعتماد عليها للتأكيد على أن مصدراً محتملاً آخر للثقافة النّيندرتاليةالتي تعرضْنا إليها؟.

العصـــر الحجـــري الأعـــلى :

إنتهى المطاف بالمجموعات البشرية أخيراً الى الانتشار كذلك في كلّ من أمريكا وأُستراليا نتيجة تطوُّر التقنيات التي اكتَسَبها الإنسان وتطوُّر أنماط تنَقُّله ورَحلاَتِه. وبدون شك فقد كان المَمرُّ الوَحيدُ هو شمال شرق آسيا، كما رأينا سابقاً بالنسبة للكْرومَانيون.

ومن الأكيد أن طَفَاوَة الأرض على إثر هبوط مُستوى المياه البحرية غير كاف لكي يتمّ الاتصال بين قطريْن ليَسْهُل العبور من أحَدِهِما إلى الآخر. فلاَبُد من توفُر



في الرسم أعلاه أدوات من العصر الحجري الأعلى (حراب وقاطعات بحدّين وشفرات).

ظروف طقسيةٍ ومَنَاخيةٍ تجعلُ القطر الطّافيّ قابلاً لاحتِضَان الحياة النباتية والحيوانية وبعدَهَا البَشَرية. وبالفعل، فقد حدث أنْ نشأتْ في القطر الامريكي قُطعان من الأيْليّات (الرَّنّة) التي بدأ إنسان العصر الحجري الأعلى يقْت في آثارها ليَصْطادها إلى أنْ قَادَتْه إلى القُطر الذي تنتشر فيه بكَثْره. وهكذا يمكن تفيسر ظهور الانسان في أمريكا، وليس كما كان شائعاً أنّه رحَل إليها بعد فَناء الحياة النباتية في آسيا. فمن الطبيعي أن يتنقل الصيّادون نحو المناطق التي يجدون فيها ظروفاً ملائمة في أرجاء القُطر الامريكي بحثاً عن المزيد من الأنواع الحيوانية الى أن وصلوا في أواخر العصر الحجري الى اختراق الأمريكَتَيْن والإستقرار في بَاتَاغُونْيَا.

وبعد انتهاء مرحلة الهجرة والترحال، بدأت المجموعاتُ التي احتلَّت الأمريكتين واستقرت بها في تطوير أشكالها الثقافية الخاصة بها، كما يظهر من خِلال الاكتشافات الأثرية بالمنطقة كَأَسِنَّة الرّماح في أمريكا الشمالية وغياب استعمال الإزْميل والمِنْقاش والتّشابُه المتنوّع بين الهنود القدامى والهنود الحاليّين وبينَهُم وبين المَنْغُوليّين الذين يُعتبرون كَأجْدادِهُم الطّبعيّين، وقد استُنتج من مثل هذه الاكتشافات الأثرية أن المنغُوليين هم أولَى النّماذج التي استقرت بأمريكا الشمالية اثناء الحقبة التي تحدّدتْ فيها خصائصهم العِرْقية الا أن سيرورة تطوُّر هذا العِرق لم تحدَّد بعد. ويظهر أن القطيعة المَوْجُودة بين شرق وغرب أمريكا قد تُحَلَّل بانْتصاب الجبال الصَّخْرية التي تُفَسّر كذلك توفُّر الحِجارة التي نحتت منها الأسنّة الرُّمحية والمنتشرة في المنطقة الشرقية بالخصوص. وهذه القطيعة هي التي تفسر كذلك اختلاف التطوّر

الثقافي لدى المجموعات المنتشرة في المنطقتيْن، الشرقية والغربية و بالتالي افتراض تطور عِرْقَيْن مُختلفيْن كذلك، ينحدر أحَدُهُما من آسيا الوسطى والآخر من جنوب شرق آسيا.

وقد استمرّ مضيق بيرينْغ يُستَعْمل بِمَثَابة قنطرة بين القطرين، ممّا سَهّل الاتصال بين المجموعات البشرية المختلفة.

اما العبور إلى القارة الاسترالية فقد تمّ كذلك على إثْر تقلّبات بحريّة تمخّض عنها الاتصال بين آسيا وجُزُر أستراليا. **إلا ان عَدَم استقرار هذا الرباط بفعل قُوّة** حركات المياه البحرية التي تفوق ما هي عليه بين أمريكا وآسيا، ثم غيابُ المَجْلَدَات التي تُسَهّل الإستقرار المائي، كلّها عَوَامل جعلتْ هذه المنطقة تُصاب بضعْف تَدْريجيّ من حيث التطوُّر الثقافي مُقَابل القارّات الأُخْرى، لكوْنها لا تَتوَفّر على ظروف الاستقرار الطَبيعي للمجموعات البشرية التي قد تكون إنتلقت إليها من آسيا.

ونفس الشيءْ قد حدَثَ بالنسبة لبعض أجزاء العالم القديم بما فيها آسيا الشّرقية وإفريقيا الجنوبية الوسطى والتي بقيتْ خارج حَلقة التطور الذي مَيّز **العصر الحجري** الأعلى. وهذا التوقُّفُ عن التّطوُّر يتعلّق بالأدوات والتّقنيات ومُختلف المظاهر الثقافية التي قَدْ نتمكن من التحقُّق منها في عِلم الآثار. وبما أنه ليس هناك من مُعْطيَات دَقيقة ومتكاملة تكون منطلقاً لِمُقارَنَة واستقراء المُعطيات المَحْدُودة المتوفرة لَدَى العُلماء، فقد صُنّفت المناطق المعنية من بين المناطق المُتَخَلّفة والمتأخّرة من **حيث التطور الثقافي في العصر الحجري الأعلى.**

وبالمقابل، فإن المناطق التي تقع حول البحر الأبيض المتوسّط قد عرفت تطوُّراً مهماً من حيث الإنْتاجات الثقافية والفنية، في ذلك العصر، وذلك يرجعُ إلى اضطراد الاتصالات البشرية والتبادُل بين المجموعات المُختلفة وممَّا يدل على ذَلك ما يوجَد هناك من تنوُّع وتشابه بين الآثار المُتعلقة بالمظاهر والانشطة الثّقافية والدّينية والطُّقوسية. وقد تطّورت الصّناعات الحجريَّة هناك إلى درجة أنّه عثر على مئات من أنواع الرماح الصَّوَّانيّة والتي نُحتت من الحِجَارة المُوجودة محليا ومن أنواع صخْرية أخرى تأتي من مَنَاطق بعيدة قد تَبْعد بحوالي ٢٠٠و٣٠٠ كلم عن الأماكن التي تُنحت فيها. كما عثر في نفس الأماكن على حِليّ وأدَوَات للزّينة لا توجد موادُّها الأوّليّة كالصَّدف مثلا إلا في أقطار بعيدة. ومن الأمثال الشّاهدة على ذلك ما عثر عليه اخيراً في بولونيا من تِقْنيّات الصباغة المُتعددة الألْوان والتي كان يُعْتَقَد إلى عهدٍ قريب أنها من تخصُّص منطقة الكانْتَابْر وحدها حيث تمّ العُثُور عليْها لأوّل مرة.

وحاصل القول، يمكن أن نستخْلص فيما يتعلّق بتطور العصر الحجري الاعلى الافْتراضات التّالية:

١ ــ حياةُ التّرحال المَحدود أي المُقتصِر على منطقة معيّنة ومَحْدُودة جغرافياً، وهو نظام نتج عَنْهُ:

٢ ــ تَكَوُّن مناطق استِقرار ساعَدَتْ على ظهور وتطوُّر تقنيات متخصّصة ومُتكيّفة مع متطلبات العَيْش في البيئة المألوفة بما في ذلك من أشغال واتّصالات بين المجموعات و بالتالي:

٣ ــ إتصال بين مناطق مختلفة رغم البُعد الشّاسع بينها مما أتاح نُشوء وتطوُّر مبادلات إقتصادية وتجاريّة.

٤ ــ إحتمال انفصال أفراد ومجموعات عن المجتمع الاصلي والهجرة إلى مناطق جديدة لأسباب مُعينة أبسطها هو الرّغبة في تغْيير أو تَحْسين نمط العيش.

وما يهُمنا من خلال هذه العناصر المُستَخْلصَة أن هناك عوامل ساعدَتْ على تطوُّر تدريجي ومُتناسق في المنطقة الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسّط وآسيا وافريقيا الاستوائية وفي بعض مناطق جنوب شرق ووسط إفريقيا. وممّا يعكس العصر الحجري الأعلى هو الذي انحدرتْ منه الأجناس المعروفة حاليا وكذلك الشأن بالنسبة لأنماط حَياته وتقنياته البدائية.

صورة لاحدى الكهوف الكبيرة التي سكنها إنسان الصين البيكيني ثم الكرومانيون بعده.



بداية استقرار الانسان وممارسته للتجارة وتربية المواشي.

الحرب، وباء يرجع إلى العصر الحجري الأدنى.

يتميز العصر الحجري الحديث الأدنى (أو الأول) بظهور البلّوْرات المعروفة بالْمِيكْروليتّان المُنْتشرة في مناطق واسعة من العالم القديم. وفي هذا العصر كذلك تطوّرت الخصائص المميزة لمُختلف المناطق المُتباينة من حيث نَوْعيَّة طبيعتها الجُغرافية والموادّ المتواجدة بها، مما أعطى لكلِ منطقة شكلاً ومميّزات خاصّة بها ساعدتْ على تشكُّل وتطوُّر عوامل التّمايز العِرقي والثقافي التي توجد بين أفراد المجموعات المُتساكِنَة.

وانتشار تلك البلّيْرات ذات الشّكل الهندسي من الشواهد المعتمدة للتّحقيق من وجود ظاهرة الهجرة التي يَتَعاطى لها السكان لأغراض معاشية كالصّيد والفلاحة.



ونفس الشّيء ينطبق على ما تَعْكِسه الأسلحة المُكتَشَفة من ظُهور الحُروب لأوّل مرة في تاريخ الانسانية. و يُعتَبَرُ العَصْرُ الحجري الحِقبة التي شهدت تطوّر النّفسية والذّكاء البشريّ حيث بدأ الانسان يتجرّد من رغباته الآنِيّة التي كانت تمْلي عليه فقطْ تحرُّكاتٍ مَحْدودة للتّغذية من وراء الصّيد والزّراعة كنشاطيْن بِدائيّيْن. وقد أصبحتْ لديه تطلُّعات وأنشطة ذكية أخرى كالحرْب وغرس الاشجار وتربية الماشية وتطْوير نظام المِلكية الخاصّة للمواد الاستهلاكية. ومالبثْ أن تَفَشّت ظاهرة الحرب اكثر من الأنشطة الثقافية والحياتيّة الأخرى، حيث تطوّرت هذه التجربة لدى مجموعات كانت متأخرة من حيث استيعاب المظاهر الثقافية والفنية الأخرى، وامتدّت ظاهرة الحرب واستعمال الأسلحة في العصر الحجري إلى مناطق لم يَشملْها التطوُّر والتجديد الاجتماعي.



أوج العصر الحجري الحديث :

مع تعاقب السنين وتقدّم الازمان والحِقب تضاعفت عوامل الاستقرار البشري وأسباب التخصصات والمميّزات المُتعلقة بكلّ منطقة جغرافية وكل مجموعة بشرية. وهكذا كان تطوُّر تقنيات معاشية كغرْس الاشجار من الدّوافع التي جعلت الانسان يستقرُّ لمدة أطول في مناطق الغَرْس والزّراعة في انتظار فصول جني الثّمار المرتقبة.

غير أنّ الانسان ما لِبث أن تجاوز طموحه حدود الاستقرار واكتساب التقنية المحلية وتطويرها فَتَوَلّدت لديْه الرغبة في الاستحواذ على مُكْتسبات جديدة خارج نطاق مُحيطه الجغرافي المَحْدود. فمن التبادل البسيط بين المجموعات تطوّرت النّشاطات والمُحاولات التوسُّعية والاستعمارية البِدائية والتي كانت تؤدّي الى النهب والسّلب أثناء الغارات التي كانت تَذْهب ضحيّتها مجموعات مُتأخِره من حيْثُ الامكانيات التقنية.

وقد توصل عُلماء الاحاثة الى تَمْييز المجْموعات المتطوّرة اعتماداً على قطع الخَزَف والفخّار التي تعكس تطوُّر صناعةٍ محلّية مزدهرة في أوج العصر الحجري الحديث في حين أنّهم وجَدوا صعوبات كثيرة في العُثور على آثار تُمكن من تَقْييم دَرَجة تطوُّر المجموعات المُختلفة التي كانت ضحيّة الهجومات والسيطرة، ذلك أنّ مَاعثر عليه بشأنِها لا يتعدّى أدوات وأواني يرجع عهدها إلى الحقَب القديمة السّابقة مما يدُلُّ على أنها لم تتمكن من تطوير تقنيات معيشتها.

وانطلاقا من المبادلات الثقافية والمُنافسة والغَزْو، تعدّدت الاشكال والانماط الثقافية كما تطورت التخصُّصاتُ الجهوية بصفةٍ تدريجية كانْتشار نِظام الترحُّل بالتعاطي إلى تربية الماشية مثلاً.

ومن الأمثلة الشاهدة على هذا الانتقال الثقافي والتبادل التقني، الانتشار الواسع للتّلال الاصْطناعية من منطقة أناطُولْيا الجنوبية إلى غاية إيران، كما يمكن استنتاج أشكال التّبادل من تواجد نفس المواد الأ وليّة كالفخار في مناطق مُتَبَاعِدة. ومما يثير الإستغراب انّه بقدر ما يوجد

العصر الحجري الأدنى المتميز بانتاج البلّيْرات (ميكروليت) الهندسيّة شهد كذلك انتشار الحروب. وكانت الحرب بمثابة طريقة للحصول على الغذاء والأسلحة الجديدة أو نتيجة لظهور الرغبة في الغزو والهيمنة.



الى أعلى نموذج من الكتابة السومرية. ويظهر أن الكتابة عموما اختراع إنساني قد يعود الى ما قبل ٣٥٠٠ سنة حسبَ أقدم الاكتشافات.

تطابق وتشابه بين المناطق المُتباعدة بقدْر ما توجد هناك اختلافات بين مناطق تنْتمي إلى نفس الرُّقعة الجغرافية. ومن حيث التّطابق فانّنا نجد مثلاً في إفريقيا الشّمالية أماكن ذات معالم تذكّر بالعصر الحجري الحديث وخاصة في منطقة نهر النيل وذلك راجع إلى عوامل مَنَاخِيَّة وطَقْسية وإلى خصوبة التُّربة وإلى الاقتراب الجغرافي من آسيا. ففي حوض النّيل كانتْ الْواحات متعدّدة اكثر مما هي عليْه الآن، وهي تجْتذب السُّكان حول النيل الذي وفّر نَوْعاً من الوَحْدة والتجانس بين أنماط الحياة في مصر القديمة رغم تواجد بعض الاختلاف البسيط بين الشمال والجنوب.

وفي المناطق المتاخمة للبِنْيات البلّيريّة (او الميكْروليتيّة) ثبت أن السكان كانوا يتعاطون الرّعْي وتربية المَواشي مما كان يدفَعُهم الى تبنّي نظام الترحّل المستمر. أما في المناطق البعيدة عن النيل فقد كان الاستقرار والاحتلال متعذّراً ويجد البَدْوُ الرُّحَّل صعوبة في تخطي العراقيل التي تنْصب أمامهم، الشيء الذي لا يجدونه عندما يعبرون أوروبا كما تشهد على ذلك آثار استقرارهم في جزيرتي قُبْرص وكريت وفي شواطيء بحر إيجه مما يدلّ على أن العصر الحجري الحديث كان قادراً على عبور مسافات بحرية قصيرة.

ومن جهة أخرى يظهر أن انتشار الثقافة الصادرة عن آسيا في أوروبا قد نتج عن مرور الانسان الأسْيوي إلى اليونان وسيبيريا ورومانيا و بلغاريا عن طريق البر.

وقد سُجّلت منذ سنين ظواهر التطابق والتماثُل الثقافي بين المناطق الواقعة بين رومانيا و بلغاريا و يبْدو أنّ أصل هذه التطابقات ثقافية واحِدة أصَابَهَا الانقِسام بفعل السنين والقرون إلى ان تمخضت عنها اختصاصات محلّية وجهوية. ومن هذه الآثار مجموعة قطع خزَفيّة وغيرها من العناصر الثقافية الأخرى التي تكون أحياناً منتشرة في أقطار مختلفة وأحياناً أخرى ينحصر تواجدها في مناطق معيّنة دون غيرها حيث تساهِم إلى جانب عناصر أخرى في إبراز خصوصية هذه المناطق وما يُمّيزُها عن غيرها.

ومن العوامل التي ساعدتْ على انتشار وتَبَادل العناصر الثقافية، التنقُّل البحري عبر الشواطيء انطلاقاً من آسيا إلى الشّواطيء الشّرقية لإسْبانيا.

وتُعْتَبَر القطع الخزفية المعروفة «بالبانْدْكِراميكْ» نواةً ثقافيةً يرجع أصلها إلى آسيا وقد انتشرتْ انتشاراً واسعاً انطلاقا من هذا القطر الى آخر رغم ما تميزت به بعد ذلك من خصائص استمدّها من المناطق التي وصلت اليها كأوروبا الوسطى وأوروبا الغربية وخاصة في نهر السِّين بباريس حيث وجدت قطع منها.

وتتميزُ قطع خزف لبَانْدْكِراميك بتوفرُّها على خصائص الصناعات الخزفية الأصلية وما لحق به من تطورات وتجديد بعد انتشارها في مختلف المناطق التي وصلت اليها، وقد تكون في بعض الأجناس بعيدة كل البعد عن الشكل والطابع الاصليّيْن اللذان كانت عليهما اثر انتقالها من آسيا. وتعتبر ثقافة رُوسّن (Rossen) نموذجاً متفرّعاً عن البانْدْكِراميك إلاّ انه استطاع ان يتطور مقتَبِساً اشكالا ثقافية مختلفة إنْصهَرتْ كلُّها في نموذج موحّد.

العصر الحجري الحديث والثقافات السّامية:

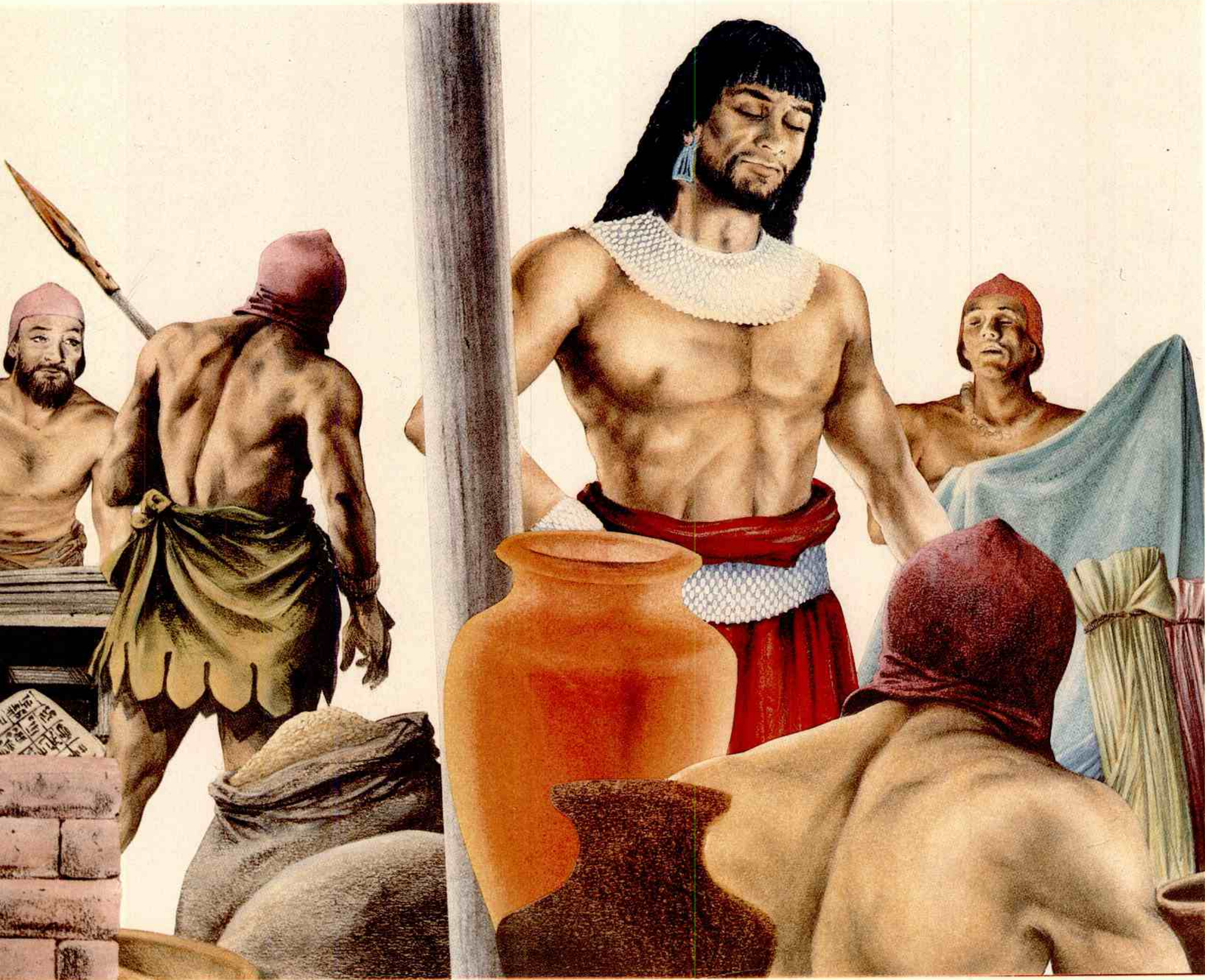
حين نتحدث عن «الثّقافات السامية» فإننا نعني بها الثقافات التي عرفت الكِتابة والخُطوط. و يتعلق الامر أصلاً بالعشرة قرون الثّالثة في تاريخ العراق او ما يعرف بحقبة أرك URUK والتي شهدت ثقافة منتشرة في منطقة إيلام وغرب إيران ومصر الفرْعوْنية. ولا يمكن لحدّ الآن التحقق من وجود اشكال كِتابية أخرى من نفس العصر في مناطق أخرى نظراً لغياب الآثار الأركيولوجية التي يمكن الاعتماد عليها.

وهناك تشابة بين الثّقافتين السّومرية والايلامية يظهر منه مدى تقدُّم وتطور الفكر البشري في تلك المناطق و بلْورة أشكال كِتابية أخرى لم يبْق منها أيُ أثر.

وكان تاريخ أول كتابةٍ حقيقية يرجع إلى ٣٠٠٠ سنة ق.م فإن الحركة الفكرية التي تمخضتْ عن هذا الشّكل التعبيري قد يرجع عهدُها أصلاً ومنها الهَنْدسة الأَثرية والفَنّ التّصويري والمِلْكيّات، والطُّقوس الدّينية و بعض الانجازات التّقنية، ذلك أنّ اختراعَ الكتابة إلى جانب هذه الاشكال الثقافية كانت ضرورة مُلحّة بالنسبة لتطوّر المُجتمعات البشرية. ويمكن القول بأن اختراع الكتابة والخطوط يُعْتبران من الانجازات التي تكشف عن مَدَى التطوّر التدريجي للفكر والعَقْل الانساني، الذي ما فَتِيء يتكيَّف مع تعقيدات الانشطة وتعدّد الحَاجيات التي تُمْليها وتفرضها الحياة داخِل المجتمع.

وقد عُرِف السُّومريُون في تاريخ الانسانية بكَوْنِهم أوّل شعب توصّل الى مظاهر الثقافة السَّامِيَّة. غير أنه لا يمكن القول بأن السّومريّين كلّهم كانوا مجموعة واحدَة مُتجانسة من حيث خَصائصها ومميّزاتها ومظاهر ثقافتها. كما أنه لا يمكن تأكيد ما يُعْرف عنهم من كونهم الشعب المُتأصل في مِنطقة ما بين النهرين (دجلة والفرات). او أنهم على عكس ذلك قد قدموا الى المنطقة من بلدان مُجاورة.

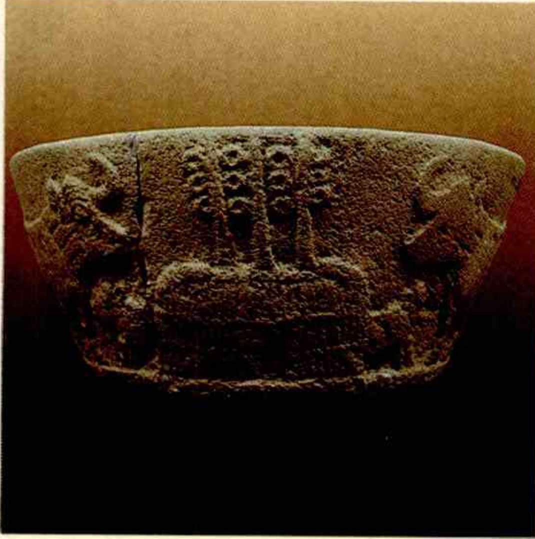
السّومريون وهم مخترعوا الكتابة كانوا نموذجاً لانتقال الانسان من عصور ما قبل التاريخ الى العصور التاريخية. وقد مارس السومريون التجارة بدءا باسْتِبْدال الأسلحة والأدوات المَصْنوعة مُقَابِل المواد الأوّلية لبناء المعابد وللتّزيين والزّخرفة.



وفي هذا الاطار يمكن اعتبار ملحمة جِيلْغَامِشْ Glyamesh وبطلها العملاق حُوْم بَابا Humbaba حارس غابات الأرز من دليل على أهمية البلاد اللُّبنانية بالنسبة للسّومريين التي كانت بمثابة خيط الاتصال بينهم وبين مصر القديمة ثم باعتبارها محطَّة ذات اهمية بالنسبة للمُبادلات التجارية بين الشعبين.

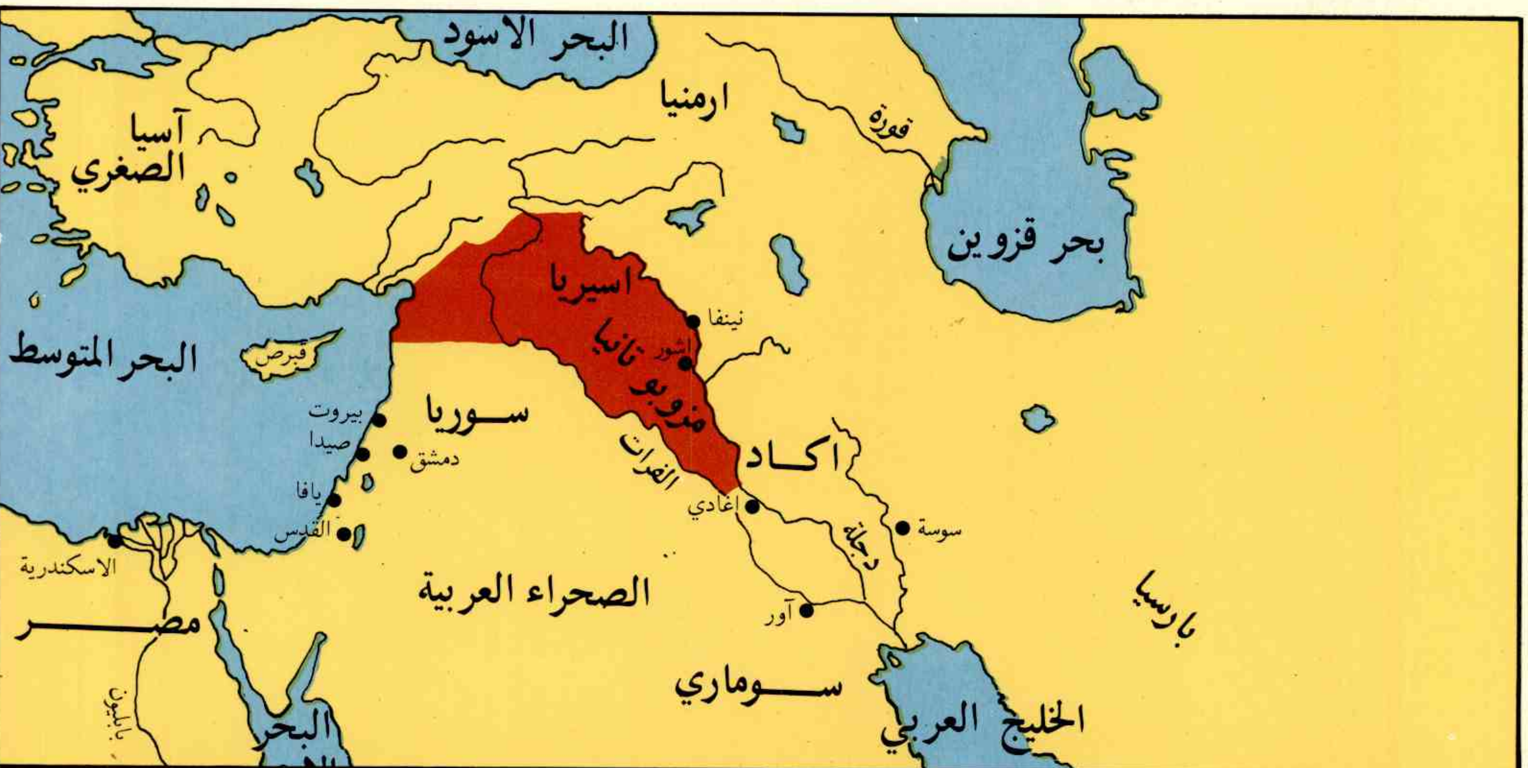
وحاصل القول ان ما يمكن تأكيده إنطلاقا من النظريات المُتَفَاوتة والمُتَعارضة أن السّومريين قد ساهموا فعلاً، ولو جُزئياً، في تطور الثقافة المصرية القديمة التي كانت تتوفّر على ظروف ملائمة لاستيعاب كل أصناف التطور الثقافي المستوْرَد.

الا انه يبقى التساؤل مُعلَقاً حول الدوافع التي جعلت بعضَ العلماء يُسَلّمون باستقلال ثقافة إيلام عن الثقافة السّومرية رغم التشابه البَيّن بينهما من جهة. والتأكد على ارتباط الثقافة المصرية بالثقافة السومرية من جهة اخرى مع أن الدليل الوحيد هي المراكب وأشكالها ونقوشها التزيينية المتشابهة لدى كل من الشعبين، بالاضافة الى دليل خيالي واسطوري هو ملحمة جليغاميش. ذلك أن مثل هذه المقارنة تجعلنا نبحثُ عن المُعطيات المادية المُمْكنة التي قد تُزَكّي وتدعم هذه الفَرضَية الخفيَّة التي تجعل الفكر المصري القديم مَرْهوناً بالاتصال بالفكر العراقي القديم.



الصورة أعلاه / وعاء حجري مزين برسوم ثيران وهو من صُنع سُومري يعود الى ما قبل 4000 سنة ، ويوجد الآن بمتحف ما قبل التاريخ ببغداد .

الموقع الجغرافي للعراق القديم حيث ظهرت الحضارة السومرية. وكان كل من دجلة والفرات من عوامل اخصاب التربة الصالحة للزراعة. مما جعل المنطقة تعيش استقرارا وتطورا حضاريا.



تقنيّات العمل ووسائل العيْش

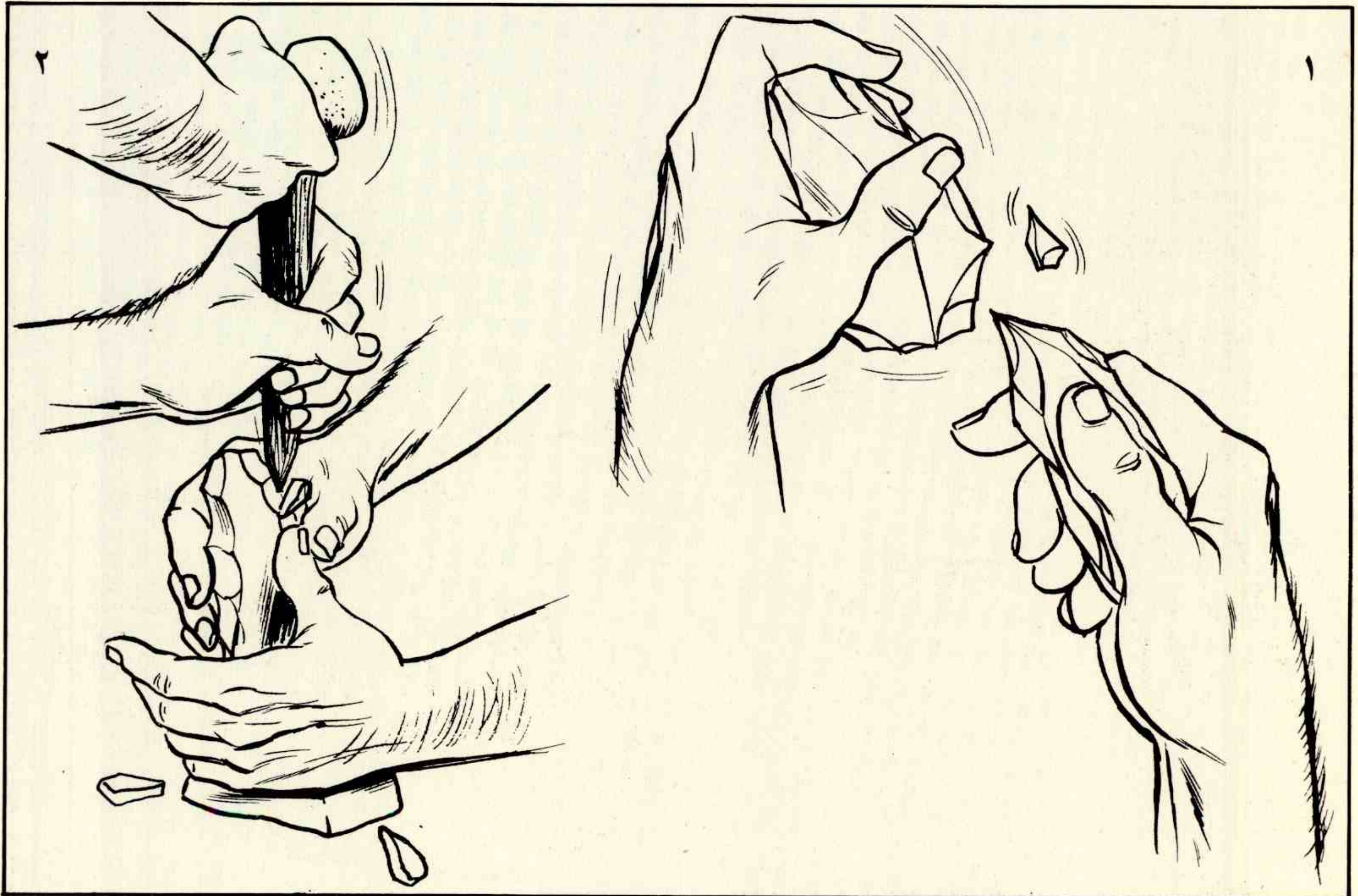
العصر الحجري القديم (بَا لُيوليتيك)



العصر الحجري : من الصّوان إلى الابرة.

اذا اعتبرنا أن مدلول «التقنية» هو كل ما يخترعه الانسان لاستعمال القِوى والموادّ الطبيعية لخدمة اغراضه المعاشيّة، فانه منذ العصر الحجري القديم والانسان يستَنْبِط وسائل عيشه من احتكاكه المتزايد بالطبيعة ومن ممارسة تجارب الحياة اليومية. وقد بدأ معالجة المواد الطبيعية بتحويلها بطريقة بدائية عن حالتها الأصلية المَحْضة وهي تحوُّلات بقدر ما تبدو لنا بسيطة بقدر ما كَانَتْ آنذاك معَقَّدة بالنّسبة للانسان القديم وتفرض عليه اجتهادات وجهوداً خاصة لتطويرها وتكييفها مع متطلبات حياته الّتي تتعقد بدَوْرِها تدريجيّاً.

ففي ذلك العصر كانت الأدوات الحجرية مصنوعة بكيفية بدائية تنْحصر في شَرْم القِطع الحجرية وشَحْذِها ثم صَقْلِها. وتُعتبر عملية الصّقل والشّحْذ والتّهذيب من التقنيات الأولى التي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى. وقد عُثر بالفعل على بعض التّماثيل و بعض الحِليّ الحجرية والأدوات العَظْمية التي ترجع الى ذلك العهد.



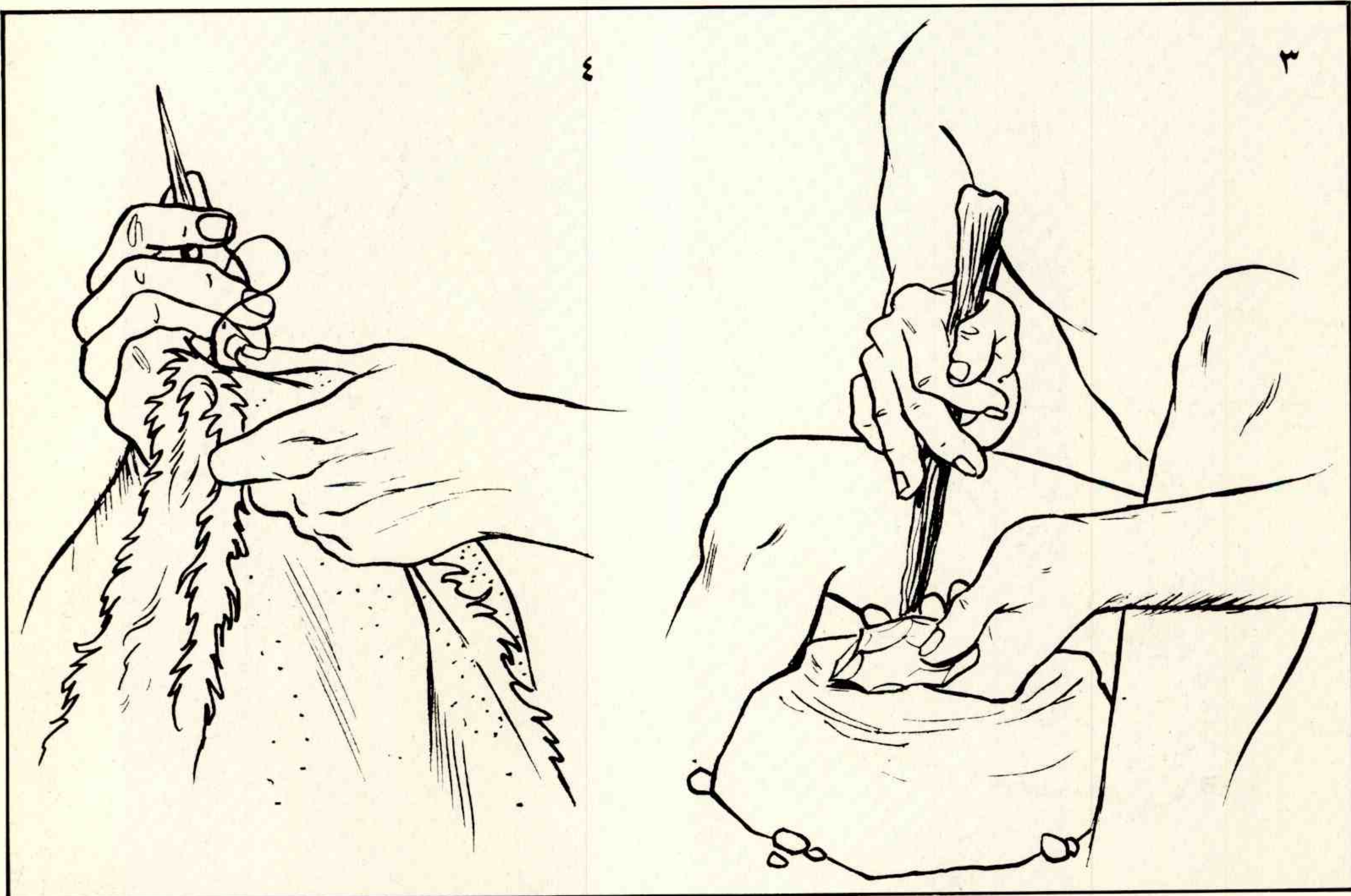
وتتم عملية التّهذيب والصّقل عن طريق الطَّرق والضَّغْط حيث تستعمل لِذلك مِطْرقة حجرية لِمعالجة القِطَع الحجرية أوْ وَسَائل أخرى للضغط على القِطع الخشبية والعظْمية وتحو يل شكلها حسب الأداة المُراد صُنْعُها. ولم يعرف العصر الحجري سوى طريقتَيْن لصُنع الأدوات الحجرية وغيرها وهما استعمال القطع الصَّوَّانية الكُلْيَو يّة الشَّكل واستعمال القُشور الصَّخرية. وفي الحالة الأولى تُعالج القطع الصخرية حتى تُزال مِنها كل الثّلم والنُّتؤات وتُصبح صالحة للاستعمال وفي الحالة الثّانية تُستعمل القُشور الصَّوَّانية مباشرة حين تتوفّر على حَدٍّ قاطع، أو يُحْتفَظ بها لاستعمال آخر غير القَطْع. ومن الطبيعي أنْ تكون جوْدة الاشياء المصنوعة مَرْهونة بنوعية الأدوات المستعملة وفعاليتها، وعليه فإن الرَّغبة في الحصول على نتيجة أفضل كانت دائماً وراء تحْسين وتطوُّر الأدوات الحجرية.

وخلال العصر الحجري الأدنى كانتْ اهَمّ الأدوات المُستعملة هي المِطرقة المَصْنوعة من الصَّوَّان الكُلْيَوي الشكل والمِكْشط المصنوع من قشور الصَّوَّان. وفي الحِقب السّابقة كالعهد الشّلي، كانت المطْرقة عبارة عن قِطْعة حجريَّة خَشِنة بينما المِكْشط عبارة عن قشور الصَّوَّان المُسْتخرج من الحِجارة التي يتم قَرْعها فوق سِنْدَان حَجَري.

وعَرَف أحد العُهود الحجرية القديمة معالجة القِطع الصَّوّانية الكُلْيو يّة الشّكل باستعمال مِطرقة خشبية وتُعرف الأدوات المصنوعة على هذا النّحو بالأدوات الأشواليّة، إلاّ أن هذه التّقنيات البدائية لم تتمكن من الانتشار آنذاك نظراً لِرَواج وفَعاليّة أشكال أقدم منها.

ومن المراحل المتقدمة في مجال صناعة الأدوات

١ ــ أدوات قاطعة
٢ ــ أساليب الدّق والطّرق مع مطرقة حجرية
٣ ــ صقل البلّيرات
٤ ــ الابرة المصنوعة من الصّوان والعظام.

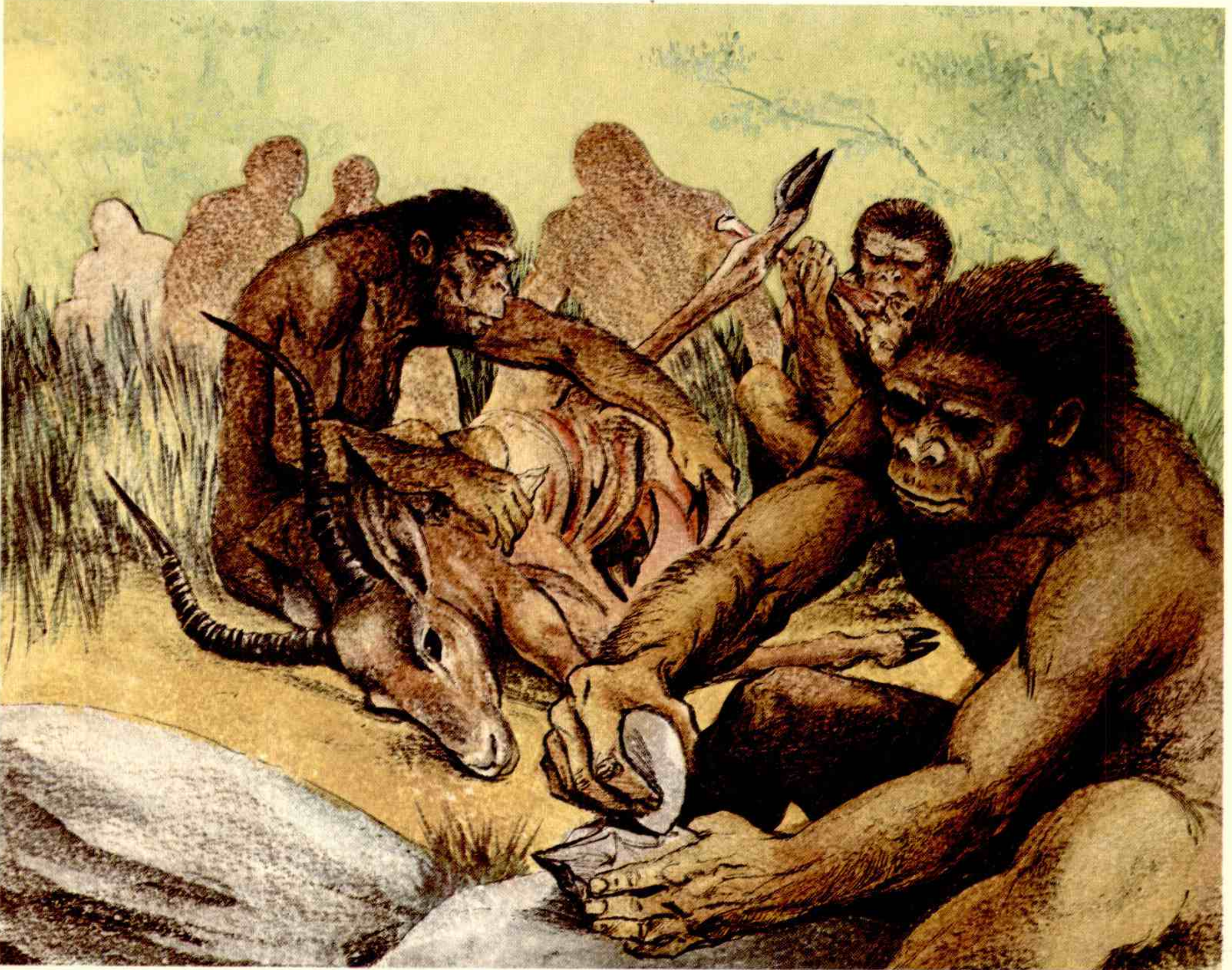


الحجرية مرحلة بدأ فيها صقلُ وتَهْذيب الطرف الخارجي للمِطرقة الحجرية إلى أنْ يتخذ شكل دِرْع سُلَحْفاة او شكلاً أُسْطوانياً الشيء الذي يمكّن من مُعالجة القطع الحَجَرية وإزالة قُشورها ونُتُوءاتها بسُهُولة.

وفي أواخر العصْر الحجري القديم، إنتشر استعمال القُشور الصَّوَّانية بكثرة عوض القِطع الكُلّيوية الشّكل. أمّا العصر الحجري الأوسط فقد عرَفَ مرحلةً تُعرف بالمُسْتيرية والتي شهدت تخصُّصاً تِقنيا مهماً حيث تطورت صناعة المطارق الحجرية والحِراب اليدوية والمَكاشط والحِراب الوَرَقيَّة الشّكل كما تطوّرتْ تِقنيَّة الصَّقل والتّهذيب تطوُّراً مُدْهِشاً. وإذا كان العصر الحجري الأعْلى قد عرف بدوْرة تقدماً آخر يتمثّل في اختراع تِقنيات جديدة ومتطوّرة قادت الانسان الى مراحل التّقدم الحقيقي.

وتَعْتَبَر تِقنية النَّصْل والشَّفْرة المُرتبطة بإنسان كْرُومانْيون من التقنيات المُتَقَدِّمة التي مكّنت منْ صُنع أسِنّة الرِماح ونَحْت الصُّور الانسانية والحيوانية والأسْورة وغيرها من الأَواني الصالحة للاستعمال اليومي. كما أن الانسان في هذه الحِقبة قد اهتدى الى تقنيات الصِّباغة والرَّسم على جُدران الكهوف وتزْيين الجَسَد بالرسوم والأشكال الهَنْدسية كما توصّل الى استعمال الازميل في النحت وطوّر الصّقل والضَّفْر والجَدْل والخِياطة.

في العصر الحجري الأدنى كان الصّيد البرّي مرهونا بالقوة والمهارة وحسن الحظ. وبما ان الصيادين لايتوفرون على أسلحة فعّالة، فقد كانوا يضطرون الى مطاردة الوحوش وتطويقها قبل الفتك بها بواسطة العصيّ والحجارة.





في الصورة اعلاه نلاحظ مجموعة من الكاشطات من العصر الحجري (بالمتحف الاركيولوجي ببولونيا)، واختراع المكشط كان قد سهل انجاز وتطوير العديد من الأدوات النافعة في الحياة اليومية .

غير ان الانسان في هذا العهد، رغم تقدُّمه التِقني، لم يسْتِطع بعد تَجَاوز مرحلة مُعالجة المواد وتغيير أشكالها ولم يَصِل إلى تحْويلها إلى موادّ أخرى.

ونفس المُلاحظة تَنْطبق على مجال التّغذية، فالانسان آنذاك كان يكْتفي بما تَمْنحه الطّبيعة من موادّ جاهِزة، حيث لم يتوصّل الى تغْيير المُحيط الذي يعيش فيه إلاّ في العصر الحجري الحديث فرغم تطوُّر فكرة المِلْكيّة في العصر الحجري القديم التي جعلت الانسان يمْلك كهوفه ومَجالاته الأرضية وغيرها، فإن التصرف الكامل في الطبيعة وإخْضاعها وتحويلها لم تنْضج إلا في العصر الحجري الحَديث حيث بدأ الانسان يفكر في وسائل البحث عن موادّ للتّغذية غير التي يعْثر عليْها بالصُّدفة في الطبيعة.

وأهمُّ تغيير لقوانين الطّبيعة والتّصرف فيها يرجع إلى العصر الحجري الأعْلى حيث توصّل الانسان إلى تأنيس الحيوانات الأولى وترْويضها وخاصة منها الكَلْب، حيث لم يُعْثَرْ على آثار تدلّ على أنه رَوَّضَ حيوانات أخرى. وإذا اعتبرنا أن الكلبيات على العموم غير شَهِية للأكل والتغذية وفَرْوتُها غير صالحَة لِلْكِسْوة فإن بعض الآثار المُكْتَشَفة تدلّ على أنّ الكِلاب كانتْ تساعد الانسان في صيد الحَيوانات الأُخرى . ومن المُحتمل أنّ أصنافاً من الكَلْبيات كانتْ تحْتشد على هامش المُسَتوْطَنَات الانسانية بهدف الْتقاط فضلات الحَيَونات ا لتي يصْطادها الانسان مما قد سهل نوعاً من التآلف و بالتالي التملُّك والتأْنِيس.

الصيد في العَصْرَيْن الحجرِيَّيْن الأدْنى والمُتَوسط:

يتبيَّن مِن خلال الآثار الأركيولوجية التي تم العُثور عليها أن أهم الحيوانات التي كان يصطادها الانسان خِلال العصر الحَجَري الأدْني والمتوسط كانت هي أنواع المَامُوث. ونظراً لضخامة هذا الحيوان فانّنا نَستنتجُ من اصْطيادهِ ثلاثة مُعْطيات ثقافية واجتماعية أساسية: اولاً، ضرورة تنظيم هذا النوع من الصّيد اعتماداً على مجموعات منَسَّقة وذات أدْوار وخُطّة مُحْكَمة. ثانياً، المَعْرفة الدّقيقة لهذا الحيوان وخصائصه ونقط ضعفه للتمكن من السّيطرة عليه، ثالثاً، فكر الانسان المتطور الذي يجعله يفوق أعظم الحيوانات ذكاءً ويحاول السّيطرة عليْها وإخْضاعها و بالتالي الفَتْك بها. واختياره لهذا النّوع من الحيوانات دليل على رغْبته في تحدّي القوى الطبيعية والحيوانية ذلك لأنه يُفَضّلها على الحيوانات الصّغيرة والضّعيفة التي تنتشر في الطبيعة والتي يسهل اصطيادها.

ومن اهم الاكتشافات في هذا المجال أحفور عثر عليه في ليهْرينغام بِساكس، ففي بحيرة بيْجليديَّة اكتشف هيْكل عظمي لفيل الغَابَات الضّخم الذي يكْبر حجم

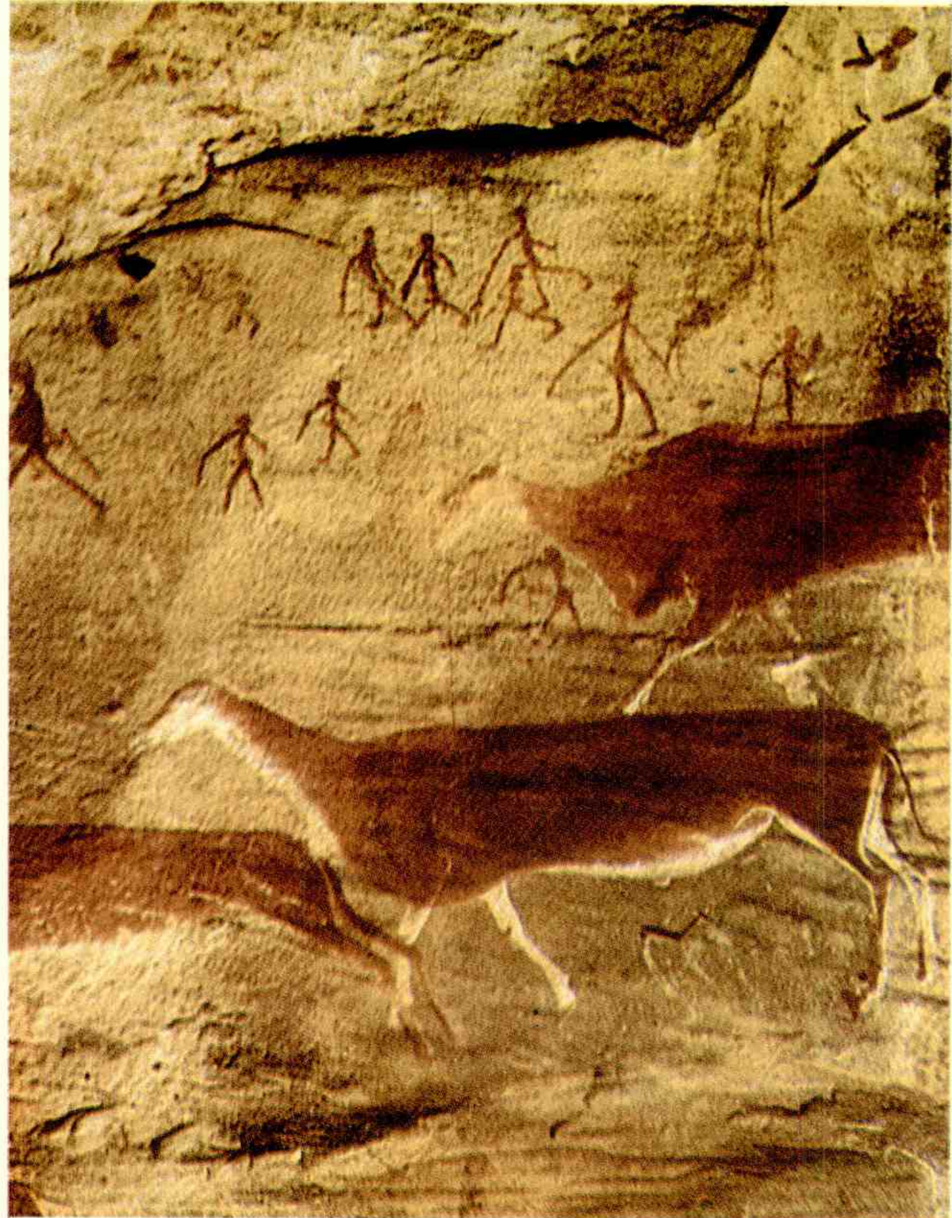
الماموث المعْروف. وقد وجدت بين أضلاعه حرْبة من الخشَب طوُلُها مِترين ونصْف و بجانِب هذا الهيكل وجدَت أدوات حجرية مصقولة ومهذبة بكيفية بدائية.

وقد استَنْتج بعض العلماء ومنهم موليرِ كارْب مايلي: يَحتَّمل أن يتعلّق الامر بمطَاردة مكثّفة للحَيوان المذكور حيث تمكّن أحد الصّيادين من غرْز الحربة في صدره، ثم لاَذَ الحيوان بالفِرار إلى ان سَقَط في البُحيْرة. و بعد أن لحق به الصيادون وأدْركوا أنه على وشك الضّياع منهم كمصدر مهم للتغذية قاموا بصنع بعض الأدوات الحجرية بكيفية مُسْتعْجَلةٍ لقَطع لَحْمه وتوزيعه للتمكُّن من نقله إلى مساكنهم تاركين الهَيْكل العظمي في البحيرة.

وقد تحقَّق العلماءُ من التشابه والتّطابق الموْجود بين البَقَايا العظمية التي عثر عليها قرب المَساكن و بين العِظام التي عثر عليها بعيداً عن هذه المساكن. ففي الحالات الأولى لا يتعلق الامر سِوي بالعظام المُناسبة لأهم الاطراف السَّمينة في الحيوانات المُصطادة أمّا ما وجد بعيداً عن المساكن فهو من عظام المناطق الهَزيلة منها. و يفترض انطلاقا من البقايا المُكتشفة أن الصيد

الى اليمين تضاعف آستئناس الانسان بالظواهر خلال العصر الحجري الأعلى، حيث طور أساليب الصيد التي كانت أحيانا موضوع دروس تدريبية خاصّة داخل الكُهُوف. الّتي تحمل جُدْرانها صورا للوحوش المفضلة للصّيد. الصورة لجِدَار إحدى الكُهُوف بِلاَسْو (فرنسا).





كان يتم بواسطة الحِراب الخشبية التي كانت تُستعمل كأسلحة للطعن وليس الرمْي وكانت بها أسِنّة كانت تصُلّب بالنار لتصِيرِ حادّة وقاطِعة. كما تستعمل نِبَال مَصْقُولة وأسنّة حادّة مصْنوعة من عِظام ورقية الشّكل من الحِراب المُتقنة الصُّنع والفَعّالة في الفَتْك بالوحوش.

اعادة إنشاء وقائع ما حدث ليهرنغن بساكسونيا. فقبل بضعة آلاف السنين، أصيب هذا الفيل بطعنات الصيادين الذين لاحقوه الى أن سقط في رمال إحدى المستنقعات المتحركة. وبعد ذلك قام الصيادون فورا بصقل وشحذ أدوات حجرية قاطعة لتمزيق جثته وحمل قطع اللّحم الصّالحة للأكل للاحتفاظ بها في مساكنهم للتغذية.

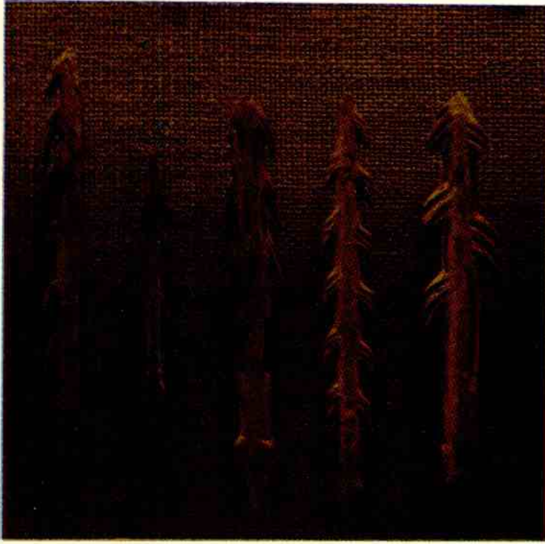
ومن خلال اكتشافات أُولْدوَايْ ومقارنتها بما عُثر عليه في إفريقيا الشرقية استنتج لِيكي Leakey أنّ هناك تِقْنية أخرى للصيد تَعْتَمد على نَصْب فَخ بجانب مَجاري المياه التي تَرْتادُها الحيوانات. وبعد أن يسقط الحيوان في الفخ و يُفْتَك به تُخَيِّمَ مجموعة من الصيادين في نفس المَكان لانجاز عمليّة القطْع وتوْزيع اللّحم الصّالح للتغذية ثم حمْله إلى البيوت وكانوا يستعملون لِذلك المطارق والأدوات الحجرية القاطِعة. وقد اكتشفت في تلك الاماكن مجموعات مطارق بجانب عظام المَامُوث. وقد عَزا نوجير Nougier تراكم هذه الأدوات بكوْن الصّيادين قد تخلوا عنها لأنها لم تعُدْ صالحةً لهم حيث عوّضوها بأحْسن مِنها.

و يظهر أنّ استعمال الباب الأرضي (Trappe) كان



من أحدث التقنيات آنذاك ومن الدلائل على ذلك ما عثر عليه من عِظام في مناطق خاصة واقعة بجانب المجاري المائية او أماكن أخرى ذات المنحدرات والجوانب الوَعْرة، وبالفعل فإن العديد من رُكامات عِظام الكُرْكَدنْ ووحيد القَرْن قد اكتِشفت في الأماكن التي كانت بها تجمُّعات بشرية، وكانت هذه التجمّعات تكثر في المناطق التي يكون فيها الصّيد وافراً ومضمونا، وقد استخلص العُلماء من الآثار العَظْمية أنّ الحيوانات كانت تَتوزع في المَنَاطِق المَائية حسب توفّرها على أعمارٍ مُتَقَاربة، حيث ان مناطق تكثر فيها عِظام الحَيوانات الصغيرة ومناطق اخرى تَنْتشِر فيها حيوانات متقدّمة في السّن.

ومكنت الاستنتاجات الاخرى من هذه البقايا أن هناك تخصصات جِهوية تكْثر فها بقايا حَيوانات من النوع الذي لا يوجد في مناطق أخرى. كما انّ اصنافاً من الحيوانات كانت مفضَّلة أكثر من غيرها في مختلف المناطق وذلك مثلا ما يؤكده العثور على العديد من جَماجم دِببة الكُهوف التي ترتْفع عن الأرض بـ ٢٠٠٠ متر، مما يدل على أن الانسان كان يطاردها حتى في ذلك العلو الشّاهق تاركا الحيوانات تعيش على سطح الأرض، علما أن تلك



في الصورة أعلاه : أقدام ماغدالانية ترجع إلى ما قبل 18,000 سنة. وهي محفوظة في متحف العصور القديمة بسان جيرمان أون لاي بفرنسا.

من المحتمل أن يكون إنسان العصر الحجري الأعلى كان يمارس شكلا من أشكال تربية الحيوانات. ويتعلق الأمر بحبس قطعان الحيوانات المعشبة الصالحة للنحر المباشر. ولا يستبعد أن تتوالد الحيوانات أثناء مدة حبسها. مما أعطى أنواعا جديدة من الفصائل الداجنة.

الدّببة كانت ذات أحجام تصل ضِعْف أحجام الدّببة الحالية، الشيء الذي يؤكد مدى حُب الانسان القديم للمُغامرة والانتصار على أصعب الوحوش اصطيادا.

والبقايا العظمية الموجودة إلى جانب البقايا السّكنية من الدلائل الواضحة على أن الانسان يختار مكان الصّيد الوفير ليُقيم فيه و يستهلك محلياً ما اصْطاده إلى ان تَنْقرض الحيوانات التي حَبّذها ثم ينتقل إلى غيرها من الأماكن. وذلك ما يؤكده ايضا العديد من الحُفَر ذات الأ بواب الأ رضية التي يتطلّب إعدادها وقتاً طو يلاً.

وتُبيّن الابحاث الأركيولوجية المتعلقة بذلك العهد أن هناك حيوانات معيّنة مُحَبّذَة لدى صيّادي مُختلف مناطق العالم آنذاك ومنها على الخصوص الأ رْو ية وَمَا عِز الغابات والخيول الوحْشية والرّنة والبيسون والأ يّل وَوحيد القرن.

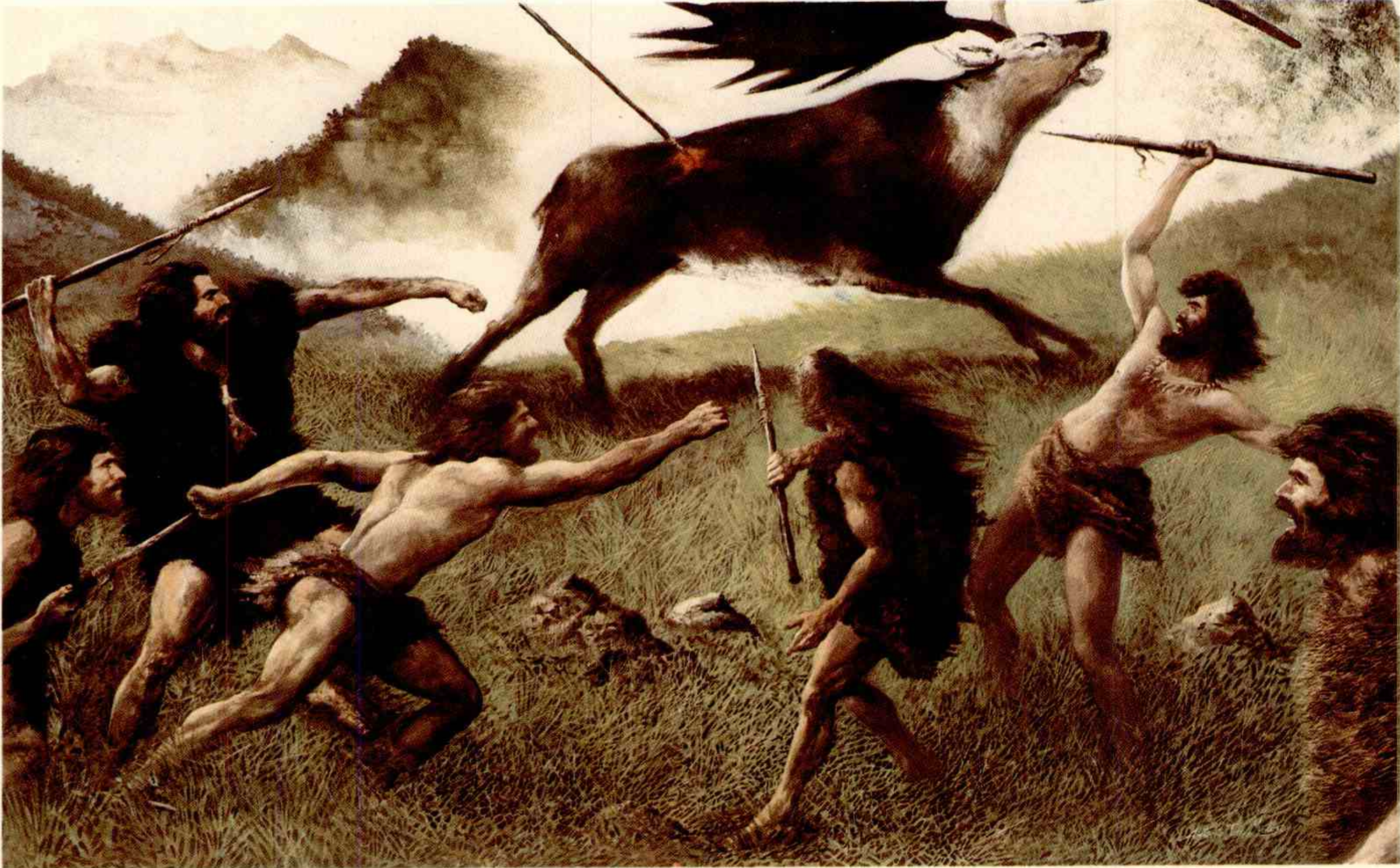
تميز العصر الحجري الأعلى بظهور أشكال الصيد المتطورة، حيث كانت مجموعات الصيادين تنتقل لتطارد الوحوش وتطوقها إلى أن تتمكن من القبض عليها أو الفتك بها.

العصْــر الحجــري الأعلـــى :

يتميز العصر الحجري الأعلى بتكْثيف أنشطة الصّيد التي تجاوزتْ من حيث فَعّاليتها الأنْشطة البدائية التي كانت سائدةً في العهود السابقة. ومن بين الدلائل على ذلك ما اظهرتْه الاكتشافات الأ ركيولوجية من تنوُّع في أصناف الحيوانات المُصْطادة وجَوْدتها.

ففي أورو با الغربية وأورو با الوسطى انتشر صيد الماموث الذي حلّ محل الغابات الذي كان كَذَلك كبير الحجم و بنفْس شَرَاسة الماموث. و بعد ذلك عُوضَ الماموث نفسه بالخَيْل الوَحْشي والبيسون؛ وقد اعتبر هذا الأخير أفضل صيدٍ في الشّرق الأوْرو بي.

و يظهر أن الأماكن التي يكثر فيها الصيد والطرائد كانت مواقع استقرارٍ للصيادين الذين يمْكثون فيها طول المدة التي يتوفّر فيها الحيوان المصطاد. ومما يثْبت ذلك ما



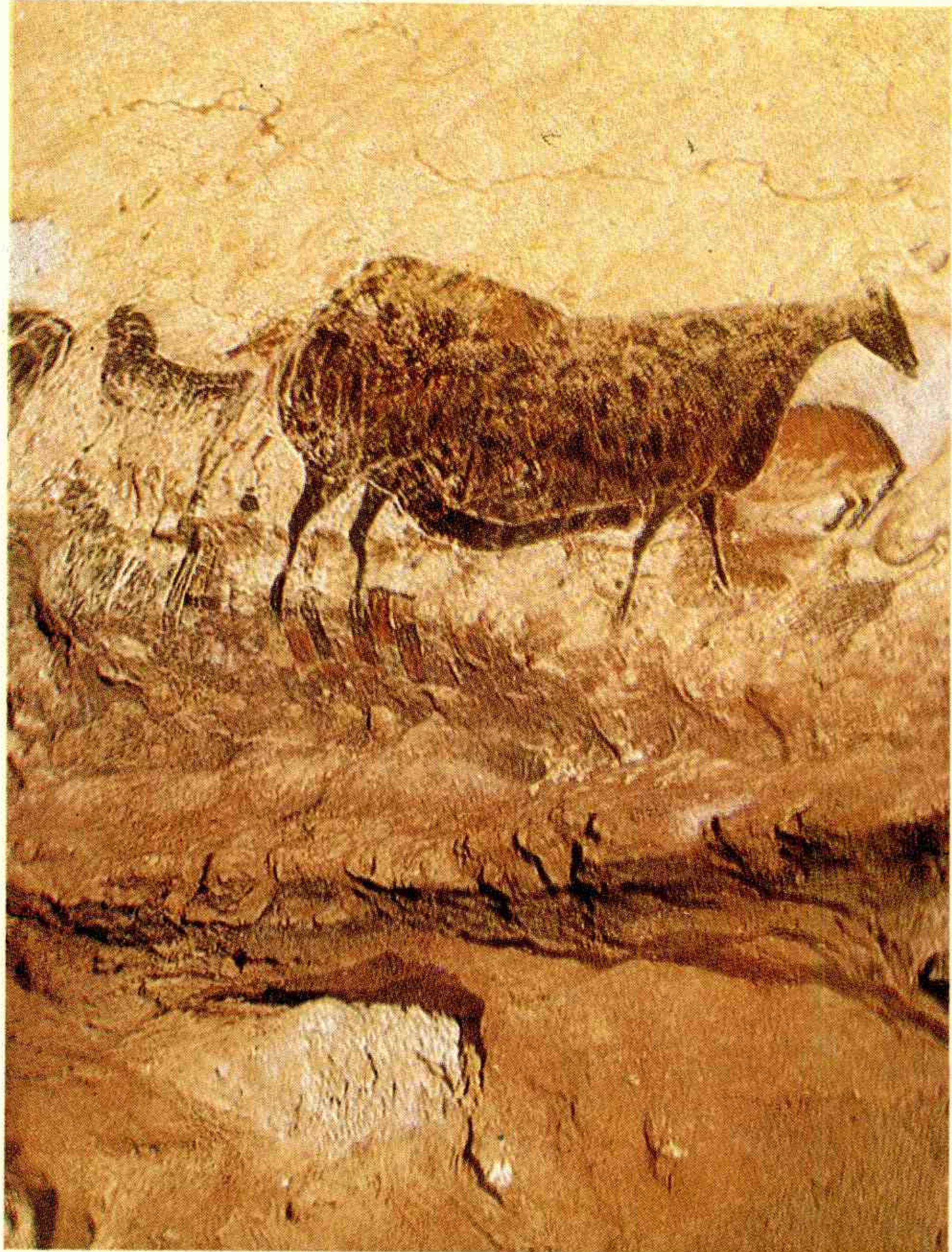
عُثر عليه من أدوات حجرية إلى جانب العظام الحيوانية في بعض المناطق.

أما من حيث تقنيات الصّيد في العصر الحجري الاعلى فهي على العُموم مماثلة لما كانتْ عليه خِلال العهد السابق له وخاصة فيما يتعلق بصيْد الفيلة. أمّا الرّمي بالرماح واستعمال الفخ فقد تضاعف استعمالهما بشكلٍ مُكثف كما يظْهر من خِلال الاكتشافات الحَجَرية والعظمية. فعظام الماموث التي عثر عليها تحمل بعض خُدُوش الأسنَّة وفي بعض الحَالات توجَدُ أسنَّة مُنْغرزة بين عِظام الحَيَوانات. وقد عثر بجانب الهياكل العظْمية الحيوانية على العديد من الأدوات الحجرية المصنوعة في عين المكان مما يدلّ على أن الطريدة قد استُهْلكت مُباشرةً وتمّ توزيعها في نفس المكان الذي سَقطَتْ فيه.

وفي روفينْياك بِفرنسا هناكَ بعض الرُّسوم التي تمثِل من بين ما تُمثّلُه من أشكال، قُطْعان الماموث التي يظهر من كثرة عدَدِها ان العصر عَرَفَ تنْظيماً جماعياً للصّيد عن طريق إحراق السُّهب لمحاصرة القُطعان والفتْك بها. و يبدو أنه يجب مُحاصرة وعَزْل الوَحْشِ عن القطيع وطعْنه بحَرْبة من الجنْب. وفي بعض الرسوم الموجودة في كهوف العَصر تبرز النقطة التي يتعَيّن إصابتها منقوشَةً على صدر الحيوان، وهذا يدلّ على ان هناك تدريباً مسبقاً على الرّمي بالرمح لأن إخطاء الهَدف معْناه بالنّسبة للصّياد التعرض لهَجْمة الوحْش الجريح. وقد عثر على رسوم ونقوشٍ تصور بيسوناً مُجَنْدلا لا يتحرك و بجانبه بيسون آخر مجروح وهو في حالة الهجوم والانْقضاض على الرّامي. واذا كانت مِثْل هذه الرّسوم لا تحمل دلالة طقوسية فهي من المؤكد وضِعت لتَنْبيه الصيادين لِمخاطر صَيْد الوَحش، او لتَرْسيخ تقنية الرّمْي الجَيِّد في أذْهَانهم. وفي أمريكا، يظهر أن هناك طريقة أخرى لاصْطياد البيسون، حيث تُهاجم مجموعة مِن الصّيادين قطيعاً كاملاً. **وعثر في فُولسن على بقايا** ٢٣ بيسونا و بجانبها ١٩ سِناً حَجَرِياً.

أما الأسلحة الأكثر استعمالاً في ذلك العهد فهي الرّماح ذات الألسنَة الحَجَرية أو العظمية او العَاجية او القَرْنية. وتتفاوت الأَسلحة من حيث سمْكِها وحجْمها وطولها حسَبَ نوْعية الوَحْش المُراد اصطياده. وقد عثر على مجْموعة من السهام من العهد النّينِدرْتّالي و بها حَزّ طُولاَني، و يظْهر أنّها طريقة لِتَسْهيل سَيَلان الدّم من جُرح الطريدة لتموت بسُرْعة؛ و يُحْتَمَلُ كذلك أن يكون الحَزّ حامِلاً لنَوْع من السّمّ للتعجيل بالفَتْك بالحيوان المُصاب، وهذه الفَرَضِيّة الأخيرة لا يمُكن تأكيدها بصفة قَطْعيةٍ لأنّها تتطلب تطوراً خَاصّاً لَدَى الانسان القديم.

وقد عثر سُولُوتْري Solutre على آثار تكشف عن استعمال تقنية الصيد عن طريق «الإحَاشة» والتي تُستعمل بالخصوص لِمطاردة الخُيول الوحْشية. فقد وجدت عظام هذه الحيوانات على جَنَبات جبلٍ يهبط شَاقُولِياً في أحد اطرافه و ينحدر تدريجياً في الطّرف الآخر. و يظهر أن مجموعة من الصيادين كانت تطارد قطعان الوحوش للدّفاع



إلى الجانب، نقوش جدرانية في مغارات روفينياك. نلاحظ خُدُوشا فوق رسم البيوت، ويدل ذلك على بعض الطقوس الممارسة داخل الكهوف قبل الخروج إلى الصيد.



من تقنيات وأساليب الصيد في العصر الحجري.

بها نحو جَنَبَات الوَهْد المُنحَدِرة عَمُودياً وذلك باستعمال أبواقٍ مصنوعة من قرون الأ يّل. ومن المرجّح أن تكون هذه التقنية مستلْهَمةً من طبيعة الجبال والمنحدرات نَفْسها، ولكن في نفس الوقت يجب التأكيد على مَدَى التطور الذّهني لدَى إنسان ذلك العصر للوصول الى مثل هذه الحِيَل.

وتبين بعض الرسوم الجُدرانية في كل من مونْتسبان وكامباريلاس ولاَسُو إستعمال تقنيات أخرى كَفَخّ السّقوط والشّرك والنّبال وهي تقنيات عرفت انتشاراً واسعاً نظراً لسُهولة تَدَاولها ولِفَعاليتِها.

وخلال العصر الحجري الأ ول انتشر صيد الأ يليات وحظِي باهتمام متزايد من لدن الصّيادين في مختلف الاقطار. فقد عثر على بقايا عِظام الأ يليّات في مناطق أوروبية تمتد إلى غاية إسبانيا. مما يؤكد من جهة تنقل اصناف حيوانية وهِجرتها المَوْسِمية ومن جهة أخرى تنظيم حملات مطاردة التي قد تُؤدّي بالصيادين الى قطع مسافات طوال وراء قُطعان الحيوانات.

ويمكن القول ان الرَّنّة بقيت الى عهد طويلٍ افضل صيد يُحَبّذه صيادو منطقة أوروبا الأسيوية في حين كان الأيل منتشراً ومُفَضّلاً لَدَى صيادي أوروبا الغربية.

وصيد الرَّنّة يتطلب من الصيادين تكيُّفا هاماً مع خصائصها وطبائعها وعاداتها. فهذا الحيوان يتنقّل دائماً على شَكل قُطعان كبيرة تبقى متجمعة ومتماسكة طوال رِحلتها وتقضي فصل الخريف في الجنوب وفصل الصيف في الجبال الجليدية. وعليه فصيادو الرّنّة يختارون بين طريقتين: إما مطاردة القُطعان أينما رَحَلت أو ممارسة نَشاط آخر في انتظار عودَتِها المَوْسِمية. وخلال العصر الحجري الأ ول مُورس النّظامان معاً من قبل مَجموعات الصّيادين.

أما فيما يخص الأدوات والأسلحة المستعملة في صيد الأ يليّات فمن خلال الاكتشافات الأ ثرية يظهر أن استعمال الرّماح والنّبال والفخّ والشّرك كان منتشراً ومتداوَلاً حسب نوعية الحيوان المُصطاد. فقد عثر في ستِيلْمُور على أسنَّة النّبال وعصى خشبية صغيرة وعظام رنّات تحمل خُدُوشاً تكشف عن استعمال الصيادين للأَسِنّة الحجرية كما أن هناك بعض الرّسوم الجدرانية التي تمثل حيوانات تنغرز في ظهورها نِبَال مُريَّشة. و يفترض ان تلك النبال كانت تُرْمى بواسطة اقواسٍ لم يُعثر لَها على أثر من العهد الحجري الاول، لأن الرسوم التي تمثل صيادين مقلَّدين بأقواس ونبال ترجع كلُّها إلى عهود ما بعد العصر الحجري الأ وّل، وهي موْجودة في كُهوف بعض مناطق الشرق الاسباني. وكانت الرّماح وخاصة منها المَرَارق مستعملة أساساً لطَعْن الحيوانات مِن بعيد، مما يفسّر كوْن الاسلحة المذكورة تبقى مُنغرزة بين أضلع الحيوانات المطْعونة التي قَدْ تكون لاذَت بالفِرار. ولم يعثر على أي أثر يدُلّ على استعمال القَبْضة الخشبية الحاملة للأسنة لذَلِك لا نَعْرفُ هل كانت هناك قبضة خشبية

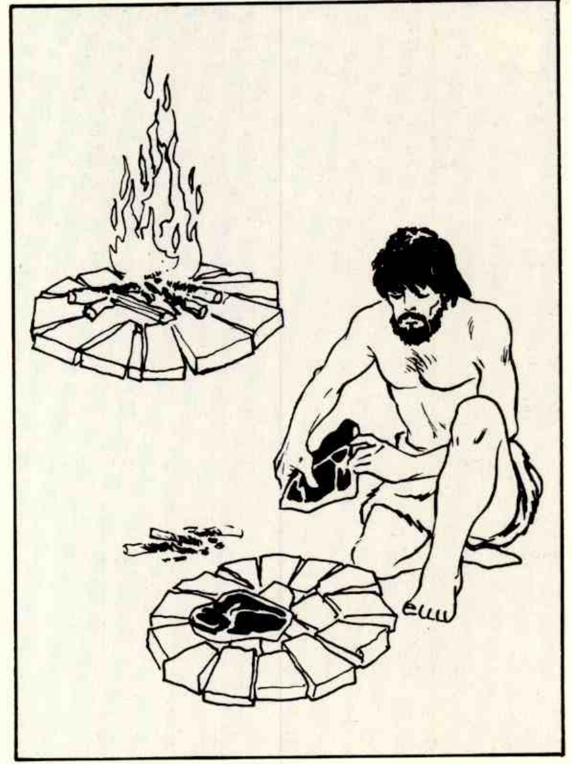
تضيع بعد أن تنغرز في جسد الحيوان أم أن هناك وسيلة لارسال الأسنة من بعيد، كاستعمال الحبال مثلاً للتمكن من مطاردة الحيوانات المطْعُونة حتى يفتك به نِهائياً. وقد عثر كذلك على نوع من الدَّواسر على شكل عِصي تحمل في طرفها مَخاطف تُمكّن من مُضاعفة قُوّة الطّعن بالرُّمح وتحقيق الفعالية المطلوبة في الفتك بالوحش. وقد عثر على دَوَاسِر من عظام وعاج يظهر أنها أدوات طقوسية تُحاكي الدّواسر الحقيقية المصنوعة من الخشب والتي لم تَتَمكّن من البقاء إلى الآن.

وتوجد في كل من ليكومبازيليس و باسْيِيرا ولابيليتا رسوم جدرانية من العصر الحجري الأول تمثل صيادين **يستعملون الشَّرَك لاصطياد الايليّات غير أن الرسوم تمثّل** كذلك استعمال السّياجات والحَواجز التي لم يعثر لها على أثر لكوْنها من خَشَب جعلت العلماء يفْترضون أنّ العصر شَهد نوعاً من نظام بدائي لتربية الحَيوانات المُصطادة وإيناسها للتمكن بعد ذلك من الاحتفاظ بها حتى تَتَنَاسَل وتَتَكَاثَر لكي يُستَهْلَك صغارها. فقد عثر في عدّة مناطق من البُلدان المذكورة على كميات هامة من عِظام صغار الأيليات وخاصة منها الذّكور ممّا يُبعد فَرَضية الصيد المباشر لتمكن الذكور من الافلات من المصائد بسُهُولة أكثر من الاناث. وهناك فرضَية أخرى ترى ان الصّيد المُنْتَظم الذي يعطي وفرة في الحيوانات المُصطادة يضطر معها الصّيادون للاحتفاظ بها و بالتالي إختراع نَمَطٍ بِدائي لِحَبْسها ولتَرْبيتها كَرَصِيد مهمّ من اللّحم النّافع في **الفصول التي ينذر فيها الوحوش.إلا أن هذه الفرضية** تتطلب تطوراً ذهنيا مهماً لم تظهر آثاره الاّ في حِقَب ما بَعْد العَصْر الحجري.

من الأساليب الأولى للحصول على النار إدارة عود من الخشب وحكّه مع مادة محترقة كالحزاز اليابس كما يظهر في هذه الصورة المأخوذة من إحدى لقطات فيلم « حرب النار ».



ويجب التذكير في الأخير بأشكال الصيد الأُخرى التي تستهدف الحيوانات والوحوش الصّغيرة الحجم والصالحة للتّغذية اليومية في انتظار الحُصول على الوحوش العَظيمة، إضافة الى مُطاردة الوحوش الأُخرى التي لا تصلح كثيراً للأُكل ولكنها تحارب لأَغراض أَمْنِيةٍ.



اكتِشَــاف النّــار:

حين **نتحدّث** عن التّقنيات المُتداولة في الحياة اليومية للانسان القديم، لايمُكننا أن نغْفل دور النّار وأهميتها.

إلى أسفل : مظهر للحياة قرب كهف تقيه النار هَجَمَات الوُحُوش. وكان لِلنّار وظيفتان أساسيتان : طهي الطعام ودفع الوحوش وقد كانت الوسيلة الأولى التي اقْتَحم بها الانسان الكُهوف بعد أن طرد منها الوحوش التي كانت تَحْتلها.

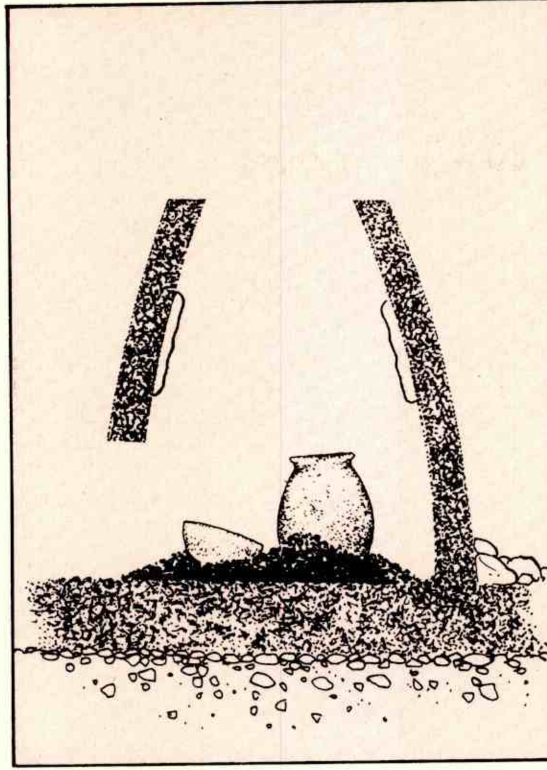


وقد نتساءل عن مصير الانسان لو أن اجداده الأوائل لم يهتدوا الى التخلّص من خَوفهم و يتمكنوا من السيطرة على النار واستعمالها لأغراضهم المُختلفة. وتَوصّل الانسان إلى هذه التجربة منذ مُمَارسَته لمُعالجة الحِجارة ليصنع بها أدوات يصطاد بها ما يقتات به او يقْطع بها اللحوم والأشياء الأخرى التي يستعملها حيث أن شظايا الحجارة الصّادرة عن احتكاكها ببعْضها كان بداية إدراك فَعَالية النّار ولهيبها ودفئها. ذلك ان نفس السيرورة الفكرية والذكائية التي جعلت الانسان يفكّر في صنع الأدوات الحجرية بعد التّحقق من فَعاليتها وأهميتها، هي التي طورت نفس الإدراك بالنّسبة للنار ومَنافِعها. وقد ظل الانسان لمدّة طويلة يقْتات من اللحم النيىء وعروق الأشجار وحبوبها قبل الإهتداء الى طريقة الطبخ والغلي بواسطة النار. ولا يُسْتغرب كلُّ ذلك في قانون تطور الفكر الانساني التدريجي الذي يجعل تجاربه تقوده تدريجياً الى الاهتداء إلى حقيقة الاشياء من أبسطها الى أعقدها.

وكما سبق ذكره فتجربة النار قد عرفها إنسان الصين المعروف برجل تشيُوكِيووتْيان منذ العصور الحجرية الاولى غير انه في أوروبا يبدو أنها قد اكتشفت قبل تلك العهود. واستعمال الانسان للنّار لا يعني انتاجها والحُصول عليها بطريقة إصطناعية. ذلك أنه يبدُو أن الإنسان بقي لمدّة طويلة يعاني من مشكلة الحفاظ على النار المحصّل عليها وبمشقّة وبالتالي كيفية الحُصول على الشرارة الأولى لإيقاد النار. **ويظهر أن الحصول على النار المُوقدة كان** مصدر نِزاعات وصراعاتٍ بين المَجْموعات قبل أن يتعلّم الانسان طريقة دعْك حجارة الصَّوَّان مع بعضها لإصدار الشّرارة الاساسية وغيرها من المشاعل الأُخرى.

وقد حدَثَ هذا التطوُّر الاخير خلال العصر الحجري المتكامل بينما الاكتشاف الأوّل للنار قد عرفَه العصر الحجري القديم.

وقد عثر على عُجَيْزات (عُقَيْدات) بِيسلْفُور الحديد من العهد المُوستيري تدل على أن الانسان قد تعلم آنذاك استعمالها كمِطرقة للحصول على الشّرارات النارية بوفْرة. وفي بلجيكا تمكّن العلماء من إثبات كَوْن قطعة حجرية تحمل آثار الدّعك والضّرب تدل على أنها كانت تُستعمل لاثارة النار. ومن الراجح أن المحروقات المُستعملة



للاحتفاظ بالنار الموقَدة والمُلْتهبة هي الخشب على الخصوص، أما في المناطق الجليدية حيث تنْدُر النباتات اليابسة فيبدو أن عِظام كبار الجِسْئيّات كانت تستعمل عِوض الحطب. وقد عثر في محطة اوسترافا بيتروكوفيس بمورفيا على بعض المواقد التي تحتوي على فحم متحجر كان بدون شك من المواقد القديمة التي كانت على سطح الأرض في خلال أحد العصور الحجرية القديمة. وكل هذا يمكن ربطه بتطورات مَلَكات الإنسان الفِكرية والذهنية واكتسابِه التدريجي لِتجارب تتطور باستمرار بفعل الممارسة اليومية.

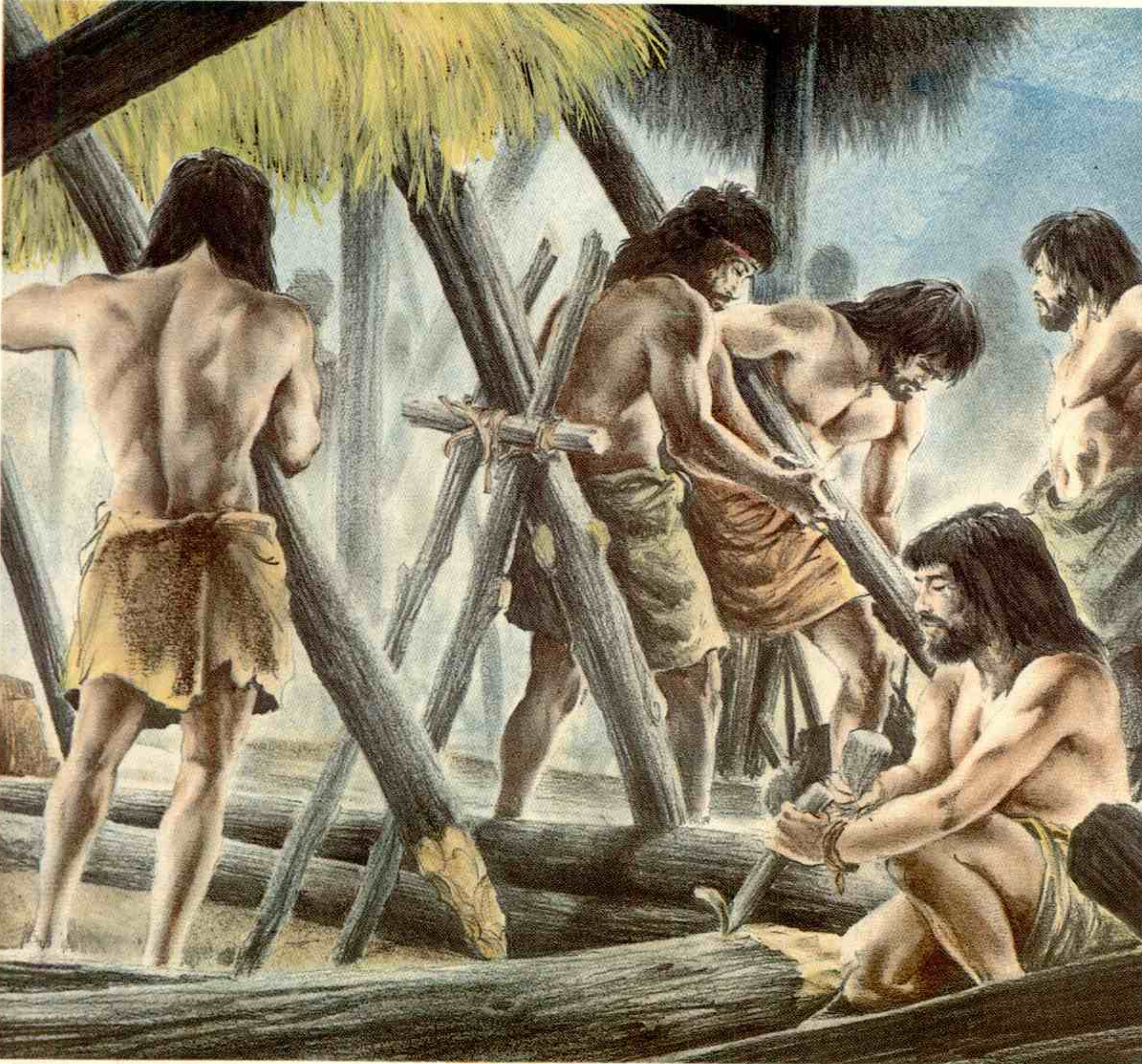
وقد سبق ان تحدّثْنا آنِفا عن احتماء الانسان من البرد ومن الوحوش الضارية لاجئاً إلى الكهوف و يظهر أن عيش الانسان داخل المغارات لم يكن لِيتمّ لولا اسْتعمال النّار كمصدرٍ للضَوء ثم كوسيلة لطرد الوحوش التي كانت تحتلها قبْله والتي كانتْ تخَافُ من ألسِنة النّار المُلتهبة. ومالِبث الانسان بعد ذلك أن اهتدى الى استعمال النار ليطبخ لحوم الحيوانات التي يصطادها ولمعالجة أسنّة الرّماح الحجريَّة لشحْذها أكثر. وفي أواخر العصر سُجّلت كذلك استعمالات أُخرى للنار منْها صِناعة بدِائية لبعض الأدوات والأواني من الطين النّاضج داخل الأفران. غير أن صناعة الخَزَف لم تظهر إلا خلال العصور الحجرية اللاّحقة.

العصر الحجري الحديث: من الخشب الى الطّين.

استخْراج المـوادّ الأوليـة ومُعالَجَتُها:

خلال العهود السابقة للعصر الحجري الحديث بدأ الانسان يتحرر تدريجياً من خُضُوعه إلى الطبيعة التي تُحيط به، محاولاً السيطرة على عناصِرها وتَسْخيرها لِخدمة أغراضه وصقْل تجاربه المتطورة باستمرار. وقد ظل مدة طويلة جداً مُنْشغلاً أكثر بالصّراع من أجل البقاء يخترع الوسائل تلْو الاخرى لحماية نفسه من الوحوش المُفترسة ولسد حاجياته الغذائية ومحاربة الجوع. ولم يكن لديه الوقت الكافي للانتباه الى الحاجيات المَعْنوية الأخرى كالشّعور بالأَبعاد الجَمَالية للأشياء وبتطوير الحسّ الدّيني والعَقَائدي

تطور التّجارة وبناء أولى المَسَاكن الحَقيقية. وقد ظهر خلال العصر الحجري الحَدِيث .



والطُّقوسي الذي قد يدْفعُه الى صنع أشياء رَمْزية في الانشغال بالجانب الرّوحي والمعْنوي مما أدّى إلى تعاطيه لممارسات من هذا القبيل. وتدخُل في هذا الاطار صِناعة الخَزَف وصَقْل المواد المُختلفة والنجارة والهندسة المِعمارية البدائية وتقنيات حديثة لمُعالجة الحِجارة ثم استعمال الطين في البناء.

وتتطلب الصّناعة الخزفية شوْي الأدوات المصنوعة من الطين على النار وتجفيفها وتجميدها و بالتالي صقْلها لتكون صالحة للاستعمال اليومي. ومن البديهي أن هذه الصناعة كانت في البداية نَفْعِية مَحْضة، استنبطها الانسانُ بحاجةِ الاحتفاظ على المواد الغذائية الوافرة ولم يهتد الى ناحِيتها الجِمالية والزُّخرفية الا فيما بعد. وظهر هذا الانشغال الجمالي أول مرة في آسيا حيث طورت تقنيات متعدّدة لمُعالجة الطين كالسّحن والصّقل وصِباغة وزخْرفة جوانب الأواني وسَطْحِها، وكلّها تقنيات طُوّرت لغرض نَفْعي هُوَ تكْتِيم الأواني لِكَيْ لا تَنْفُذ مِنها السّوائل المحفوظة بها كالماء وغيره، ولغرض جمالي هو التزْيِين.

وفي أوروبا كَذَلك ظهرت تقنيات أخْرى من هذا القبيل، ومنها مثلاً التقنية المعروفة بالبَانْدْكِيرَامِيك التي يُعْتَمَد فِيها على الموادّ الحُمَرِيَّة المُستخلصة عن طريق إحراق الخَشَب الرّطب فوق النار غير **المُلتهبة التي تُوضعُ** عليْه أواني وأشياء مصنوعة من الطين مما يعطيها لوناً أسود ناصعاً.

وكان أُناسُ العهد الحجري الحديث على العموم يستعملون في مثل هذه الصناعات المواد الأوليّة الموجودة

في الصورة اسفله :

١ ــ أسلحة من الصَّوان (متحف أوسلو)،

٢ ــ رؤوس رماح ونبال (مالتا)

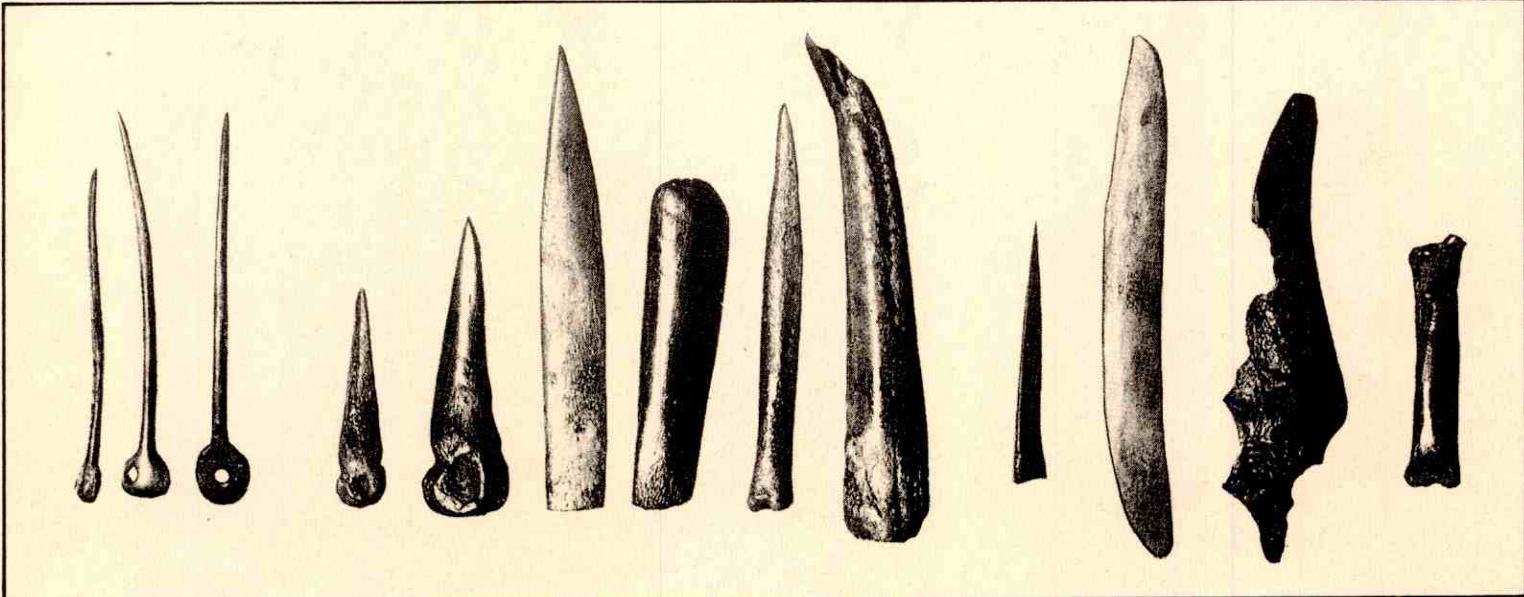
٣ ــ ابر وأدوات اخرى .



١



٣



بالمناطق التي يعيشون بها، وقد يحْدُث أنْ يَسْتَوْردوا غيرها من المواد من المناطق الاخرى التي ينْتقلون إليْها لأغراض مُختلفة.

واستعملت تقنية الطين النّضج كَذلك في بِناء بعض البيوت البدائية. ففي أغلب الحالات كان يُكْتفى بتَجْفيف قِطع الطين تحت أشعّة الشّمس للحصول على الآجر. وتطوّر بناء البيوت مع تطوير التّجارة الخشبية الأوليّة ورغم أن استعمال الخشب قد عرفَه العصر الحجري السابق، فلمْ يكن يتعدّى الرِماح المصنوعة من العصي أو مَقابض المَطارق وغيرها من الأدوات الحجرية. أمّا في العصر الحجري الحديث فقد ذهب الانسان بعيداً في استعمالاته المُتنَوعة للخَشَب بصفة عامة، فكان يستخدمه لدعم البُيُوت السَّكَنِية الأُولى؛ ثم مع تطوير أدَوَات النّجارة كالازْميل والفُؤوس والأوْتاد تمكّن من إنجاز أعمال وصناعات خشبية أكثر تطوراً جعلته مع الممارسة

مثال بدائي لتذويب المعادن مازال ممارساً في أفغانستان.

إلى أسفل : أشكال حجرية لصهر القوقعات البحرية والنهرية.







يبرهن على إتقانه لفن النجارة الخشبية في ذلك العصر، ومن ذلك ما تؤكده اكتشافات متعددة كمنْزل بأيْشْبُول الذي تَطلّب صُنْعه من ١٥٠ إلى ١٩٠ جدعاً شجرياً.

أما الاختراعات المُستحْدثة في مجال التقنيات الحجريّة التي تُميّز العصر الحجري الحديث من الناحية الاركيولوجية، فقد تجاوَزَتْ صناعة الادوات البدائية الاولى كالأسلحة والفؤوس الأولى الى الأثاث المنْزلي والتُّحف الزّخرفية والتّزْيِينية. فقد اهتدى الانسان الى الاحجار الكريمة والثّمينة النّادرة وأعطاها قيمةً خاصّة نظراً لِصعوبة العثور عليها في الطبيعة بسهولة كما هو الشّأن بالنّسبة للصخور والحجارة العادية الأُخرى، مِمّا جعله يستعملها في التّبادل التّجاري البدائي والبَحث عن الاستيلاء عَلَيْها أثناء الهُجومات والحُروب. و يَظْهر أن مجموعات من الصّانعين كانت تُغادِر القُرى بحثاً عن المواد الأوّلية اللازمة مما يجعلنا نَتكَهّن بأنَّ لهُم دِرايةً بالمَنَاجم والأماكن التي تتواجد بها تلك المواد.

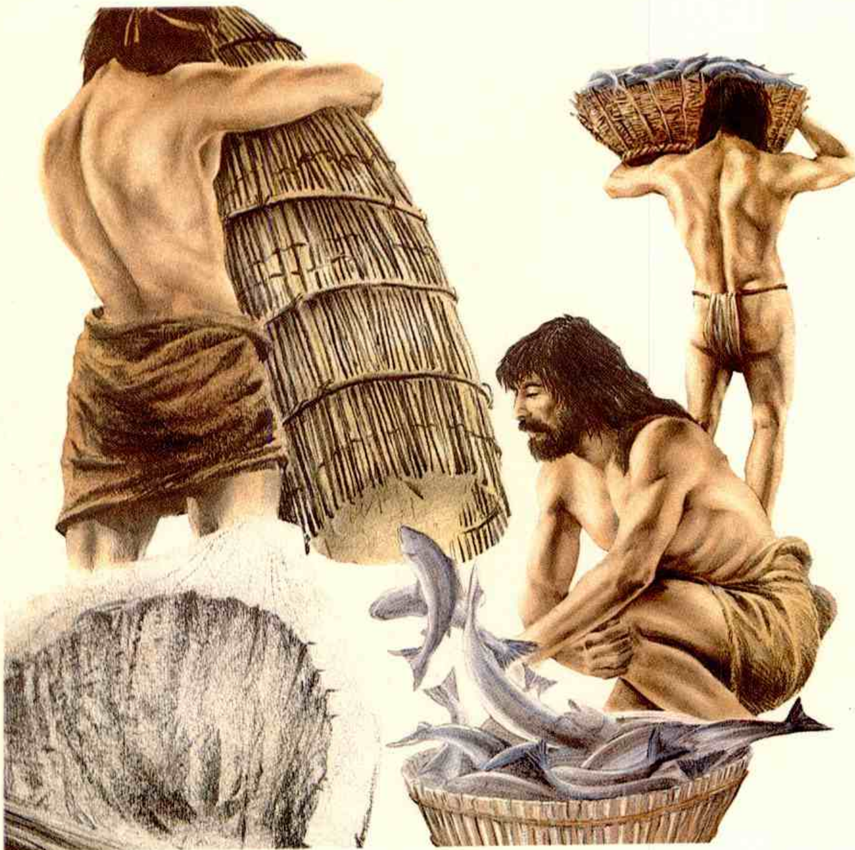
ولم تَنْقرض كُليةً تلك المناهِج والوَسَائل التّقليدية البِدائية بلْ طُوّرت في العُهود اللاّحقة حسب تَعَقُّد الحاجيات والتّقدم في الاكتشافات وهكذا فَتِقْنية اسْتعمال الشّفْرة القاطعة المُكْتَشَفَة في العصر الحجري الأوّل ظَلَّ مُحْتفَظاً بِهَا مع تَطْوير في المواد التي تُصْنَع مِنْها الشّفرات عموماً في العصر الحجري الحديث كما تنوَّعت استعمالاتها حسب الأغراض المُتنَوّعة.

أما المواد المعدنيّة فلم تحْظ في ذلك العصر بِمُعَالجة مُهمة أو استغلال كبير، رغم ما أثْبَتتْه بعض الاكتشافات من كَوْن تِقْنية التّطرق والحِدادَة المُستعملة في مُعالجة النُّحاس قدْ ظَهرت إبّان العَصْر الحجري القديم إلا أن العِدانة الحقيقية **لم تعرف الانتشار** الذي عرفتْه صناعة الخَزَف الا حوالي ٣٠٠٠ سنة ق.م بعدما أبرَزتْها ونشرتْها الثقافة السُّومَريّة.

وحاصل القول فإن العصر الحجري الحديث يمكن اعتباره مرحلةً تاريخية هامَّة في مسيرة التطور الانساني، حيث سيطر الانسان على الطبيعة وتمكّن من تحويل عناصرها لخِدمة أغراضه الحَيَاتية المادية منها والمَعْنوية الجَماليّة.

القَنْصُ والصَّيْدُ والجَنْي :

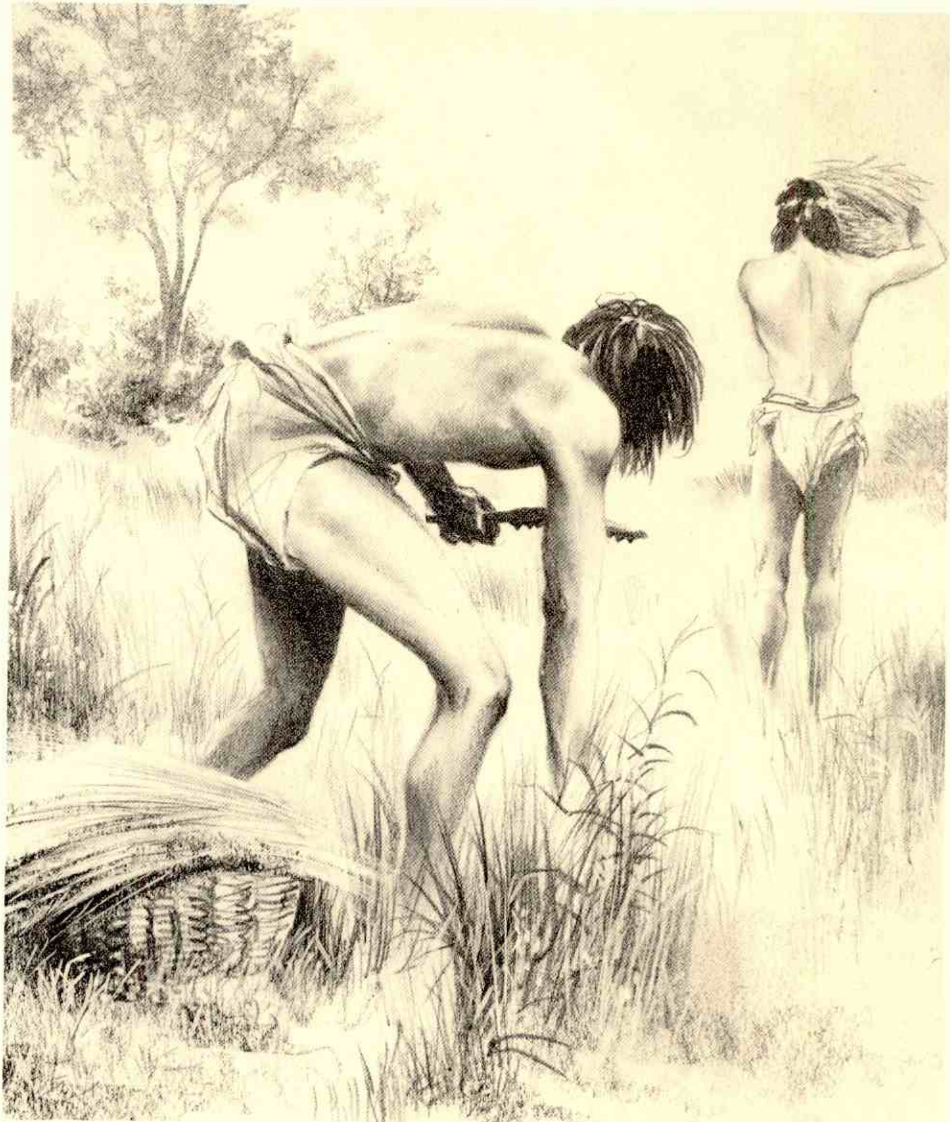
في العصر الحجري لم يتوصل الانسان بَعْد إلى تسلق الأشجار وتربية المواشي بل اكتفى بما يأخذ من الطبيعة من ثمار يجنيها وحيوانات يقتنصها أو أسماك



كان صيد الأسماك ممارساً في المناطق التي توجد بها مجاري مائية أو تكون على السواحل البحرية. وكان من الأنشطة الموازية للقفص، وكان التقاط الصدفات والقوقعات شائعا كذلك. و يتم استبدالها مقابل أشياء أخرى لكونها تصلح للزينة.

يصْطادها. فقد بقيت هذه المُمارسات التقليدية سائدة في العالم القديم ولم تتطور أساليب غيرها أما في باقي الأقطار الأخرى فهناك مناطق توصّلت عن طريق ممارسة القنص في المواسم الجيدة إلى اكتشاف طريقة حَبْسٍ وتربْية بعض الحيوانات لِلإحتفاظ بها للْفصول الصّعبة. وهكذا بقيَتْ عوامل تطوير هذا النشاط مرهونةً بالخَصائص المُميِّزة لكلّ مجموعة حسب البيئة التي يعيش فيها ومَدَى وفْرة الظروف المحتّمة للتّطْوير.

ولم يتمكن علماء الاحاثة من العثور على آثار تكْشف عنْ معْلومات خاصّة بجَنْي النباتات والثمار، و بالمقابل، فقد عثر على آثار عديدة من التقاط الانسان للرّخويّات البحرية واستهْلاكها وخاصة في عده مناطق من أوروبا وافريقية وأمريكا حيث توجد الشّواطىء البحرية او النهريّة.



أما فيما يتعلق بالقنص فلم تُسجل أي آثار بالنسبة لما كانت عليه التقنيات والأسلحة في العصر الحجري الأول، حيث بقي الانسان يستعمل النّبال والحراب والفخ والشرك والرّماح. والجَدير بالذكر أنّه طَوّر صناعة النبال بأنْ أضاف حدّاً طُولاَنياً مشحَّداً لتَسْهيل انْغرازها بعُمْقٍ في جسد الوَحْش و يظهر أنّ هذا النوع من النبال كان يستَعْمل تارة لجندلة الوحش وأخْرى لمطاردته من بعيد. وقد عثر على رسوم جدرانية مصرية وسومرية تمثل مجموعات صيادين يطاردون أُسوداً وهم يحْملون نبالاً ذات حدّ طولاني. وانتشر استعمال النبال القديمة والنبال الجديدة في الاقطار الثلاثة بينما ظلت أمريكا لمدّة طويلة بعد تلك الحقبة لا تعرف سوى الأسنة والرماح.

ومن خِلال بعض الآثار يتبيَّن أن تِقنيات القنص كانت تَتغيَّر وتَتَطور في نفس المنطقة، ففي بَابْلُوس عُثر في الطبقتين الارضية الاولى والثانية على الأسنة وحدها بينما في طبقة أخرى عثر على رؤوس نبال ذاتِ حدٍّ طُولاني.

وكانت النبال متوفّرة على جنيْحات تحملُها الرّماح كذلك واسْتُعملت هذه الاسلحة أساساً لصيْد عجْل البَحْر (الفَقْمَة) والوحوش البرّية.

وفي بعض المناطق كان الصياد مرفوقاً كذلك بالكَلْب. غير أن الآثار التي عثر عليها في هذا الشّأن لا يمكن ان تكشف عن المُهمة الحقيقية للكَلْب المُسْتَأْنس ودوره في عمليّة الصيد. و يسْتَبْعد أن يكون مدرّباً على الْتقاط الصيد والاتْيان به الى صاحِبه بِقَدْرِ ما تكون مُهمَّته فقط مُقْتصرة على اقتفاء أثر الحيوانات وإِرْشاد الصياد الى مَخابئها.

واستعملت الشباك في عمليات الصّيد البَحْري، وفي بعض المَناطق تبين أن المراكب الصّغيرة كانت كَذَلك مُسْتعملة لهذا الغرض.

ويمكن ان نستخلص من هذا الجزْء ان العصر الحجري الحديث عرف نشاط القنص حسب انواعه الثّلاثة؛ وكلٌّ منها يناسِب بعض المَناطق المُعينة دون غَيْرها كما تناسب المراحل المتعاقبة لتطوُّر التّقنيات المُتَداولة فهناك القنص الممارس لذاته فَقَطْ كما هو الشأن بالنسبة لامريكا وجزءٍ كبير من افريقيا، وهناك القنص المُرتْبط بتربية الحيوانات والزراعة وخاصّة في بعض المناطق الآسيوية

ظهرت أولى أشكال غرس الأشجار في المناطق العراقية القديمة. فمن سوريا وفلسطين انتقلت ممارسة الغرس إلى أوروبا وإفريقيا وآسيا.

وجزءٍ كبيرٍ من أوروبا وهناك أخيراً القنص المُتداول بِصفة ثانوية نظراً لسيْطرة نشاط تربية الحيوانات التي تُوَفِّر الاكْتفاء الغذائي للمربين **شأن العراق ومصر** وأوكْرانْيا وجزء من أوروبا، حيث تطوّر الحياة في بعض الاقطار كمصر مثلاً حيث أصبح القنص مجرد هِواية يمارسها الفرعنة الشّباب وأتْباعُهم.

الـزّراعة وغرس الأشْـجَار:

بالنسبة للعصور الحجرية تعتبر زراعة النباتات المُختلفة من أهم مُستجدّات التطور الفكري لدى الانسان وكما رأيْنا سابقاً، فان الانسان لم يكُف عن البحث عن الوسائل والتقنيات التي تحرره من قيود الطبيعة وتجْعَله يَسخر عَناصرها ويحولها و يتحكَّم فيها. وقد تَجاوز بالفعْل مَرْحلة العيش البِدائي حيث كان يكْتفي فقط بالصّراع من أجل البقاء محارباً الْجُوع وأخطار الوحوش الى مرحلة استقرارٍ جعلتْه يُطور تدريجياً ظروف حياتِه منْتقلا من تِقْنيات إلى أخْرى في مخْتلف المَجَالات. ونفس السَّيرورة الاسْتِنبَاطية قد قادَتْه إلى اكْتشاف طريقة زرع النّباتات ورعَايتها بَعْد أن كان يكتفي فقط بجَنْي غِلالِها. ذلك أنّ معاينته اليومية للتّجليّات التي تَنْبت كلّ يوم في مُختلف المناطق حَوْله، جعَلتْه يَهْتدي الى فكرة تجْعله يتَحَكَّم في إنْباتِها. وليس من المُسْتبْعَد أن تكون فكرة الزراعة قد

إن الكلب كان هو أول حيوان قام الانسان بتربيته وتدجينه. وقد استعمله للصيد وحراسة المخيم. ويظهر أن تواجده المتواصل قرب المخيمات المتنقلة قد أدى به إلى الاستئناس بالانسان ومعاشرته.



المرأة وسرّ استمرار الحيـــاة.

ان المرأة بطبعها كانت دائماً مجْبولة على المْيل الى تأدْية وظيفتها كأُم ترتبط ارتباطاً عاطفيا وثيقاً بأبنائها وتضحي من أجلهم بسنوات من إستقرارها وراحتها منذ ان يكونوا في رحمها الى ان يصبحوا قادرين على الاعتناء بأنفسهم. واختلاف الجنسين، الذّكر والانثى، من حيث البنية والقوة والخصائص النفسية والبيولوجية قد ساعد على تباين الوظائف الاجتماعية لكل من الرَّجل والمرأة. وهكذا انشغل الرجل القديم بالصّيد والقنص واهتمت المراة بالبيت والابناء. وقد مرّ الانسان الأ ول بمراحل شاقّة بحثاً عن وسائل البقاء على قيد الحياة، وذلك ما دفعه الى اختراع الوسائل وابتكار الانشطة المختلفة، من أبسطها الى أعقدها لتحسين أنماط معيشته، فكان أن بدأ بقطف الثمار والفواكه واقتلاع جذور النباتات ليتغذى بها مكتفياً بما توفره له الطبيعة قبل ان يتوصّل إلى وسائل اخرى يحول بها عناصر الطبيعة و يتحكّم فيها لخدمة اغراضه المعاشية. وقد طورت المرأة بفعْل تجربتها واحتكاكها بالطبيعة حسَّ الملاحظة الدقيقة ومهارة في الاشغال اليدوية ساعدت المجموعات البشرية على اكتشاف المزيد من الغلال والمزروعات وابتكار شتى انواع الادوات المنزلية الملائمة للحياة اليومية. ومازالت المرأة في بعض الاقطار تتفوق في ميدان التعرُّف على انواع النباتات وفوائدها وتمارس صناعات يدوية ذات قيمة نفعية وفنية. ولهذا السبب نتكهن بان زراعة النباتات والزروع المختلفة في العصور القديمة كانت نتيجة دقة ملاحظة النساء الأ وائل اثناء اعمالهن اليومية في الحقول في غياب الرجال في الصيد والقنص، وقد يكون فضولهن دفعهُنَّ الى تذوق أصناف نباتية لاحظن ان الحيوانات تسْتسيغها الى ان توصّلن الى فكرة زرع البدور التي اعطت اولى سنابل القمح والزُّروع الاخرى، ومع تكرار التجارب تبلْورت هذه الافكار التلقائية لتتمخض فيما بعد عنْ انظمة معاشية قارة ما فتئت تتطور.



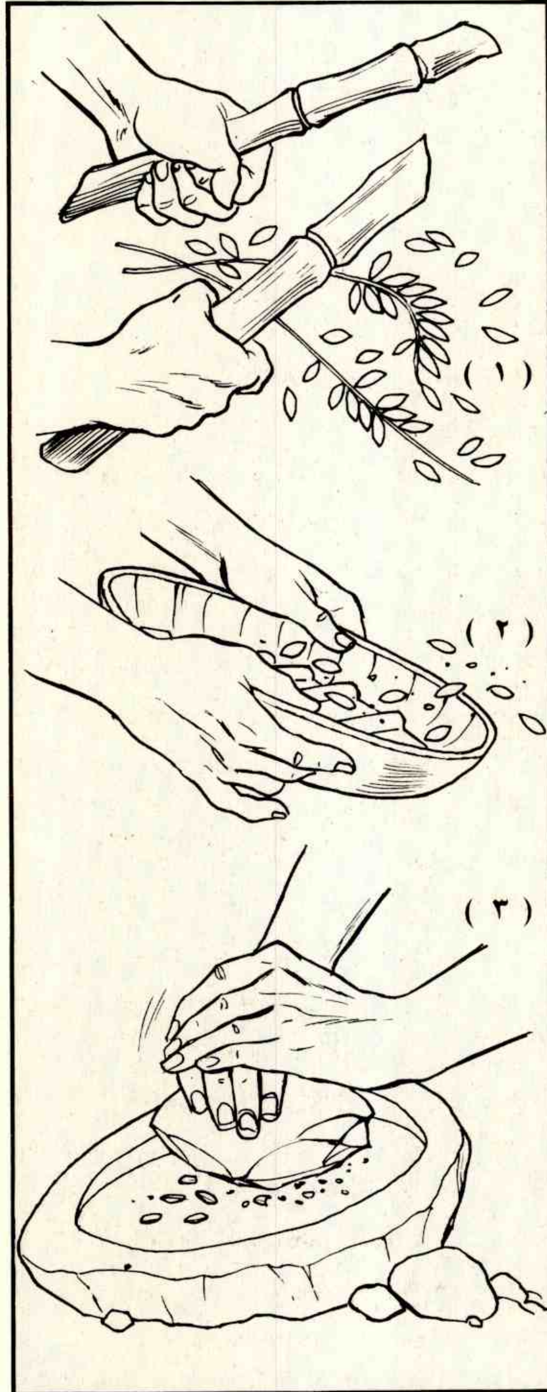
كانت الزراعة أهم اختراع في حياة الانسان القديم. ويرجع إلى اكتشاف الزروع المختلفة إلى فضول النساء اللآتي كن يشتغلن في الحقول. ويظهر في الصورة منجل من أولى الأدوات الزراعية.

صَدَرَتْ عن النساء اللآتي انْشغَلن دائماً بالطبيعة وتكاثر النباتات في فصل الربيع، فقد كانت مُهمّة جني الثّمار والْتقاط النّباتات مَوْكُولةً إليهن. ومن المُؤكّد ان تحقيق أول تجربة زراعية كانَتْ بالصُّدْفة وعنْ طريق فضول مجْموعة معيَّنة ونَتَجَتْ عن نجاح التّجربة مُحاولات اُخرى إلى أن تَرَسَّخَت وتحولّت إلى مُمَارسة واسِعة الانْتشار.

و بعد هذه الاكتشافات كان الانسان قد حقّق خطْوة جبَّارة في مَسيرة استقْراره وتطوُّر أساليب حياته. وهو في الحقيقة مَدِين بذلك التّطور الى تطوُّر فكْره ونَزَوعه إلى المغامرة وتَخطّي حدود الحَاضِر الى الآفاق المستقبلية المَجْهُولة.

وفي مجال الزّراعة، بعد أن تيقَّن الانسان من الوسائل والمناهج الكفيلة بالتحكُّم في ما يزرعه، أُعْطيت الأسبقية الى الزُّروع (كالحنطة والشّعير والذُّرة والأرُز) وهي نباتات بادر إلى اكتشافها انسان المناطق العراقية حيث كانت تنْبت سابقاً بطريقةٍ طبيعية مُتوَحّشَة.

وفي علم الاحاثة يمكن التَّحقُّق من أنواع الزُّروع والنباتات في العصور القديمة، وذلك بالاعتماد على حبَوبها المُتفحّمة وعلى آثارها في الحَمَإ والجدران الطينية التي عثر عليها في كل من الشمال العراقي وفلسطين وأناطُولْيا الجنوبية. وهكذا فقد كان الشّعير هو المَزْروع بكميات أهمّ من باقي الأنواع و يليه القاس (الحنطة الرّومية او الخندروس) ثم القمح. والمعلومات والآثار عن زراعة الحبوب المذكورة لا يمكن الحصول عليها بِسهولة، فالعلماء يعتمدون كما ذكرنا على بعض البقايا المتفحّمة وكذلك على الأدوات التي يعثرون عليها والتي تستعمل في تلك الزراعات ومنها على سبيل المثال أدوات ذات النصل القاطع والمصنوعة من حجر الصَّوَّان وهي تحمل آثارا يظهر أنها كانت تُستخدم بكيفيات مختلفة في مُعالجة النباتات وغرسها وحصْدها منذُ اواخر العصر الحجري الأول إلى بداية العهد الحجري الحديث، وقد عثر عليها بالخصوص في التلال العراقية. ومن خلال أدوات أخْرى تمَّ العُثور عليها كالجرن والهَرّاس يمكن استنتاج اًستعمالها لِقطع ودَقّ حبوب الزُّرع والنَّباتات التي قدْ تكون صادِرة فقطْ عن الجَنْي وليْس الزِراعة . غير ان هذه الفَرَضيَّة رغم صَوابها لا تلْغي إحْتمال استعمال هذه الأدوات لدقّ غلال حَصَاد الزّروع فقد عثر في عدة أماكن على أجران حجرية داخل مساكن العَهْد الحجري الحديث مما يجعلنا نَفْترض ان استعمالها كان جماعياً وأنّ لها دوراً أساسيا في اقتصاد



إعادة إنشاء لعمليات طحن الزروع قديماً:

الرسم (١) : يتم تحريك السّنابل بواسطة عصا لإسقاط الحبوب.

الرسم (٢) : بواسطة غربال يتم تخليص الحبوب من التبن.

الرسم (٣) : طحن الحبوب المنقّحة.

المجموعة السّكنية مما يُدعم فكرة وجود زِراعة جَماعية وحصادِ غلال تُدقّ في تلك الأجْران.

وهناك اًختلاف بين المناطق ذات المناخ الشّتوي و بين المناطق الاخرى التي تعتمد فيها الزراعة على المَجاري المَائية. ففي الحالة الاولى كانت الأساليب الزّراعية بسيطة و بدائية في **الحالات الثانية كان على** المزارعين في الأوْدية الطَّمْييَّة على ضفاف دَجْلة والفرات والنيل، أن يلْجأُوا الى تقنيات إقامة قَنَوات السقي اللاّزمة لجَلب الماء الى المساحات المزْروعة. وليس ذلك غريباً على إنسان العصر الذي أظْهر كفاءة فِكْره ومهارة في ميادين اخرى فتَيَقُّنه من دَوْر الماء في جعل المحصول أوْفَر وأكْثر جَوْدَة قدْ جعله يجْتَهد في البحث عن الوسائل الكفيلة بضمان السَّقي المُنتظَم لِمغْروساته. و بالفعل فَقَدْ تَطوَّرت أشكال الثقافات السّامية في المناطق التي عرفت إزدهاراً في ميدان الزراعة والسّقي ومنها على الخصوص مناطق السّومريّين والمصريين. وتظهر الأهمية الكبرى التي يوليها إنسان العصر الى الزراعة بصفة عامة في الرُّسوم المصرية الفرعونية، كذلك الرّسم الذي يمثل فِرْعَوناً يحملُ في يده فأْساً. وتتجلى هذه الاهمية كذلك من خلال الهِبَات الطقوسيّة والعناصر التّزيينيَّة المجودة في المقابر العراقية القديمة بما فيها من مناجل ومَعَاول وغيرها من الأدوات الفِلاحية.

وفي المناطق الأسْيويَّة حيث تقل التّساقطات والامطار المُنْتظمة كان اللُّجوءإلى أساليب السَّقْي ظاهرة إنتقالية. ففي جِيريكو مثلاً، عثر على بعض النباتات المِعمارية ذات تصْميم خاصّ يظهر منْه إعْدادَها لِزراعة الزَّيْتون والبَلَح وهي ثمار مُسْتوْردة من النواحي الأَردنيةَ.

أمّا في أورو با فكانت الزراعة على نفس التّمو الذي كانت عليه في آسيا وقد تكون انتقلْت اليها عن طريق الجَماعات المُهاجرة من العراق ومصر، وقد تطورت بالخصوص في اليونان والمناطق البلْقانية و بلدان الدّانوب.

و بالامكان منْ خِلال حبوب لقاح النّباتات ان يُعرف المكان الذي تمَّت فيه زراعة الزُّروع التي تخْتَلف من حيث الخَصائص والتَّكوين عن الحبوب التي تنْبث بشكل متوحّش وعَشْوائي في الطبيعة. وانطلاقاً من مثل هذه التّجارب يمكن استخلاص كَوْن بعض المناطق الأ وروبية عَرفت الزّراعة في أوْج العصر الحجري الحديث اي قبل البانْدكيراميك وسِيَراتْ وشَاسِي المُنْحدرات منها.

وتجدر الاشارة الى ان منطقة أوكرانيا كانت تعرف انتشاراً واسعا لزراعة الذُّرة البيضاء (الدُّخن) من بين أنواع الزروع الأُخرى. وبما ان الذّرة البيضاء انتشرت كذلك في **كل من أفغانستان والهند فمن المحتمل أن تكون أرض** الصين هي التي اكتشفت فيها زراعة هذا النوع من الحبوب، غير أننا لا نتوفر على اي اثر أوْ دليل قد يؤكد هذا الافتراض، وعليه فيمكن القوْل بأنّ هناك تنقّلاً للمجموعات البشرية التي حملت هذه الزراعة من مكانها الاصلي إلى اورو با عبر أوكرانيا مما يدعّم الفرضية التي ترْجع أصل الزّراعة الأ ورو بية والأسيو ية الى منطقة واحدة وهي العراق القديم.

أما بالنسبة لقارة أمريكا فان نُقطة الاشعاع في هذا الميدان كان مُمثَّلا في منطقة المِكْسيك والمكسيك الجديد

١٠,٠٠٠ الحجري القديم الأعلى	الإنسان العاقل
الحجري القديم الاوسط	إنسان نَيندِرْتال
١٠٠,٠٠٠ الحجري القديم الاسفل	الإنسان المنتصـ
١,٠٠٠,٠٠٠	الإنسان الحاذق

في الرسم مختلف تقنيات العمل خلال العصر الحجري.

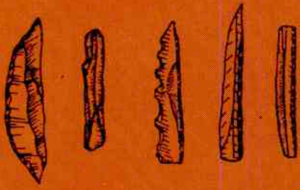
حيث كانت زراعة الذّرة منتشرة الى جانب القرع والإجّاص والفلفليّات. وقد أستطاع العلماء أن يُثْبتوا حُصُول زيادةٍ في حجم السَّنابل وكَثَافتِها ممَّا يُظهر على أن الامر ليْس من قِبيل الصُّدفة وأن الانسان قد فطن بالفعل الى وسائل صيانة المزْروعات والاعتناء بها وأنه كان يخلّص السَّنابل من الاعشاب الضّارة التي تَعُوق نُمُوَّها. وهكذا إلى ان وَصَل إلى الانتاج الأفْضَل. ومع ذلك فلم تُعْط الزّراعة بأمريكا نفس النتائج الحَسَنَة التي تُعطيها زِراعة آسيا وأوروبا.

والى جانب الزراعة المنتشرة في المناطق الاوربية الأسيوية والافريقية الشمالية ظهرت كذلك وسائل صِيانة وَخْزن المواد الغَذائية لاستهلاكها خِلال الفصول الباردة أو الهزيلة. واستُعمل لذلك الهْري وسيلة لحِفظ الغِلال وقد وجد من هذه الحُفر عدّة نماذج مختلفة الاحجام والاشكال في كل من الفيُّوم ومارْميدا وتلّ حسّونة وغاسُول وجيريخور وهَورْفات بِيتر وغيرها من المناطق.

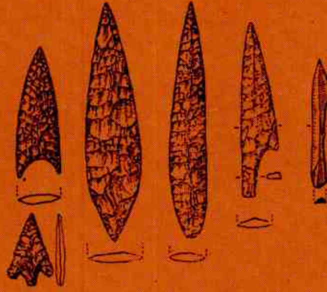
ترْبيَـة الحيـوانـاتِ وتدْجينُهـا

في البداية يجب التّميز بين تربية الحيوانات وتدْجينِها وبين ترويضها وتأنيسها. فاصْطياد بعض الوُحوش كالأيلات وحبْسها من الممارسات التي عرفَتْها أوروبا منذ العهد الحجري الأول، بينما تربية وتدجين الحيوانات بالمعنى الصحيح والذي يقتضي عيش الحيوانات طول حياتِها في أماكن مُسَوَّرة لم تظهر الا في العهد الحجري الحديث.

صناعات أدوات القطع













صناعات الرقائق الحجرية











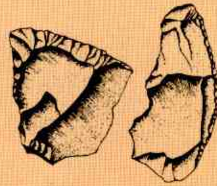


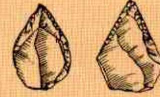




صناعات الشظايا الظرّانية







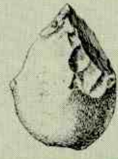




صناعات الادوات الحصويّة







ومهما كان الأمر، فعملية حبس الوحوش أو تأنيسها تكشف عن نفس الانشغال عند الانسان وهوضمان التغذية الكافية بأساليب اخرى غير مطاردة الوحوش والمخاطرة والتنقل بحثاً عن الصيد. وهذا الانشغال نفسه هوا لذي قاد الانسان الى ممارستين متوازيتَيْن كان استقراره مرهُوناً بهما وهما الزراعة وتربية الحيوانات الصالحة للاستهلاك.

وقد اثْبتَت ابحاث أُجريت حول عِظام الحيوانات التي عثر عليها في مُختلف الاماكن أن حيونات داجنة من العهد الحجري الحديث كالماعز والغنم والبقر تَتناسب وأشكال أخرى من نفس فصيلتها بقيتْ على طابعها المتوحش ومنها الأرْو ية وأرْخص (الثّور البرّي).

وقد أجريت أبحاث مماثلة في عدّة أقطار واستَنْتَجَت كلُها أن الماعز والغنم كانا متوفرين بكثرة في المناطق الأسيوية حيث عثر على آثار تدل على أن قُطْعانها كانت من المصادر الاقتصادية هناك.

وأكَّدت الاكتشافات المجردة حول بقايا عظام في عدّة مناطق محيطة بِبحر قزوين احتفاظ السكان على إناث الحيوانات التي تعطي اللّبن كالماعز والغنم إلى ان تبلغ أكبر سنّ مُمْكن، بينما يتمّ ذَبح صغار الذّكور وهمْ في سنَواتهم الأولى. وفي مصر حاول الانسان تربية حيوانات اخرى غير الماعز والغنم كالحمار والغزال لكنه لم يفلح إلا بالنسبة للحَيوان الأَول. وتوصّل انسان العراق الى اضافة الخنزير والبقر إلى الغنم والماعز. أما في منطقة الباندكيراميك فقد انتشرت تربية الأبقار الصغيرة الحجم التي تختلف عن النماذج المتوحشة التي كانت تعيش هناك، ذلك ان أوروبا لم تعرف بعد الماعز والغنم على أشكالها المتوحشة. وانطلاقاً من المتحجرات العظمية التي عثر عليها في الطبقات الترابية بالمنطقة التي تكشف عن وجود تربية للحيوانات وتأنيسها بِبَتْر قرونها، فإننا نُسلّم بالفرضيَّة القائلة بنَقْل قُطعان من الحيوانات الدّاجنة من آسيا إلى أوروبا.

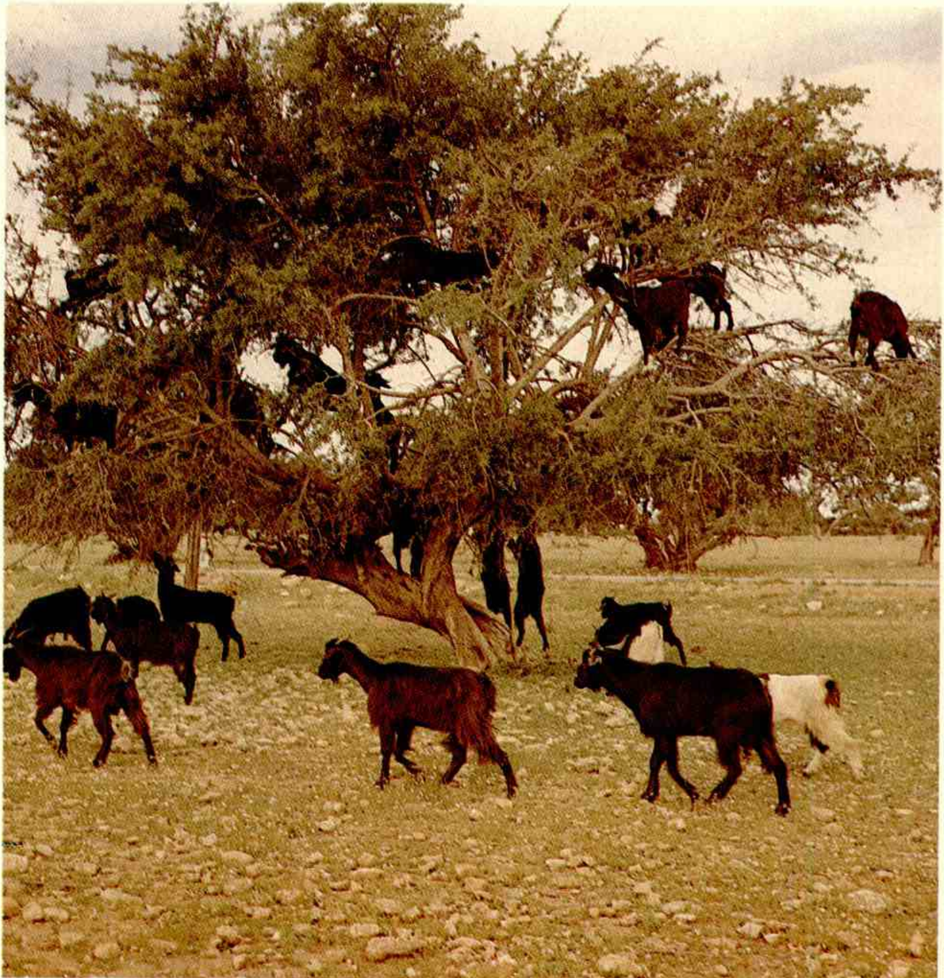
وفي أوكرانيا كذلك كانت الابقار الصغيرة الحجم متوفرة بكثرة وكانت الحيوانات الدّاجنة ترْعى في الأراضي المُعشبة الواسِعة مما سهّل تزواجها الى ان تمخضت في الأخيرعن الجنس الأصلي والحقيقي.

أما في آسيا الشرقية فكان السّكان يربون البقر المُحدّب في حين تبين من بعض الأُحْفُورات العظْمية وجود العديد من انواع الخنزير المنتمية إلى العهود السابقة لِحقبة الباندكيراميك بأوروبا.

ولم يتبين من بقايا عِظام الخيْليّات التي تم العثور عليها أن العصْر قد عرف تربية الخيول وتأنِيسَها والتي لم تظهر الا خلال الحقب التاريخية.

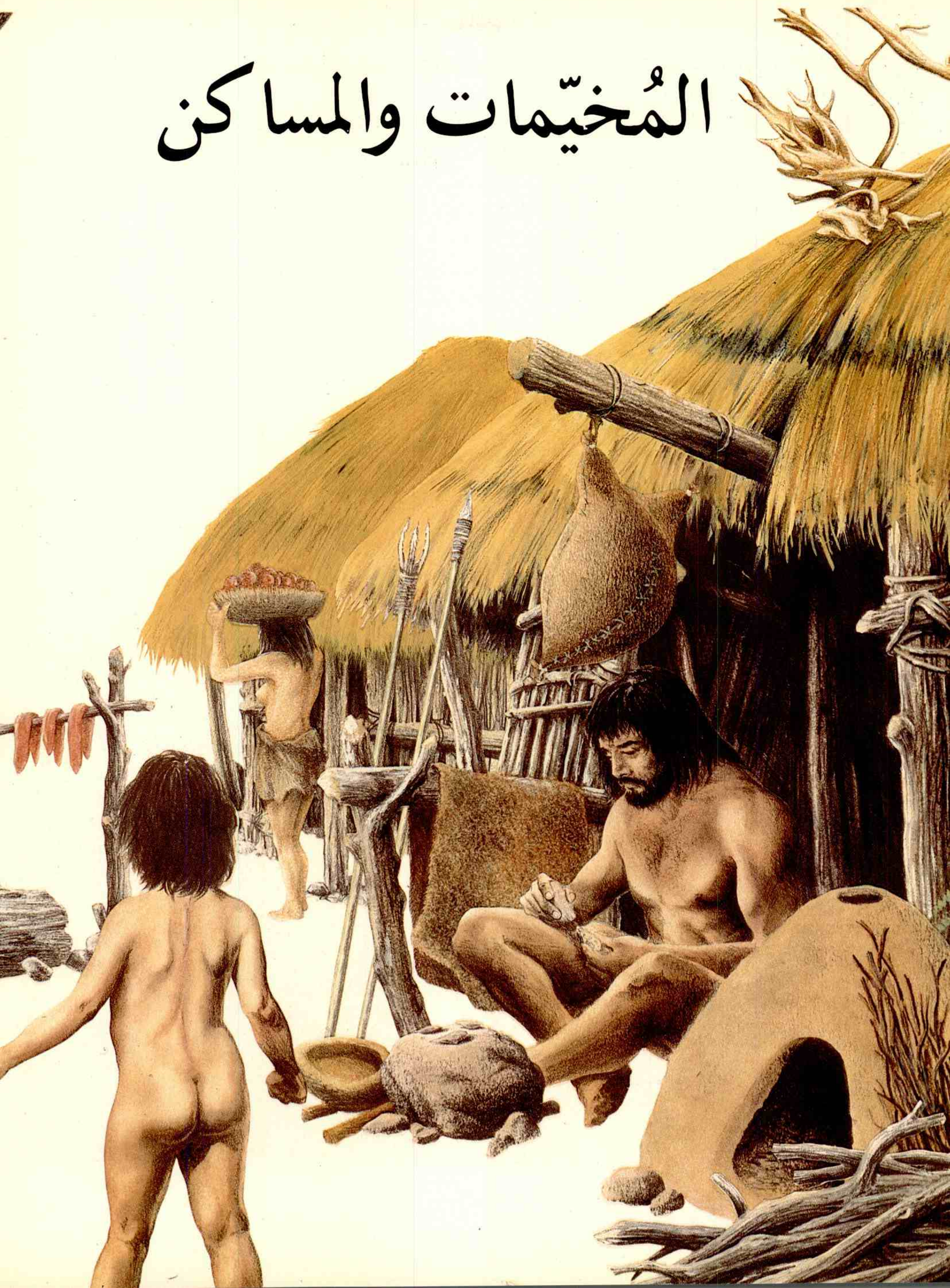
أما عن طريقة تربية الحيوانات وتأنيسها فهناك احتمالان:

فمن خلال آثار الحِباكات يفترض أن الحيونات كانت محبوسة في حَظائر خاصّة. الا ان التّزاوجات التي سبق ذِكرها تفترض ان الحيوانات كانت متجمعة تحت مراقبة أصحابها. أما الكميات الكبيرة من روث الحيوانات المتَحجّر التي عثر عليها وسط الاماكن السَّكنية، فتجعلنا نفترض أن الحيوانات الداجنة كانت محبوسة في **داخل البيوت أو قربها أو على الأقل أثناء اللّيل إذا كانت ترعى في الهواء الطّلق نهاراً.**



من الحيوانات التي كان تدجينها سهلا الغنم والماعز. وقد حاول الانسان تربية الغزلان والبقر والحمير ولم يتوصل الانسان إلى تربية الخيول إلا فيما بعد.

المُخيّمات والمساكن

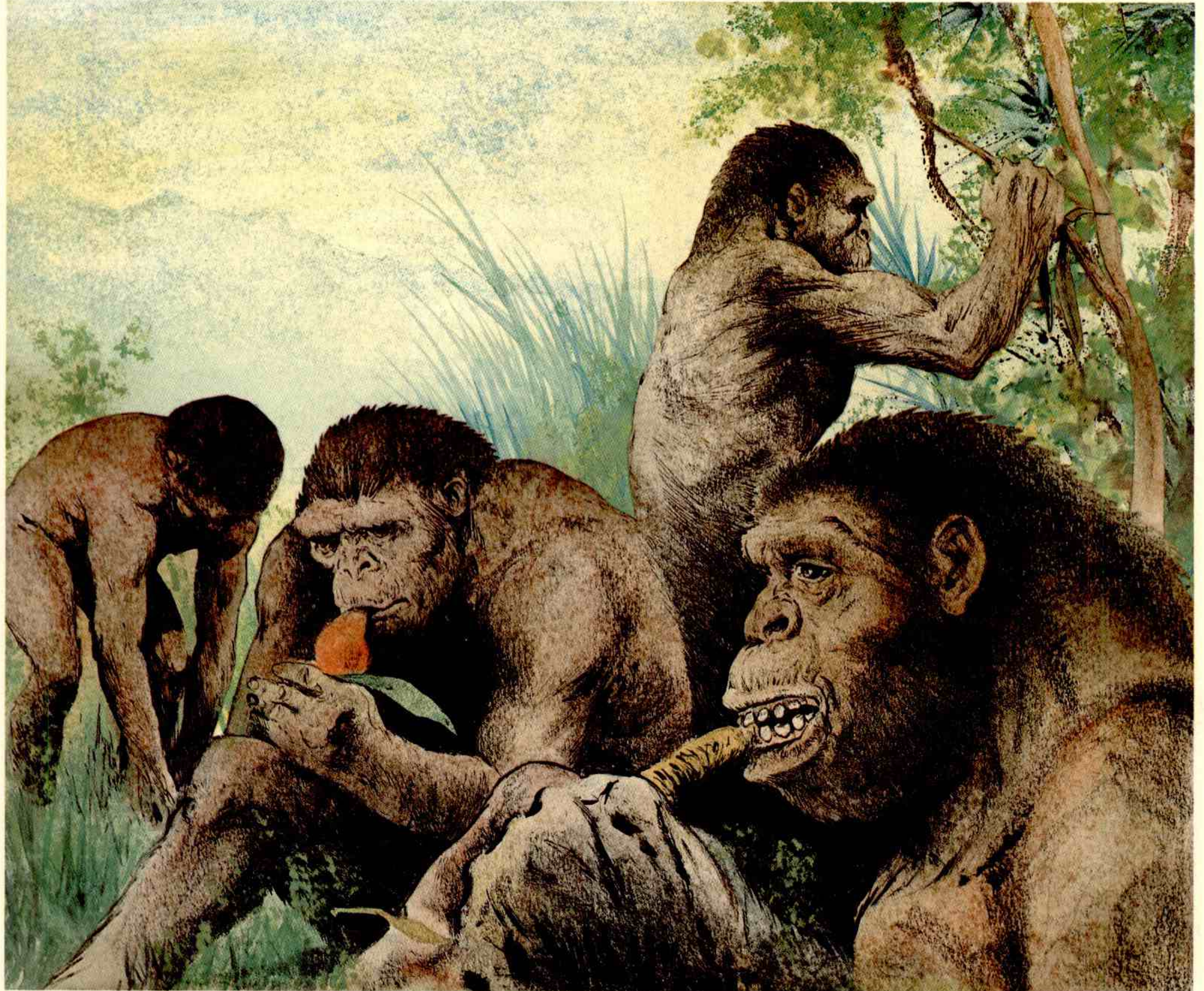


العصر الحجري : كومات أغصان وكهوف

التَخِييم في الهَـوَاءِ الطَلـق :

بالنسبة للحِقب القديمة من العصر الحجري لا يمكننا تقديم فَرَضِية صحيحة تتعلق بنظام التخييم السكني.

وَكَوْن أغلب الآثار المُكْتَشَفة قد تَمّت بِجانب المجاري المائية وبالنَّظر الى بعض مظاهر الحياة البِدائية التي مازالت عليها القبائل المتخلفة في بعض مناطق أستراليا والأمازون، كلُّ ذلك يجعلنا نفترض أن إنسان العصر



الحجري الأعلى كان يحتمي بما توفّره له الطبيعة من عناصر كأغصان الأشجار أو الطين.

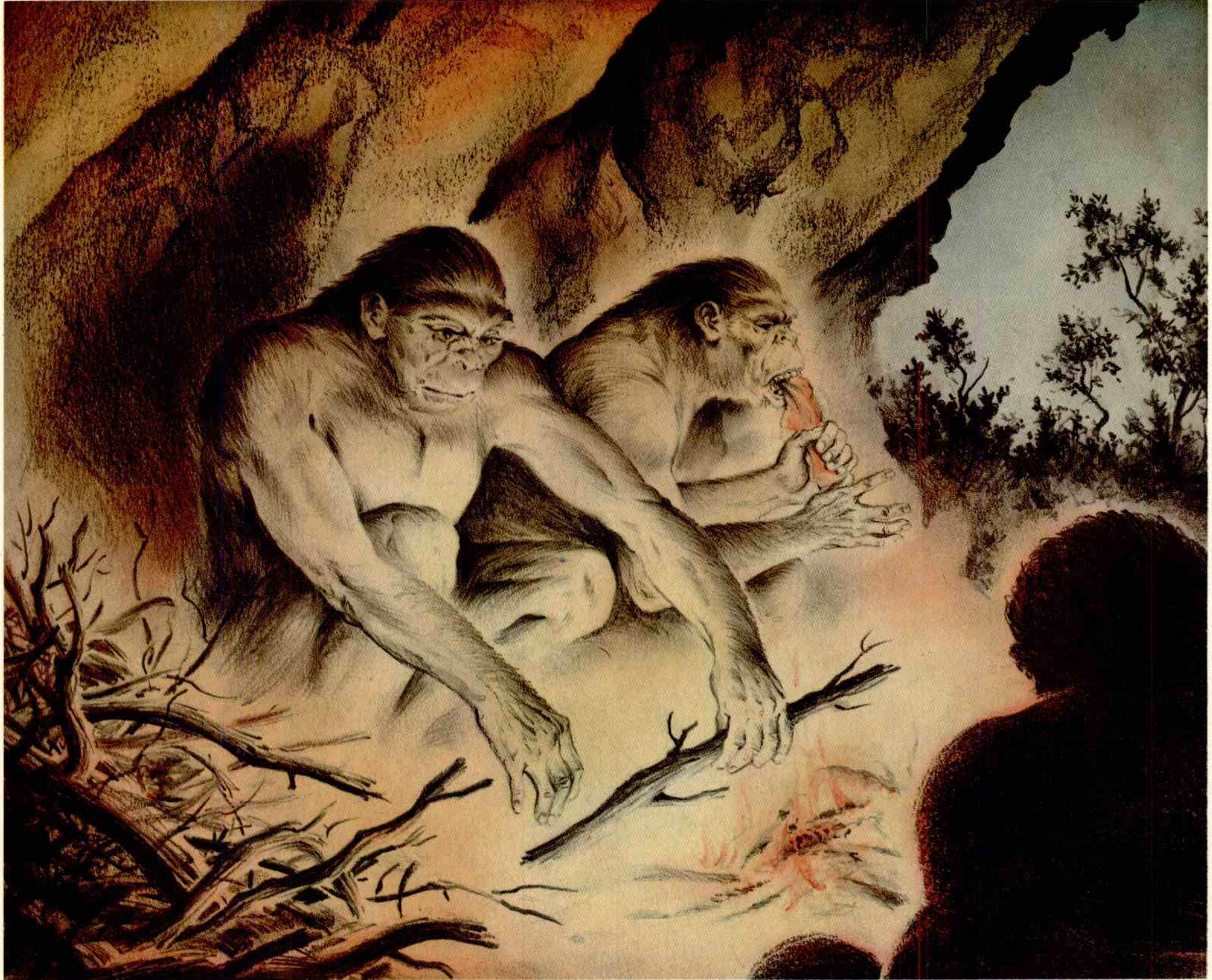
اما فيما يتعلق بالحقبة الموالية للعصر الحجري الاعلى فهناك بعض المعطيات المادية التي تدعم الافتراضات المطروحة. فقد وجدت عدة ركامات من الحجارة الضخمة منضَّدة على شكل دائري او مُسْنَدة إلى جنبات الصخور الكبيرة كما وجدت عظام الماموث مستعملة بمثابة دَعَائم وأوتاد لرفع النباتات الضخمة التي تتخلّلها قُضْبان خشبية وقِطع جلود حيوانية.

مأوي تحت الصخر وبجانب الجدران الجبلية، كانت بمثابة وقاية أولية أعقبتها اجتهادات أخرى.

وكانت المناطق القريبة من مجاري المياه محبَّذة لاقامة مثل تلك المساكن البدائية. وغالباً ما تفضَّل الضَفاف العالية على الضَفاف السُّفلية.

ويتوفر العصر الحجري الأعلى على بقايا مساكن في عدّة بلدان أوروبية وفي سيبريا، إلا ان هذه الآثار لا تمكننا من إقامة دلائل على انحصار الثقافات البشرية في تلك المناطق المحدودة أوْ أنّ هناك أنظمة سكنية انتشرت في مجموع المناطق الاوربية الاسيوية ولا نملك بشأنها اي دليل.

وفي بعض الحالات كانت المساكن تقام تحت سطح الارض. ففي تيمونوفْكا وأوكرانيا عثر على ستة حفر مستطيلة يصل طولها الى عشرة امتار وعمقها ثلاثة امتار



وعرضها ثلاثة أمتار ونصف، وتحمل جدرانها آثار تغطّية خشبية ومنزلاً يضم اسرة واحدة. وقد وجدت في إحدى هذه الحفر بعض الآثار الحجرية يتبين منها أن المسكن كان عبارة عن معمل صغير. وفي جدران كل الحفر وجدت ثقوب صغيرة ذات مراكن يبْدو أنها كانت مُعَدّة لحِفظ الاطعمة. ووجدت حفر مماثلة في كل من كراسنوجرارسك ولانفمانرسدورف بالنمسا، وكانت منافذها مُرتفعة بالنسبة لسطح الارض لتوسيع مجالها الحيوي. وكانت **المواقد والأماكن التي تُذْبح فيها الحيوانات المصطادة** ومعامل صناعة الادوات والاثاث مُقامةً خارج المساكن.

ولم تكن هذه الانواع من المساكن هي المنتشرة بكثرة. فعموماً، كانت المساكن ذات اسسٍ معمقة في الارض بعض الشيء ولكن الى جانب ذلك الاسلوب في البناء هناك انماط سكنية أخرى تختلف حسب المناطق او في نفس المنطقة بما فيها المساكن المبنية مباشرة على سطح الارض دون حفرة أساسية. و بطبيعة الحال لم يبق من الآثار السكنية الا الحفر التي تَتَباين أشكالها باختلاف الخصائص المحلية لكل منطقة. وهناك بعض النماذج السكنية على شكل رَدَهات حَجَرية مُدَعَّمة بالطين الى تبليط جُدرانها بالكِلْس.

ويمكن ربط اشكال ومقاييس المساكن المختلفة بما فيها الأكواخ والمنازل النصف حفرية بعدد الافراد الذين كانوا يعيشون بها. فمن المحتمل ان تكون المساكن النصف حفرية الواسعة تأوي مجمعات أسرية وذلك ما يُستنتج من مجموعة المواقد المُتراصفة والتي قد يكون كلّ موقدٍ منها خاصّاً بمجموعة أسْرو ية مُعينة.

وفي مورافيا وسلوفاكيا عثر في قاع الحفر السكنية على ثقوب طولانية يظهر انها كانت مُعَدّة لايواء عارضات خشبية تدعّم السقف. وفي بعض الحالات توجد ثقوب مماثلة خارج الحفرة قد تكون صالحةً لمدّ السقف على شكل مُنْحَدَر الى الارض وفي هذا النوع من المساكن الموجود خاصّةً في البلدان الباردة كان السّقف مغطى بعظام الماموث المسَطّحة وغيرها من المواد الأخرى.

وقد استُعملت عظام فخد الماموث المُغرز في التراب والمُثبّتة بالحجارة لبناء الاكواخ على سطح الأرض. ففي تورانجيا بألمانيا عثر على عدة حفر مستديرة معدة لوضع العارضِات الخَشَبية الرّافعة لسقف كوخ على شكل مُقَبَّب. ورغم متانة هذه المساكن فلا يمكن اعتبارها في الحقيقة منازل بالمفهوم الحقيقي لهذا المُصْطلح. ذلك أنه من المُسْتَبْعد ان يكون أناس العصور الحجرية متوفرين على الأدوات اللّازمة لبناء الجدران والسُّقوف المُسْتقلة عن بعضها كما هو الشأن بالنسبة للمنازل الحقيقية.

وفيما يتعلق بانشاء الاكواخ، فنظراً لغياب الآثار الشاهدة على ذلك فاننا لا نتوفر سوى على بعض التخمينات والاجتهادات انطلاقاً من بعض المُعطيات الهزيلة. فهناك بعض الفرضيات تؤكد على استعمال الحباكات لحصر المنطقة السكنية وعزلها. و بالمقابل هناك شواهد اثرية تكشف عن بعض الانشطة الدينية والطُّقوسية او السحرية واعتمد في ذلك الاستنتاج على تماثيل نسائية عثر عليها قرب المواقد وخارج الاكواخ وقد تكون لها وظيفة روحانية، و يظهر ان ازدواجية التمثال النسائي والموقد دليل على أهمّية المرأة داخل البيت واهمّية الموقد بالنسبة للعشيرة. وسنتعرض لهذه المظاهر الثقافية في الفصول اللاحقة.

وكما ذكرنا سابقاً كانت مجموعات الصيادين تقيم في نفس الاماكن التي كانت تُؤمّن لها غَذاءَها بصفة مُنْتَظِمة عن طريق الصيد الوافر. فصيادو الايليات والماموث كانوا يقيمون في المُخيّمات المَكْشوفة والمُتَفاوِتة المقاييس لمدّة طو يلة وقد يقضون السنة في نفس المنطقة حين يكون الصيد موجوداً بها طوال تلك السنة ومن المؤكد ان الأمر يتعَلّق بنوع آخر من المساكن المؤقّتة التي كانت تقام خاصةً في فصل الصيف حيث تكثر قُطْعان الأ يّليّات والفيليّات التي تستقر هناك أثناء رَحَلتها المَوسمية.

المَغارَاتُ والكُهُوف :

بدأ الانسان في الاستيلاء على الكهوف والمغارات في أواخر العصر الأدنى. وقد انتقل الى هذه المرحلة بعد ان كان يخيم في الهواء الطلق ويحتمي بالصّخور، و يظهر أن لُجُوءه الى وسائل احتلال الكهوف وطرد الوحوش تَمّ بعد سيطرته على النّار واستعمالها. غير أن مجرد اكتشاف النار لا يُبرّرُ في الحقيقة هذه الخطوة الجبّارة في حياة الانسان الاجتماعية. ويمكن افتراض إقدام الانسان على الاستيلاء على تلك المَغَارات كان نِتاج تطوُّره الفكري الذي جعله يُدرك في الاخير ان بإمكانه التّغلُّب على الوحوش والتفوّق عليها. واقترنتْ هذه الفكرة أيضاً بِنُزوع الانسان الى تطو ير وتحسين ظروف حياته بما فيها جانب السَّكن، اضافة الى

احساسه بالقدرة على تحويل وتكييف عناصر الطبيعة لتحقيق هذا الهدف.

وفي تشيووكيووتْيان حيث عاش إنسان الصين وأحفاده تبين من خلال بعض الاكتشافات ان الكهوف كانت تأوي الانسان طوال الشهور الخريفية الباردة. وكانت المواقد تقام خارج الكهوف حيث تلعب دَوْرَيْن أساسين وهما طهي لحوم الحيوانات المصطادة ودَفْع الوحوش عن المغارة.

وعثر في مغارة مَلكَابَا نْسْغَات بإفريقيا على نوع من المواقد المرتفعة عن الأرض **تدل** على بداية ترسُّخ فكرة الاستقرار عند الانسان منذ حِقب العصر الأدنى.

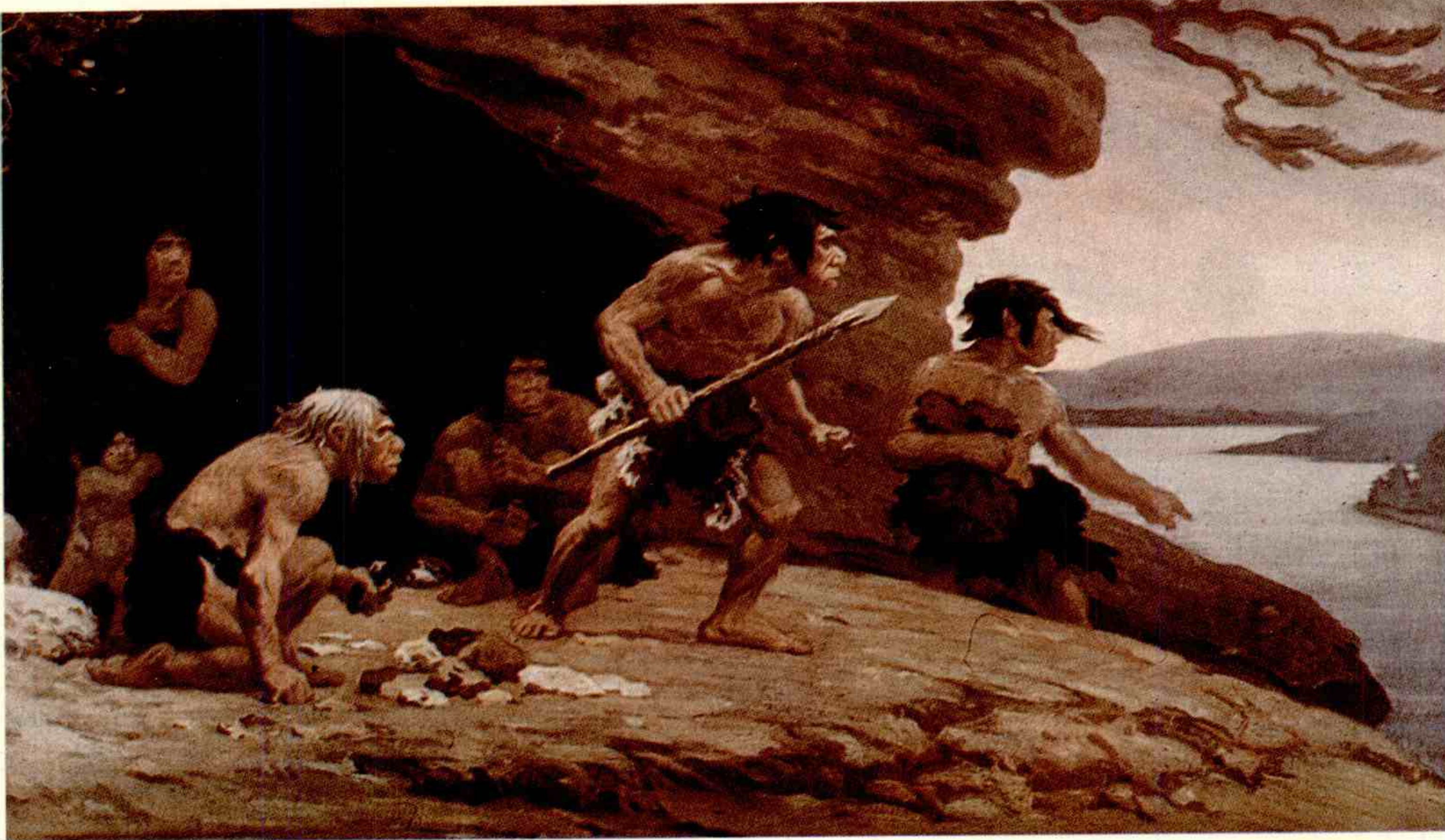
وشهدت أوروبا ظاهرة احتلال الكهوف في نفس العهد، وقد عثر في بعضها على حجارة مُسطَّحة كانت تُستعمل إما كَمَقَاعد أو كَسِنْدَانَاتٍ لمعالجة القِطع الصَّوَّانية. واكتشف في أوروبا كذلك مغارات واسعة على شكْل دَهَاليز يصِل طولها احيانا بعض الكيلومترات، و يعتقد انها كانت بمثابة أماكن طقوسية لما تَحْمله جدرانها الدّاخلية من رسوم تذكر بِمَعابد حقيقية يقيم بها السَّحَرة أو رجال الدين او الرسامون المهرة دون غيرهم من باقي الاهالي. ولا يظْهر ان الرسوم والأصْباغ الخارجية الأُخرى **قد وضعت لأغراض تَزيينيّة مَحْضة.**

وانطلاقاً من الدّراسات الطّبقاتية التي قام بها الجيولوجيون داخل تلك الكهوف، تبيَّن ان نفس المغارات كانت تستعمل دائماً و باستمرار مما يؤكد على أن اللجوء اليها كان من التقاليد الثقافية لدى أُناس العصر، ومن خلال وفرة الآثار الانسانية المكْتشفة بها فقد تكون مُعدَّة لاستقبال الصيادين بانتظام في مختلف المواسم أثناء مطاردتِهم للأ يليات والفيليات، و ينْدُر أن تكون هناك كُهوف للاقامة الظَّرفية المُؤَقَّتة.

العصـــر الحجـري الحـــديث :

تميَّزت مساكن العصر الحجري الحديث على العموم بِتضاعف في سعتها إلى ان تكوَّنت قرى حقيقية مُحاطة باسوار واقية.

تحسنت ظروف عيش الانسان بسيطرته على النار واستعمالها، وقد مكنه ذلك من الدخول إلى الكهوف بعد أن طرد منها الحيوانات التي كانت تحتلها والتي ترهبها ألسنة النار وتبعدها عن المغامرات.



وبالنسبة للمَشْرق تعتبر المساكن المقامة في مختلف المناطق من أقدم ما ظهر في تاريخ الانسانية. وكانت هناك بيوت دائرية الشكل من الحجارة ومن الطين وذات قاعة واحدة. وشيئاً فشيئاً بدأ الانسان في بناء المنازل المربعة الزوايا التي تضاف إليها بيوت داخلية أخرى. ومن أهم مميزات المنطقة الشرقية إقامة المساكن المعروفة بالتلال: وهي بيوت من الصّخر وبسقْف مُقَبب من الطين، وعلى مستوى هذا السّقف تبنى بيوت اخرى إلى ان تصل إلى مستوى علوّ الجدار الصّخري، وهكذا نجد بعض البِنايات المُتَرَاصَّة في بعض التلال يصل علوُّها ما بين ٢٠ و٢٥ مترا.

وهناك مساكن أخرى مَبْنية من الطين على شكل قطع الآجر المجفَّف في الهواء الطلق، واحياناً تستعمل تقنية الطين المْمزوج بالتبن والتراب المدْكوك. فبالنسبة للتقنية الأُولى يُمْزج التبن بالطين المُبَلّل و يبلط على شكل طبقات توضع الأولى الى أن تجف وتوضع عليها الثانية. اما تقنية التراب المدْكوك فإن الطين المبلل يوضع بين جِدارين خشبَيّين يضْغطَان عليه أن يجف ويتماسك.

وخلال الحِقب الاخيرة من العصر الحجري الحديث أولى الانسان عنايةً كبيرةً بالمجال الدّاخلي للبيوت المَبْنية، فكانت رَدْهَتُها مبلطة وفي بعض الاحيان مطْليَّة بأحْدى الألوان. اما الجدْران فكانت تزيَّن بالرُّسوم والنُّقوش التزْينية او الطُّقوسية والثَّقافية. وكان السَّقْف مدعَّماً بأعمدة منْقُوشة بفَنّية وإتقان. وكانت القاعات الكبيرة داخل البيوت المُسْتَعْملة للسَّكن بينما المَحلاَّت الصَّغيرة تُسْتَعْمل كَمَخازن أو كَمَعامل. وكانت ذات مواقد كبيرة غالباً ما تكون رباعية الزَّوايا. واكتشف في عدة قرى من ذلك العهد مَهارس كبيرة يظهر أن استعْمالها كان جَمَاعياً. ومن خِلال نماذج تزيين البِنايات المختلفة أمْكن

الصّورة لِهَيْكل هاجياركيم بمالطا وتظهر منه قدرة أجدادنا خلال العصر الحجري الحديث على البناء الضخم.

التمييز بين بيوت السَّكن و بين الاماكن المُعَدَّة للعِبَادات والطُّقوس السِحرية وغيْرها من الممارسات الثقافية الأخرى. وأخيراً فإن أبْواب تلك البيوت فَنَادِراً ما كانتْ تُفتح على مُسْتوى الأرض بِقَدْر ما كانت عبارة عن فتحاتٍ في السَّقف أو على الجدران.

ومن خلال بعض البقايا السَّكنية التي عثر عليها في جيريكو، تبيَّن ان هناك جِدَاراً يبْلغ سمْكه ١,٥ مترا وعُلُوُه ثلاثةَ أمتار يحيط بقرْيةٍ كبيرة، وحوْل هذا السُّور حفر خندق عمْقه ثلاثة أمتار وعرضه تسعة، ،و بحِداء الجدار هناك بُرْج مَخْروطي علُوُه تسعة أمتار وقُطْر جِدعه تسْعة أمتار في قاعدته.

وقد عثِر على أنواع أخرى من البنايات المُعْتمدة على الآجر والتُّراب المَدْكوك والطين الممزوج بالتبن وعلى مساكن من نموذج التلال في كل من مصر وسوريا والعراق واليونان. وفي هذه المناطق الجغرافية كذلك ظهر أن هناك تقدماً في التقنيات البنائية في أشكال و وظائف المَبَاني كالأسوار والمخازن والمعابد.

وعرفت حقبة النَّاقادا في مصر تطوُّراً مُهماً في هذا المجال حيث ظهرت بِنَايات ضخمة جدّاً ومتراصَّة بالاضافة الى قصور الآجر ولو أنها ليستْ بمفهوم القُصور الحالية. أما في العراق فإلى جانب تقْنيات البِناء المعروفة في العهود السَّابقة عرفت حِقبة الأُروك ميلاد وتطور هندسةٍ حقيقية ومتميزة خاصة ببناء المنشآت الأثرية الضّخمة. كما أنّ المنطقة شهدت تكاثر البيوت السَّكنية وتمْركزها على شكل مدن وقرى. ففي تيب غورا وعلى قمة أحد التلال انشِئت بناية مستديرة الشكل قطرها ١٩ مترا، وعرض جدارها متْران، وجِدَتْ بداخلها بعض آثار حبوب الزُّروع يظْهر أنّ البِنَاية كانت مخزناً للغلال تستعمله القرية كلُّها.

وفي كلٍ من سوريا وفلسطين تطورت حضارة حقيقية في

مالطا : مَعْبد تارْكسيان.



أواخر حقبة أوروك العراقية، تكشف عنها بنايات ذات هندسة ووظائف متطورة كأسْوار المُدُن والمَعابد والمُدُن المُنْتظمة على شكل أحياء. و بالمُقابل، وفي بعض المناطق الأخرى من فلسطين نفسها وفي اليونان وقبرص عثر على بيوت تَحْأرْضِيّة (دِيمَاسيّة) ذات سقوف خفيفة تمتدّ عدّة أمتار. ومن خِلال المَواقد والرَّدهات التي أُعيد تَرْميمها واِصْلاحُها، يتَبيَّن أنّ تلك البيوت كانتْ تأوي مجموعات متأخرة ثقافياً انتقلت مباشرة من حياة الترحال لتحْتل تلك البيوت التّحْأرْضِيّة.

وفي المنْطقة المُمْتَدّة من إيران الى باكستان، يُمْكن استخلاص نفْس المُعْطيات حول تِقْنيات وأنْظمة البِناء والسّكن. فهي على نفس النّماذج الاسيوية المُعتمدة على الآجر الذي يُعالج يدوياً ثم يُقَوْلبُ داخِل قَوالب من خَشَب إضافة الى استِعْمال القِطع الصّخرية والطّلاء والرُّسوم والزّخارف والنُّقوش على الجدران. وتوجدُ بها المواقد والسيل والمطْمورة وغيرها من المرافق. والفرق الوحيد بين مساكن هذه المناطق هو أنّ إيران يشمل نظاماً عُمرانياً حَضَرياً بيْنما في كلٍ من توركمستا وأفغانستان و باكستان توجد فقط بيوتات فردية مُنْعزلة عن بعضها في غالب الاحيان ومحاطة بسور للصّيانة في بعض الحَالات مع احتفاظ كل بيْت على اسْتقلاله.

في الصورة اسفله: بقايا نجائر قديمة، وهي عبارة عن اكواخ من خشب وأغصان تقام على أوتاد في المُستنقعات والبُحَيْرات.

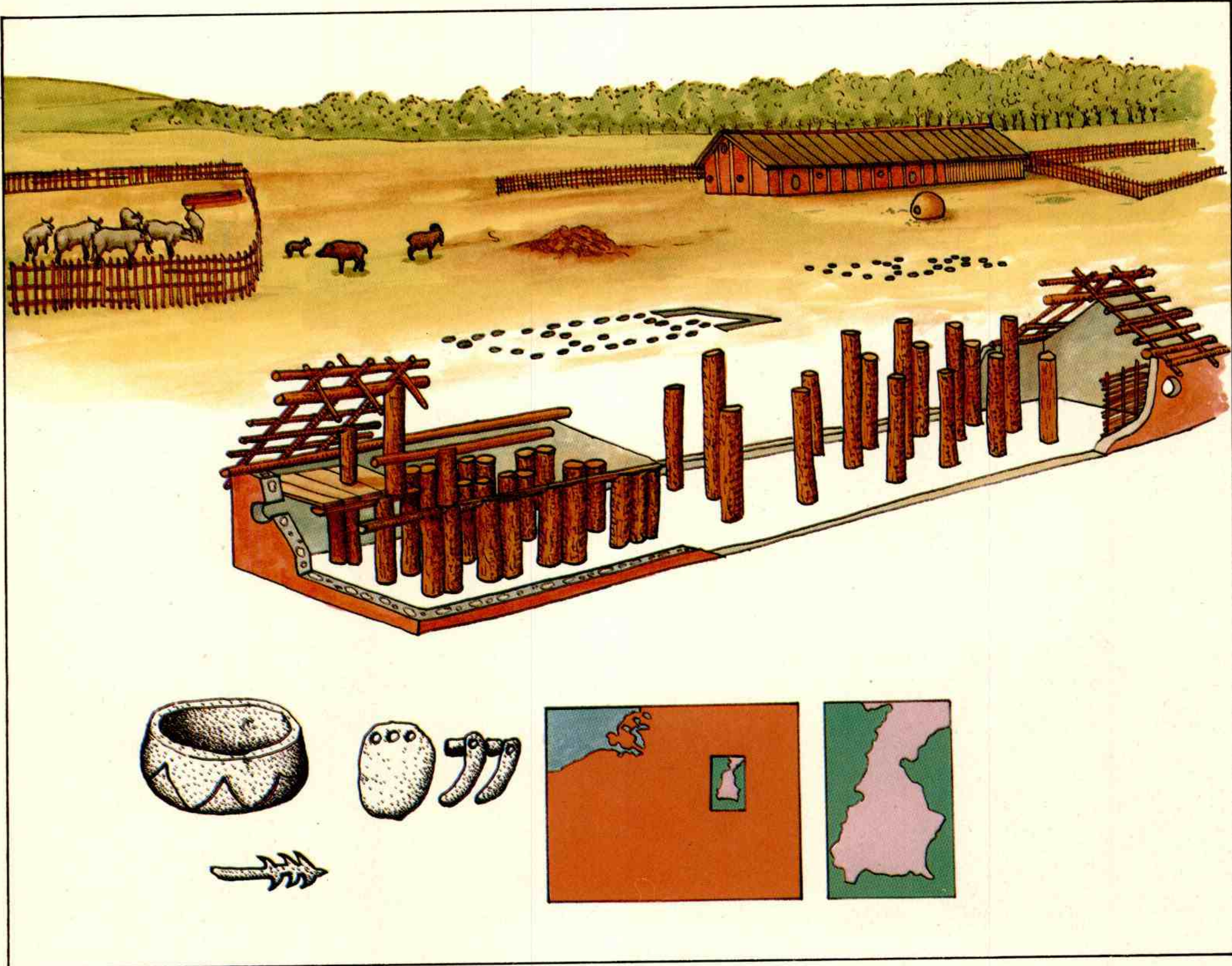


وقد امتدَّ تأْثير الأنماط البِنَائية الأَسيويَّة إلى ماوراء نهر الهندوس (السند). ففي شرق هذا النهر سادت ثقافة يانغ تَشَاوْ ببنايَاتها الضيقة ذات القاعدة الدائرية والتي كانت تُستَعْمل في بِنَائها أغصان الأَسَل والقَصَب المُتَشابكة والمكْسوَّة بالطين. وتُستعمل نفس التقنية لبناء السُّقوف المُقبَّبة. وعثر في بانْ بوعلى بناية ضخمة لم تُعرف وظيفتها بالتحديد ولكن علماء الآثار أكّدوا أنها من بين البنايات العُمُورية ذات المنْفعة المُشْتركة وأن لها أهمية ثقافية خاصّة بالنسبة للسُّكان.

ونفس التأثير الأسيوي نجدُه في المَنَاطق الواقعة جنوب شرق أورو با حيث نَفْس التقنيات المِعْمارية التي ظهرتْ في حِقب العصر الحجري الحديث بآسيا بخلاف بعض البيوت المبنية على شكل شِبْه مُنحَرِف وتطوير الأوروبين للحصون الواقية للْقرى التي يقيمونها بقرب المجاري المائية. أمّا ما يخُص التنظيم والتوزيع المِعْماري ففي نيانيكوميديا باليونان عثر على بناية عالية تحيط بها مجموعات المنازل منظمة على رصيفيْ شارعيْن يشكلان فيما بينهما زاو ية قائمة. كما توجد هناك بعض الأكواخ المُعَدَّة بدون شك لأغراض اقتصادية.

وفي نفس المنطقة بالشّمال الغربي الأوروبي، عرف العصر الحجري الحديث المتوسط تطوّر البنايات المعروفة بنماذج نْسانْغلي وأَميغَارون وناسيلينوفو، فالبيوت الأولى مستطيلة وشبه مربعة وتحتوي بداخلها على جدارين متعامدين يُحتمل أن يكونا مُعدَّين لرفع السّقف أو لاقامة

إعادة انشاء لمسكن من خشب شبيه بمساكن الباندكيراميك. نلاحظ تنظيم الأوتاد.



طبقة عُلْويّة، ولا توجد بها آثار للأبواب على مُستوى الارض مما يدلّ على أن مداخل هذه البيوت **كانت من** السّقف أو عالية بالنسبة لمستوى الارض. أمّا منازل أُوميغارون التي تميز أواخر العصر الحجري الحديث فهي مُستطيلة وتَتَوزع في داخلها إلى عدّة مرافق مستطيلة كذلك، تشتمل على أبواب جانبية تنْفذ كلّها الى فناء واسِع مُسقّف يصِل بابه مباشرة الى خارج البيت. وكانت بيوت فاسولينيفو مُكوّنة من صفوف أعْمدة خَشَبية متراصّة عمودياً ومبلّطة بالطين، **يتجزّأ داخلها إلى غرف تحْتوي** إحداها على رحى ومَخْزَن للْغلال والمؤن.

أما الحِقبة الموالية أي العصر الحجري المُتأخر فلم تُسجّل إختلافات جذْريّة بالنّسبة لسَابِقتها. فقد تَزَايد عدد البنايات المحصّنة التي تَنَوّعت أشكالها. كما تَطَور **نموذج ميغَارون في اليونان على الخصوص، بحيث أصْبحت البيوت متّصلة فيما بينها على عكس ما هي عليه في كل من يوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا حيث البيوت مستقلّة عن بعضها. ويظهر أن التجديد الوحيد بالنسبة للحقبة السابقة هو ما نجده في كْنوشو حيث عثر على مواقد متحركة على شكل أوعيةٍ من الطين يبلغ سمكُها** ٥٠ سنتمترا.

وفي أوروبا الوسطى وخِلال الحِقْبة المَعْروفة بالتّارد ينُوازية لم تختلف البيوت عما كانت عليه في العصر الحجري القديم. ذلك أنّ المنطقة لم تصلها تَطَوُّرات ومُسْتَجدّات العصر الحجري الحديث المنتشرة في المناطق الآنفة الذّكر. وكانت البنايات التي عثر عليها هناك ذات بِنْية بسيطة تتعَمّق شيئاً ما في الأرض وكانت مستديرة او بيضوية الشّكل. اما التجمُّعات السّكنيّة فكانت قليلة لاَ تَتَعدّى المساحة التي تحتلُّها خمسة كيلومترات، وهي مُنْتشرة في أغلب الاحْيان قرب البُحيرات أو فوق التلال الرّملية.

وبقيت نفس النّماذج سائدة في كل من اوروبا الشّمالية وأوروبا الغربية وايطاليا. إلاّ انه في الجنوب الايطالي سُجل ميْل الى تحْسين المجموعات السّكَنية بواسطة الخَنادق والحُفر الكبيرة وقد عثر في منطقة بوي على بَقَايا بعض الشوارع المُبلّطة والمُرَصّفة.

وفي نفس ظروف حِقْبة البَانْدْكيرامِيك ظهرت معالم الحضارة المعماريّة الحقيقيّة. حيث أقِيمت الْبيوت على أُسس مَحْفُورة تُثَبّتُ فيها الأعْمدة التي تُشَكل الجُدران التي تبلط وتُبيّض. و يظهر من خِلال الآثار المتبقية من هذه البيوت أنها كانتْ متِينة البناء والتّرْكيب. وكانت مَقَايسه مُتَفاوتة، إذْ تبلغ من الطول ٢٠ إلى ٢٥ مترا ومن العرض ٥ إلى ٧ أمتار، وتوجد بيوت أصغر من ذلك لا تستعمل فيها الأُسس المَحْفُورة والأعمدة المُنَضّدة.

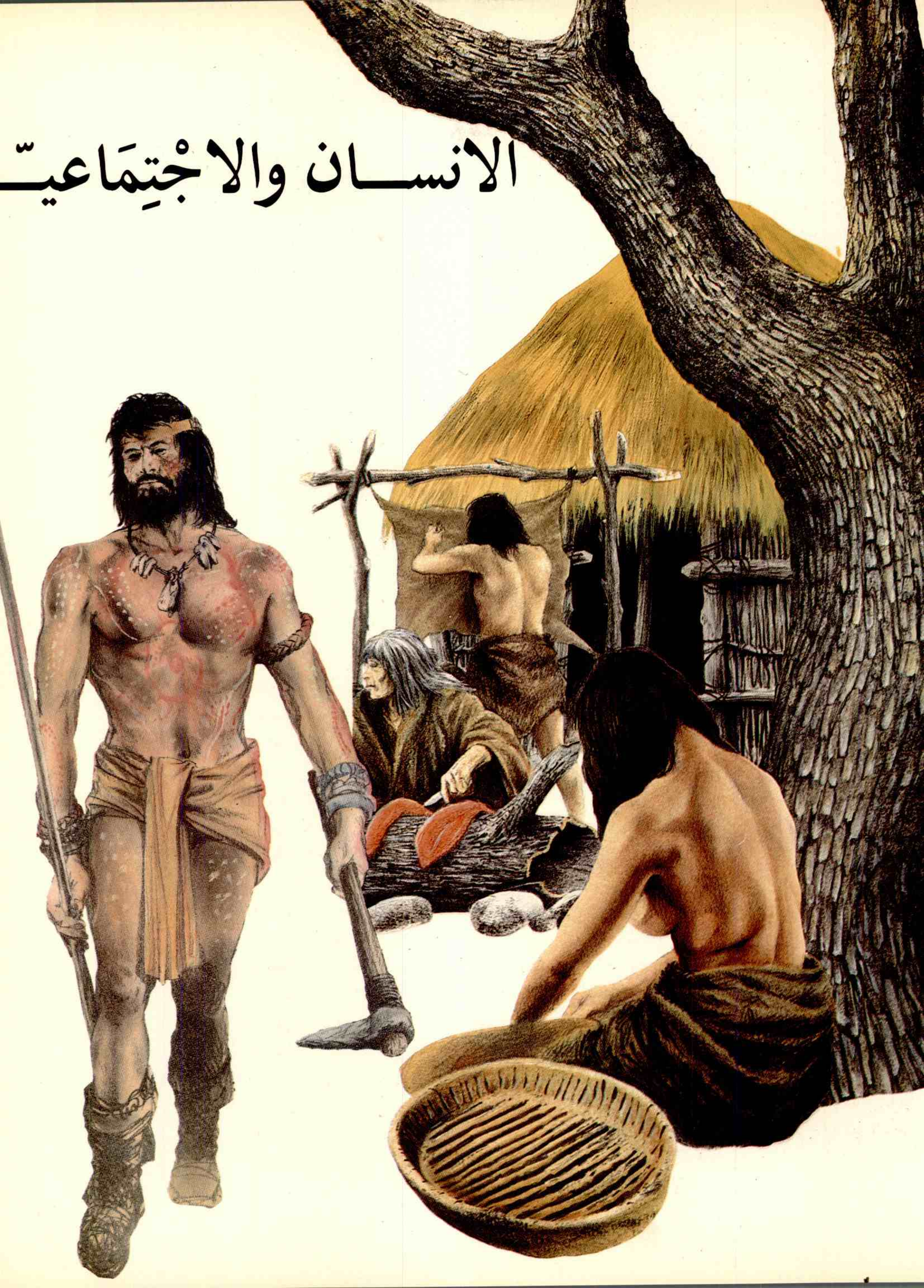
ورغم تنوُّع نماذج هذه البِنايات التي عثر عليْها في المنطقة المُتأثرة بثقافة البانْدْكيراميك، فإنّ هُناك قاسماً مُشْتركا بينها إذ تخضع كلُّها إلى نفس المعايير في ضبط مقاييسها وأشْكالها. و يبدو أن استعمال العارضات الخشبية في بناء المنازل كان يحدّد شكلها النّهائي المُربع أو المثلث وكذلك تناسب الطُّول والعرْض. أمّا فيما يتعلق بالتجمُّعات السّكنية فهناك فَرَضِيّات متضاربة يَرَى بعضها أنّ البُيُوت مُوزَّعة على شكل ضَيْعات مُسْتقلّة و بعضها يؤكد على أنه كانت هناك مجموعة قرى منَظّمة. إلا أن أغلبية العُلماء يتفقون على أن السُّكان كانوا، قبل استقرارهم بالمنطقة من البدو الرُّحّل الذين توافدوا عليها وقد تطورت حياتهم الى أن وصلت الى مستوى الانماط المعروفة في الحقب التاريخية.

وفي الحِقبة الموالية اي خِلال العصر الحجري الحديث الأخير، كانت الرُّقعة الجغرافية المتأثرة بالباندكيراميك قد عرفت تغيُّرات مُهمّة على مستوى الوَحْدة التي ميّزت ثقافة هذا العَصْر بأكملها. فقد أُضيفت إلى النّماذج البسيطة الأولى بنايات ذات شكلٍ مُنْحَرِف كَتِلْك التي اكتشفت بِوُشُوم هِيلتْروب، وهي ذات مقاييس هائلة يصل طُولها الى ٦٥ مترا، وبنايات اخرى اكتشفت في غولْدبيرغ يتبيّن من تنْظيمها أنّ السُّكّان كانوا يعيشون في جوّ متطور، حيث مجموعة المنازل المكونة للقُرى تحيط بها أسوار أو سِياجات وَاقِية.

وعرف العصر الحَجَريّ الحديث كذلك المَساكن المعروفة بالنّجائر (م.نَجيرة) وهي أكواخ كانت تقام على أوْتاد في المُستنْقعات والبُحيْرات. واحياناً يكون جُزء منها على الأرض وجزء آخر فوق الماء. و يُستعْملُ الخشب والطين وأغصان الأشجار في بِنَائها. وكانت مَبْنية على هذا النحو لأغراض أمِنْية اتقاء لِهجومات الأعداء أو الوحوش المفترسة رغم أن الانسان في تلك الحِقبة من العصر الحجري لم يعُدْ يخاف تلك الحيوانات.

ويمكن القول في الأخير إن اوروبا الشرقية كانت بحكم موْقعها، نقطة الْتقاء الثّقافات الواردة من آسيا وثقافة البانْدْكيراميك وغيرهما. وإلى جانب ذلك ظهرت بها خصائص مميزة لها كما يتجلّى من خلال ثقافة تْرِيبولْجي وكُوكُوتُومي المعروفة بالبيوت ذات الرّدهات المبلطة بالطين المشْوي على النار.

الانسان والاجْتِمَاعيّ



العصر الحجري : من تقديس الموْتى إلى ظهور العَشائر والسُّلالات

العصـــر الحجـــري القـــديم :

عندما نتحدَّث عن «الإجْتماعيَّة» في العصر الحجري الأدنى فان الأمر يتعلق أساسا بالبيوت والمَساكن التي عثر عليها والتي كانت قليلة، وما بقي منها يعدُّ شبه مُنْعدم لا يعُطي ايَّ معلومات دقيقة عن الظواهر الاجتماعية السّائدة آنذاك. إلا أنَّ هناك نَظَريات مختلفة تحاول فَكَّ رموز القليل من البقايا التي عُثر عليها اعتماداً على وسائل ومناهج مُتَضاربة ولكنَّها في الأخير تخلص إلى نتيجة واحدة وهي أنَّ المجموعات الانسانية الأولى كانت لها أشكال علاقات إجتماعية بِدَائيَّة. الا ان بعضاً من تلك النظريات يَرَى انَّ هناك نوعاً من التَّقارب بين الانسان البدائي و بين الحيوانات الأخرى الشّيء الذي يفترض وجود علاقات اجتماعية بينهما في البِداية. وهناك نوع آخر من النظريات تقول بِعَدم وجود أية علاقة بين الانسان وجيرانه الوحوش رغم الصلة المُفْترضة بينهما. وهكذا تكون الاشكالية مطْروحة على مستوى آخر غير الاختلاف والتَّقارب. فالأمر يتعلق بالتَّقْييم الدّقيق لوضْعيّة الانسان الأ ول داخل المُحيط الطبيعي الذي كان يعيش فيه منذ ظهوره على الأرض. الى جانب توفُّره على أسلحة طبيعية لا تتوفَّر لَديه هُوَ. إلا ان الانسان بفعل ذكائه وتطوّره الفكري المستمر إستطاع ان يقاوم و يصارع من أجل البقاء، في حين تلاشَتْ خلفه وانقرضتْ اصناف كثيرة من أعدائه الوحوش لأنه إستطاع ان يطوّر لَدَيْه تكَيّفاً مع الطّبيعة وتَغْييراتها وقدرة تَحَمُّلٍ لكل ما تأتي به من مُفاجآت. وأوّلُ شكلٍ بدائي لِلاْجْتماعية هو اعتراف الانسان بِبني جنسه، وذا نزوع فطري يوجد عند جميع الكائنات الحية.

وخلال العصر الحجري المتوسط كان الانسان قد طور لديه الاحترام والتَخشّع والخوف إزاء ظاهرة الموت الذي يختطف بني جنسه. ومن خلال بعض الهياكل العظْمية ووضعِيَّتها وعمر أصحابها المُتفاوتة، تبين ان في ذلك ما يدعم فَرَضِيّة وجود العلاقات القرابية بين الأفراد منذ ذلك

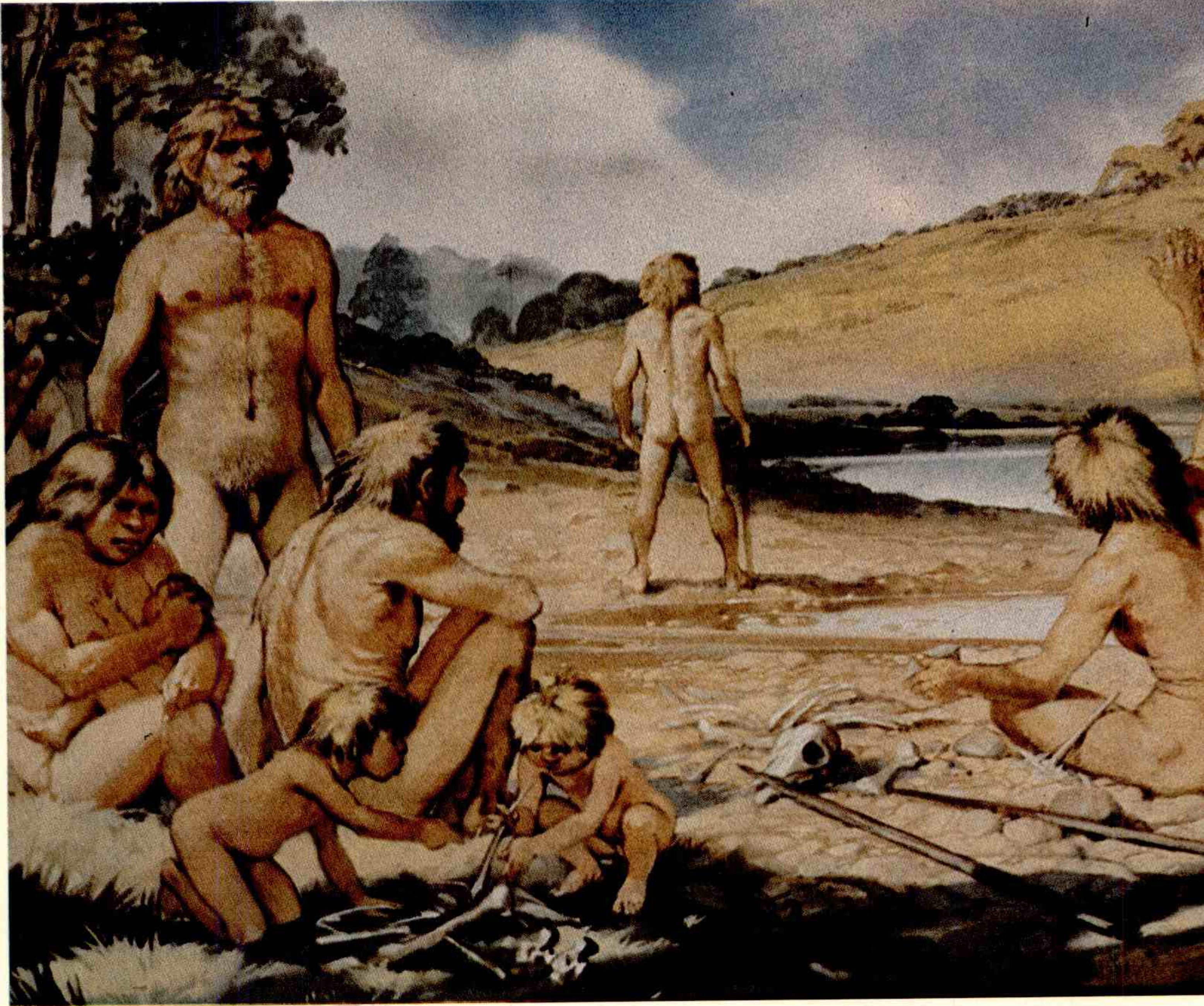


إعادة إنشاء مجموعة أسرية من شعب سوانْسْكُومب (بأنجلترا) في مخيم في الهواء الطلق قرب مجْرى مائي.

العهد. وإذا اعتبرنا المُعطيات الاثرية التي تكشف عن التقارب الموجود بين نمط عيش الانسان الأول وجيرانه من الحيوانات والوحوش، فبعد مرحلة إرضاع المواليد بكيفية غريزية جاءتْ مرحلة اهتمام الفرد بنفسه دون ان يدرك بعْد العلاقات القرابية التي تربطه بمن حوله من الأفراد داخل نفس المجموعة بحيْث لا يميز بين أبَوَيه وغيرهم من النّاس.

وهكذا فحين ظهرت أولى معالم القرابة والمودة بين الانسان وأفْراد مجموعته الأقربين، كان ذلك بدَايَة عهد الاجْتماعية الحقيقية و بالتالي بُروز مظاهر الانْسانية. وعند معاينة بقايا مقابرِ العهد الحجري الأول حيث لا يظْهر فرق بين طرق دفْن الرجال والنّساء في حين يتمتّع الأطفال بنوعٍ خاص من الطُّقوس فان ذلك من مؤشرات تبلْور الرُّوح العاطفية لدى الافراد و بداية تطوُّر العلاقات الاجتماعية. وعليه فيمكن تأريخ الاجتماعية الأولى للانسان إنطلاقاً من بداية احترام المَوْت والعناية بالاطفال.

وقبل مُواصلة دراسة مظاهر الاجتماعية في العصر الأول، نقف قليلاً عند بعض المُصطلحات التّقنية والمفاهيم المُتَدَاولة بين علماء الاجتماع وعلماء الانسان. فمفهوم «بِنْية القَرابة» يعني أيّ شكلٍ من أشكال الاجتماع الذي يؤلف بين أفراد مجموعة من الأفراد ولوْلم توجد بينهم رَابطة دَمَوِيَّة مشتركة. إذ يتعارفون فيما بينهم

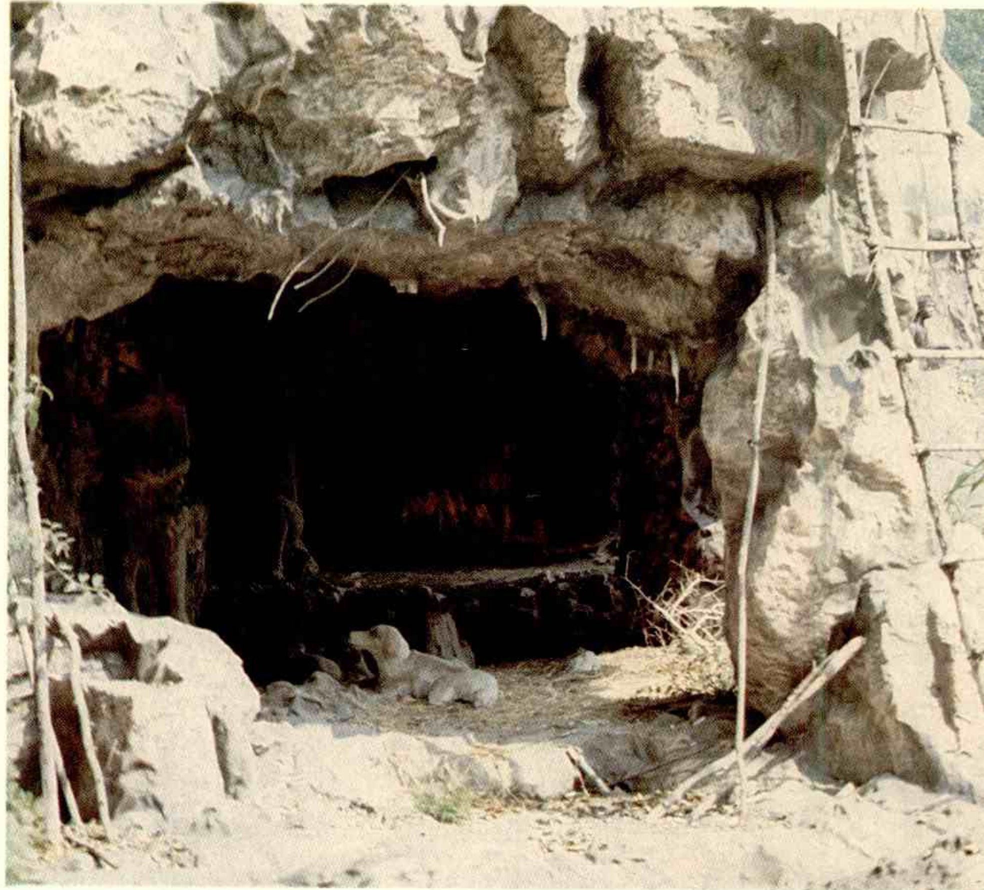


و يشتركون في خصائص معيّنة تميزهم عن غيرهم من أفراد المجموعات الاخرى. أما مصطلح «السُّلاَلَة» (الذُّرِّية، النَّسْل) فيدُلّ على تجمُّع حقيقي داخل المجتمع مع نِظام نَسَبٍ أبوي أوْ أُمومي. ففي الحالة الأ ولى يكون الأب أو الرجل هو مركز الثقل في المجموعة السّلالية وفي الحالة الثانية تكون الأمُّ او المرأة هي النّواة الأساسيّة داخل المجموعة وذلك حسب التقاليد والثقافات ويحمل مصطلح «الزّواج اللُّحْمي» مفهوم الزّواج داخل المجموعة العَشائريّة او السُّلالية و يُقابل مفهوم «الزَّواج الخارجي» حيث يُمْكن التَّزواج بين أفراد المجموعات او السّلالات أو العَشائر المختلفة.

و بعد هذا التوضيح، نلاحظ أن مفهوم السُّلالة كان موجوداً في العصر الحجري الأ ول كما تدلُّ على ذلك صفوف المواقد المتواجدة داخل نفس البيوت كما أشرنا إلى ذلك سابقا، والتي تدلّ على أنّ هنالك وَحَدات أسْرَو ية تجمع بين أفراد نفس السلالة. وهناك دلائل أخرى تُوفّرها معاينة تقنيات مُعالجة حجر الصَّوّان. فإتقان الأدوات والأسلحة الحجرية الذي يتقدّم بكيفية تدريجية يُظْهر على أن هناك أفراداً مُتخصّصين في ذلك العمل و يَقومُون به لفائدة المجموعة كلّها لكُونهم ماهرين في تلك الصناعة

ولكَون هذه الاخيرة تتطلبُ توفُّر تقليد أُسْروي لدى الصّانعين. ونفس الملاحظة يمكن ان نستَخْرجها من اعتبار المَظاهر الفنية. فبعض الرّسوم والنّقوش تُبرز عن إتقان وتقنية مُتكاملة تجعلنا نتكهن بأنَّ هناك أفراداً داخل العشيرة يقومون بدوْر المعبّرين عن التّقاليد الفنية للمجموعة وقد يكُونون من سُلاَلَة واحدة ذات تقْليد مرْموق في المجتمع؛ من ذلك ما يظْهر من خِلال التّناسق الجَمَالي في رسوم روفنْياك والاخوة الثّلاثة مثلاً. وهناك من العلماء من يلاحظ ان الانتشار الواسِع الذي عرفته التّقنيات المُختلفة التي ذكرناها سابقاً لا تكشف عن وجود صنّاع وفنّانِين مَهَرة بقدر ما يظهر منْها قُدْرة المجموعات خِلال العصر الحجري القديم على صُنع ادواتهم وتزين كُهوفهم مما يدل على أن نوع الإتقان الاجتماعي على نفس الحاجيات ونفس أساليب التعبير داخل العشيرة أو المجموعة السَّكَنية الواحدة. غير أنّ هذه المُلاحظة وان اعتمدت على انْتشار وذيوع التقنيات وتَنَقُّلها عبْر مُخْتلف الاقطار، فهي لا تنْفي وجود أفراد توكلُ اليهم مُهمات تنْفيذ تلك الافكار اعتباراً لمقْدرتهم وتفوُّقهم على غَيْرهم. ففي روفنياك يتجلّى بوضوح أن الرُّسوم كلُّها تخْضع لنفْس الاسلوب في الانجاز والخصائص والتَّقنية. و بالاضافة الى ذلك لا يمكن إنكار وجود أفراد توكل اليهم مهمات القيام بالطقوس الدينية وتسْيير العِبَادات المختلفة والممارسات السحرية والروحانية التي تتعاطاها العشيرة لدْرءِ الشر واسْتِدْرار الخَيْر وكسب الصَّيد الوفير وغيرها من الحاجيات المُرتبطه بالمُعْتقدات.

أما نظام العَلاقات القائمة بين مختلف المجموعات داخل نفس المخيم او القرية، فلا يتوفَّر بشأنها أيّ أثر، حيث بقيَتْ في ذمّة المجْهول تحيط بها الألْغاز وتتضارب حولها التَّخْمينات والافتراضات. وكلُّ ما يمكن الاعتماد عليه في وجود علاقات اجتماعية مُمْكنة هوما عثر عليه من بقايا أركيولوجيّة تكشف عن إقامات طو يلة بنَفْس المُخَيمات التي تجمع أفراد عديدين، ثم افتراض العلاقات المَوْجودة بينهم على مُختلف المستو يات وخاصّة على مستوى التزاوج بين المجموعات الشيء الذي يعيد أساساً لاستمرار وجود السُّلالات عن طريق التّوالد والتكاثر.



من بداية السكن في الكهوف تضاعفت التكتلات الأسرية مما ساعد على تكوين العشائر والسلالات. في الصورة إعادة إنشاء لوسط تروغلوديتيكي.

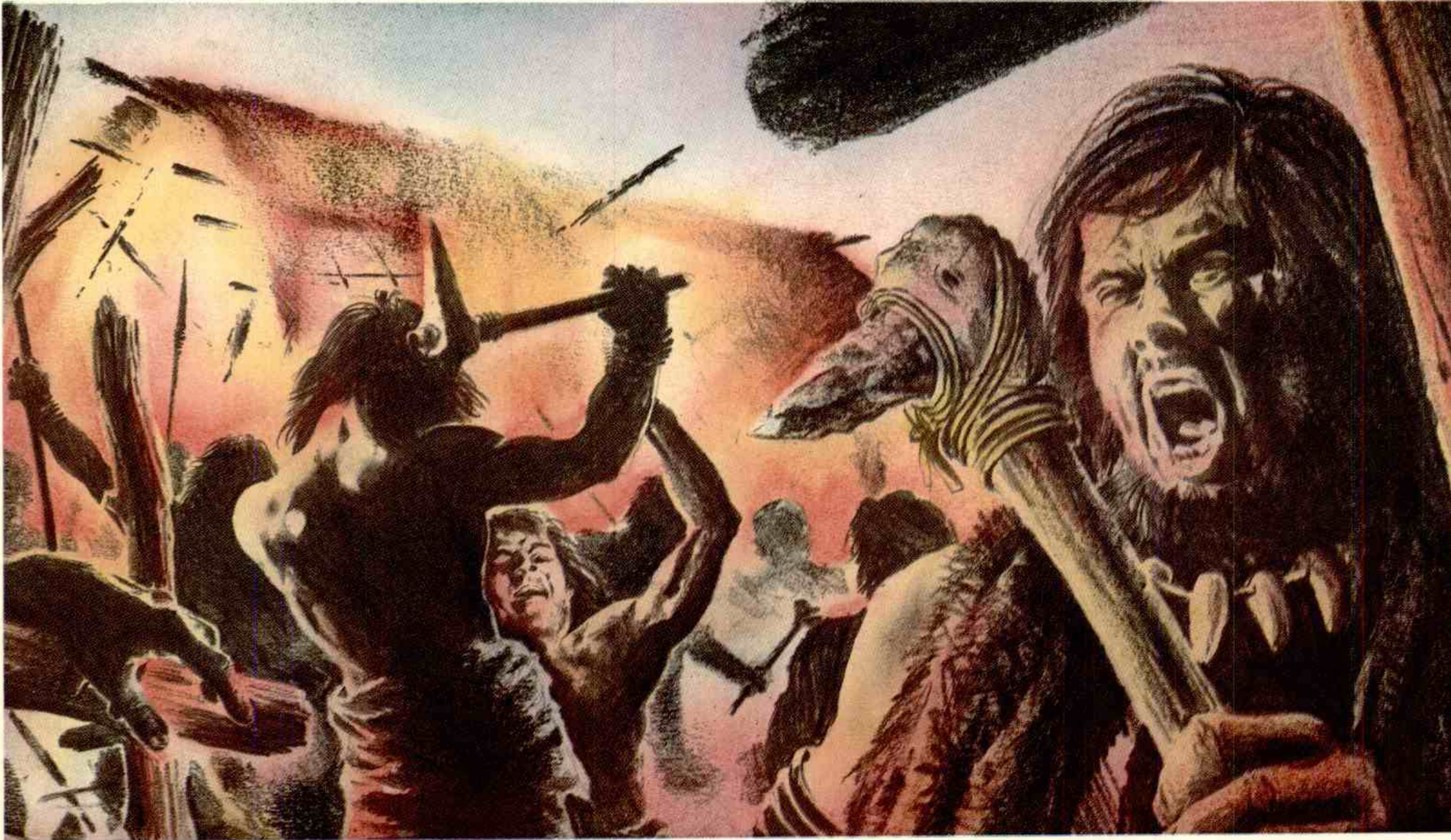
العصر الحجري الحديث : من مجموعات الصيادين إلى المَلَكِية

رجال يجمعهم هدف واحد : الحرب والصيْد

خلال الحقبة التَّارْد انْوازيّة في العصر الحجري الحديث الأدنى عرفت المناطق الاسيوية والأوروبية تجمُّعات الصيادين على شكل فرق تضمّ كلُّ واحدة منها حوالي عشرة أفراد يعيشون في بيوت صغيرة من الخشب و يتنقَّلون أحياناً بأعداد كبيرة اثناء المطاردات الكبيرة التي تَسْتَهْدِفُ قُطْعان الوحوش والحيوانات الضّخمة. وكانت مُهمة النّساء مُنْحصرة في جنْي النَّباتات والتقاط أصناف الرّخويات البحرية والاعتناء بالأطفال. وكانت هذه المظاهر الحياتية كلها قد انتظمت من قبل خلال العصر الحجري الأول.

أما المِنطقة التي عرفت اختلافاً وتميزا عن هذا النّمط التقليدي للحياة فهي الشرق حين ظهرت به البلّيْرات الهندسية الشكل. وقد سبق أن تعرّضنا إلى أهمّية هذا النّوع من الأدوات واستبعدْنا صلاحِيّتها بالنسبة للصيادين فلم يبق إلا احتمال واحِد وهو كوْنُها تصلح لأغراض حَرْبيّة. وبالفعل فإن انتشار ظاهرة الحروب هي التي ميزت فجر العهد الحجري الحديث. ذلك لأن الحرب هي الوسيلة الوحيدة ليَسْتريح الانسان من متاعب الصيد ومطاردة الوحوش والمغامرة بحياته، بحيث يتمكن بفضل الهجوم على

كان المحاربون والصيادون يكونون مجموعات موحدة تنتظم تحت إمرة قائد وصوب هدف واحد. في الرسم جانبه مجموعة من المحاربين أثناء إحدى الهجمات.



الغيْر ونَهْب خيْراته وممتلكاته وأدواته وأسلحته من تطوير مَسكنه وأدواته وضَمَان تغذيته لِمُدّة طويلة و يستعدّ فيها لهجومات أخرى. ومن أقدم الرسوم الممثلة لأ ولى الحَرَكات الحربيّة في تاريخ الانسان رسوم مُوريلا لافِيلا بإسبانيا وأوَادي سورا وعيْن دُووا بالشمال الافريقي: وهي تمثل صنوفاً منذُ ظهورها عند أجداد الانسان الاوائل الى اليوم. وكانت الحرب سبباً في ظهور شخصيات مُجْتمَعيَّة جديدة ذات دوْر أساسي في تسْيير المعارك وهي ما يعرف بالأبْطال والذين كانوا في البداية مجرَّد رجال شُجْعان فأصبحوا قُوَاداً للحروب وأخيراً تطورت قِيمتُهم وأدْوارهم الى أن صاروا مُلوكاً تعقُّد وتشعُّب وتحوُّل الأنظمة الاجتماعية.



العلاقات الإجتماعية وتَنْظيم الزّراعَة:

في المشرق، وخلال آخر حقب العصر الحجري الحديث تطورت أساليب الحياة الاجتماعية الى أن اصبحت التجمُّعات البشرية مَنَظَّمة على شكل قُرى متكاملة حلّت محلَّ التجمُّعات السَّكنية البدائية. وكانت أكبر القُرى تضُمّ مِئات الأفراد. ففي المناطق السّكنية تضاعف هذا العدد فيما بعد الى ان اصبح عدد سكان بعض القرى يقارب الألف نسمة.

وكان تقليد دفن الموْتى داخل المساكن وارداً في عدة اكتشافات أثرية مما يجعلنا نفْترض أن نفس المساكن كانت تبقى مَصُونة تتوارثُها أجيال متعاقبة من نفس الأُسر. وكان الحِليّ والزينة الخاصّة بالرّجال والنساء والأطفال تُدفن مع الأموات، و يظهر أنّ ذلك راجع إلى أعْراف تفرض احترام الأفراد ومُمْتلَكَاتِهم، ولا تختلف محتو يات قُبور النساء عما تحتو يه قبور الرجال إلا الأسلحة الخاصّة بالرّجال دون النساء. والتي تُدْفن مع المُحارب. ففي مصر هناك مقبرة نَاقادَا الكبير تشمل ١٩٠٠ قبرا ويمتد استعمالها الى حوالي خمسة قرون تعاقبت على أجيال حواليْ ٢٠٠ وحَدَة سَكَنِيّة الا ان أغلبية القُرى كانت تحتوي على تجمُّعات سكنية بأعداد متوسّطة.

وفي أغلب الحَالات كان نظام الاسرة معتمداً على أُحادية الزَّواج وتكافُؤ الجنسين واعتبار الأطفال مِلْكاً للْعشيرة. وقد عثر في إحدى المقابر على تجهيزات دفْنية خاصة بالنساء على عدة عناصر تزينية وأدوات منزلية وخاصة منها الرَّحَى التي يكشف على ان النساء كن يَتكفلن بسحْق ودق المَحَاصيل الزّراعية مُشَارِكات للرّجال في المهام الفلاحية المَوْكولة إليْها أصلاً.

و يظهر أن الاعمال الجماعية كانت ضرورية لتسيير شؤون القرية. ذلك أن عمليّات سقْي الأَراضي الزراعية تتطلب إقامة مُنْشآت مهمة لجر الماء والاحتفاظ به كالقنوات والصّهاريج التي لا يمكن أن يقوم بها الافراد بل هي من إنجاز مجموعات عُمال يُسيرهم دون شك قادة العشيرة ومن المُرجح أن صناعة الأسلحة والأدوات المُختلفة قد أصبحت بعد تَطَوُّر وتعَقُّد الحياة الاجتماعية في

آثار أرجاء ضمن أجهزة القبور النسائية، وهي تُذكر بدور المرأة داخل العشيرة وفي الأعمال الزراعية.

القرى مَوْكولة الى مجموعات الصّناع المتخصّصين في الحِرف المتنوعة وكان هؤلاء يحصلون مقابل أعمالهم على ما يكفيهم للعيْش دون الحاجة الى القيام بالاعمال الاخرى، كالزراعة والبِناء وغيرها.

و يتجلى من خلال مظاهر الحياة الاجتماعية ان جنوب شرق اورو با تأثر كثيراً بالانماط الأسيو ية في حين أن أورو با الوسطى وايطاليا تكونت خصّائص أصليّة تمخّضت عنها ثقافة الباندكيراميك وتفرُّعاتها. وفي أورو با هناك تكافؤ بين الجِنسيْن في ما يتعلق بطقوس الدَّفن باستثناء المَوْلود الجديد الذي يموت في شهوره الأُولى، فهو عوض ان يُدْفن مُلْتوياً ومُتَقَلّصاً، يُوضع في قبره على وضْعه المُمدَّد. وفي كُوكَنِيدُومْب المُحتضن لثقافة التِيبِسْك كان الرّجال يدفنون مُمَدّدين على جنبهم الأيمن بينما يدفن النّساء مُمَدات على جَنْبِهن الأيسر.

وكان هناك اختلاف جَليّ في تجهيز المَوْتى أثْناء دَفْنهم، فكانت النّساء مصحوباتٍ بِمُختلف الحِلي الذي كان في مِلْكهن وهن على قيد الحياة، إضافة إلى أدوات اخرى كالمَناجل وغيرها مما كان متداولاً. كما أن الفؤوس الحر بية وأسنّة الرّماح والنّبال والمطارق كانت تُدفن مع الرجال. وقد عثر في قبر أحد الأطفال وعمره ١٣ سنة على فؤوس حر بية يبدو منْها ان الأسلحة لا تدفن فقط مع أصحابها من المحار بين بل تُوضَع كذلك بجانب جُثمان المَوْتى حسب قيمتهم الاجتماعية وسط العشيرة.

وقد دلت الاكتشافات الأَثرية في أورو با الوسطى على ان هذه الأخيرة عرفت بدوْرها تطوراً مهمّاً في التنْظيم الاجتماعي وممارسة الحروب. ففيما يتعلق بالتجمعات البشرية فقد عرفت حقبة الباندكيراميك مساكن على شكل مَزارع معْزولة ومسيَّجة يظهر من سعتها انها تأوي العديد من الأُسر التي تمثل تفرعات سلاَلية لأسرة أُمّ. وفي جنوب غرب اورو با بعيدا عن ثقافة الباندكيراميك كانت هناك قرىً حقيقية مُشَكَّلة من أعدادٍ مُتَفَاوتة من المساكن تأوي أُسر أحادِيَّة النَّواة

وقد تطوَّرت التنظيمات القرو ية والسَّكنية إلى ان دَفَعَت الحروب والهُجُومات المتكرّرة السُّكان الى التفكير في تحصينات مُسْتحْكمة لحِماية مساكِنِهم، ثم سرعان ما تمخَّض عن هذه التّجر بة تنظيم عسْكري توّج ترسيخ البِنْيات الاجتماعية.

ومع توطيد العلاقات الاجتماعية وتدعيم أُسُسها وأغْراضها ظهرت المَلَكِيَّات. ومن أهم المَلَكِيّات التي بَرَزت خلال آخر حِقب العصر الحجري الحديث، نذْكرُ مصْر الفرعونية والعراق القديم.

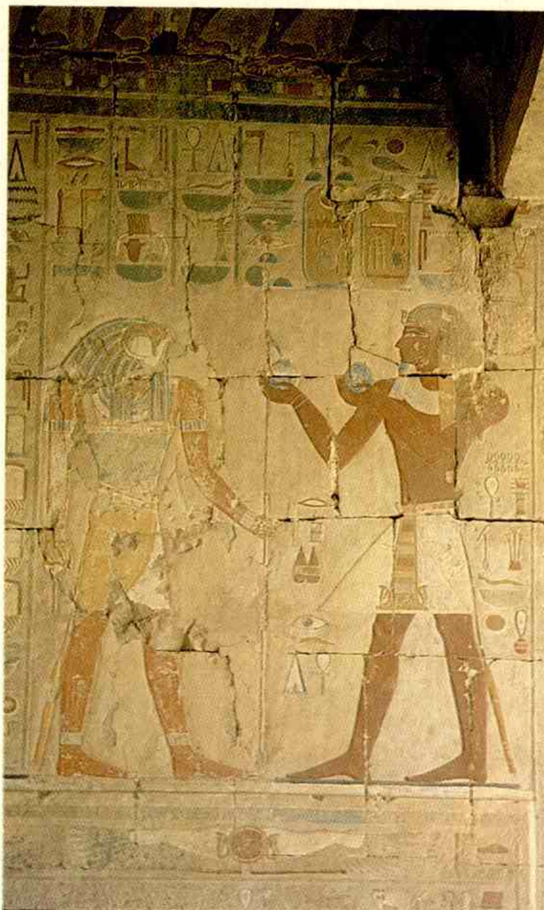
وقد رأينا المُستوى الذي وصلتّ اليه هاتان المنطقتان من تطور ثقافي ومِمَّا نتج عنه إستحكام للْعلاقات الاجتماعية التي ما فَتئت تتطور الى العصر الراهن. ولذلك يبقى التّساؤل مطروحاً حول كيفية وأسباب التحوُّل الذي طَرأ على مجْتمَعيْهما لينْتقِلا من وضعية ونظام تكافؤٍ بين

الافران المُكتشفة كذلك تبين أعمال المرأة القديمة، وهي غالبا ما تكون من طين وتوضع بجانب المواقد تماثيل صغيرة. في الصورة فرن بدائي إفريقي.



الناس إلى وضعية يتمكن فيها رجل واحِد من ان يحْتَلّ مقام القائد وبالتالي المَلِك المُتميِّز عن باقي الأهالي والمُتَحَكِّم في شُؤونهمْ. وهناكَ فَرَضِيّتان تحَاوِلان اعطاء تفسيرٍ لذلك التحول وتعكسان خصوصية المناطق التي تَوَلَّدت فيها المَلَكيّة وتطوّرتْ. ففي مِصْر تدُلُّنا التّجهيزات الدَّفْنية المُختلفة على تَضاعُف أهمِّية الشّخصية الفَرْدية تدْريجيا إلى أن تصل إلى مُستوى الانسان القوي الذّكيّ الشُّجاع الذي يصبحَ بحُكم المُمَارسة أهْلاً لِتَوَلِّي قِيَادَة العَشيرة ثُمَّ القَبيلة ليَصِل إلى القُطر كله باعْتباره مَلِكاً قد يُعْتبر في آخر المطاف مُمَثلاً للألوهية بين قومه. وذلك ما يتجلّى منْ وضعية الملوك الفراعِنة الذين كانتْ أقوالهم وافعالهم مرتبطة بالقوة الالهية (!). ولذلك كانت لا تُناقش. وهكذا بدأ التَّكافُؤ يتقلّص ليَحُلَّ محلّه التمييز والحُظْوة التي عادت من نصيب المَتَقرِّبين من المَلِك وأُسرته وكانوا يتمتعون بتقدير كبيرٍ من قِبَل باقي أفراد الرَّعية. أما في العراق فعلى العكس من ذلك، فقد كان تتويج الملك يأتي نتيجة انشطة الطَبقة الكَهَنُوتية التي كانت أوّل مجموعة تميَّزت عن باقي أفراد المُجتمع بتَسْييرها وإدَارَتها للأعمال المُختلفة وخاصّة منها تشييد أكبر المدن ذات المَعَابد والهَيَاكل العَظِيمة كأُروكْ ولاَغَاش وغيْرها. و يظهر بالفعل ان الرُّهبان كانوا مُنْتَدَبين من قِبَل الأهالي لبناء المعابد وحتّى المباني ذات المَصْلحة العامة المُشتركة مثل مَخَازن حِفظ الغِلال مثلاً. و بعد أن اكتسب هؤلاء الرّهبان هذه السّلطة بطريقة غير مباشرة فَوَّضُوها إلى واحِدٍ منهم أوْ غَيْره ممّن يجِدون فيه المُعبِّر عن إرادَتهم وقد يكون في نفس الوقت هو نفسه قائِد الجُيوش وحاكم أمور الأهالي كلّها.

ومع هذه المرحلة من التطور المجتمعي نكون قد دخلْنا في اوائل العصور التّاريخية حيث بدأت سيرورة التطور تتعقّد بكثافة لا **مجال لضَبْط إواليتها. وقد استمرت هذه** التطورات على نفس الوتيرة مضاعِفةً من تعقُّدها إلى ان وصلت الانسانية الى ما هى عليه الآن.





في إحدى حقب التاريخ، أدرك الانسان أهمية الفردية، وكان ذلك بداية لظهور الملكية. في الصورة، نُقيْشات داخل قبور فرعونية.

الفـــن والدّيـــن



ظهور التعابير الفنية والحِسّ الدّيني لتجْمَع بين بني الإنسان.

وفي هذا الباب، لن نأخذ في تحليلنا بعين الاعتبار الاختلافات الجهوية والفرق بين العصور المتعاقبة في تاريخ الانسانية ولكننا سنكتفي بالتطرق الى الجانب الرّوحي في حياة الانسان وعلاقة تديّنه بحِسّه الفنّي. كما سنقوم بفحْص أهم الثّقافات الانسانية التي تعكس تقدّم الانسان المتواصل على شتّى المُسْتَويات المادية منها والمعنوية.

فَمِيلاد ظاهرة التّدين عند الانسان، من الوسائل التي لا تَنْفَكُّ تثير العديد من النّقاشات المُتضاربة لِكَوْنها لا تتوفَّر بشأنها على أدلة مادية مَلْموسة. **فهناك فَرَضِية ترى** ان الانسان مُنْذ ان خلقه اللّه تعالى والرُّوح الدّينية متأصلة فيه منذ كانت تَبْرز على أشكالها التعبيرية البدائية الى ان تطورت كغيرها من الممارسات الثقافية الاخرى، تماماً كما هو الشأن بِحِسّه الجمالي الفطري الذي تطور مع تطور التجارب الحياتية للانسان كوعيه البدائي بحقيقته وأهمية التماثل حين قام بِصُنع أول سلاح صَوّاني ذي حدين. ومع محاولاته لا تقان أدواته وأسلحته تطور لديْه شعور بجمالية الاشياء ذلك الشُّعور الذي اعطى ميلاداً لفنٍ حقيقي على شكل حلي وأدوات زينة ورسوم وزخارف. وهناك فَرَضِيَّة أخرى تقول بأن شكل الفن الانساني قد تأصّل عن تِقنية مُعَالجة الحجارة الكُلْيويَّة الشكل وتطوير الأدوات المصنوعة منها باستمرار من مجرد الشكل المنفعي المحض الى الشكل التزييني والكَمالي. و بالفعل فإن مجرد مقارنة الأدوات الصَّوَّانية الأولى مع التّحف المصنوعة من الحجارة الكُلْيوية الشكل يعكس مدى تقدم الانسان في هذا المجال. فالقُشور الصّوّانية بشكلها البدائي الخَشن كانت مصنوعة بهدف نفعي ينحصر في القَطْع او غيره من الأغراض، بينما استعمال الحجارة الكُلْيوية الشكل كان يتطلب وجود فكرة مسبقة عن الشيء المُراد صُنعه وعن وظيفته وطريقة استعماله، و بالتالي تقنية تحقيق الشكل المرغوب في الحصول عليه. والتاريخ مليء بالكثير من النوادر المنسوجة حول فن النحت الذي ينطلق من فكرة مُجرَّدة أمام قطعة رخام جامدة فتصير بعد ذلك تحفة فنية لا تنقُصها سوى الحياة الحقيقية. و يظهر ان نفس السيرورة تنطبق



كان الخوف من العوامل الثانوية التي أظهرت الحس الديني عند الانسان القديم، وكان من العوائق التي كان على أجدادنا أن يجتازوها. في الصورة إنسان خائف أمام وحش خطير.

على مراحل تطور الفن عند الانسان القديم. والحقيقة ان المسألة، كما ذكرنا في غاية التعقيد، لا نتوفر بصددها إلا على قليل من المعطيات والأدلة المادّية.

وقبل الاجابة عن السؤال الأول حول أصل الديانات الانسانية، يجب التمييز أولاً بين الديانات المُنَزّلة التي تعتمد على الوحي المُنَزَّل على كل من النبي سيّدنا محمّد (ص) والمسيح اللذين أرسلا لِهِداية البشرية.

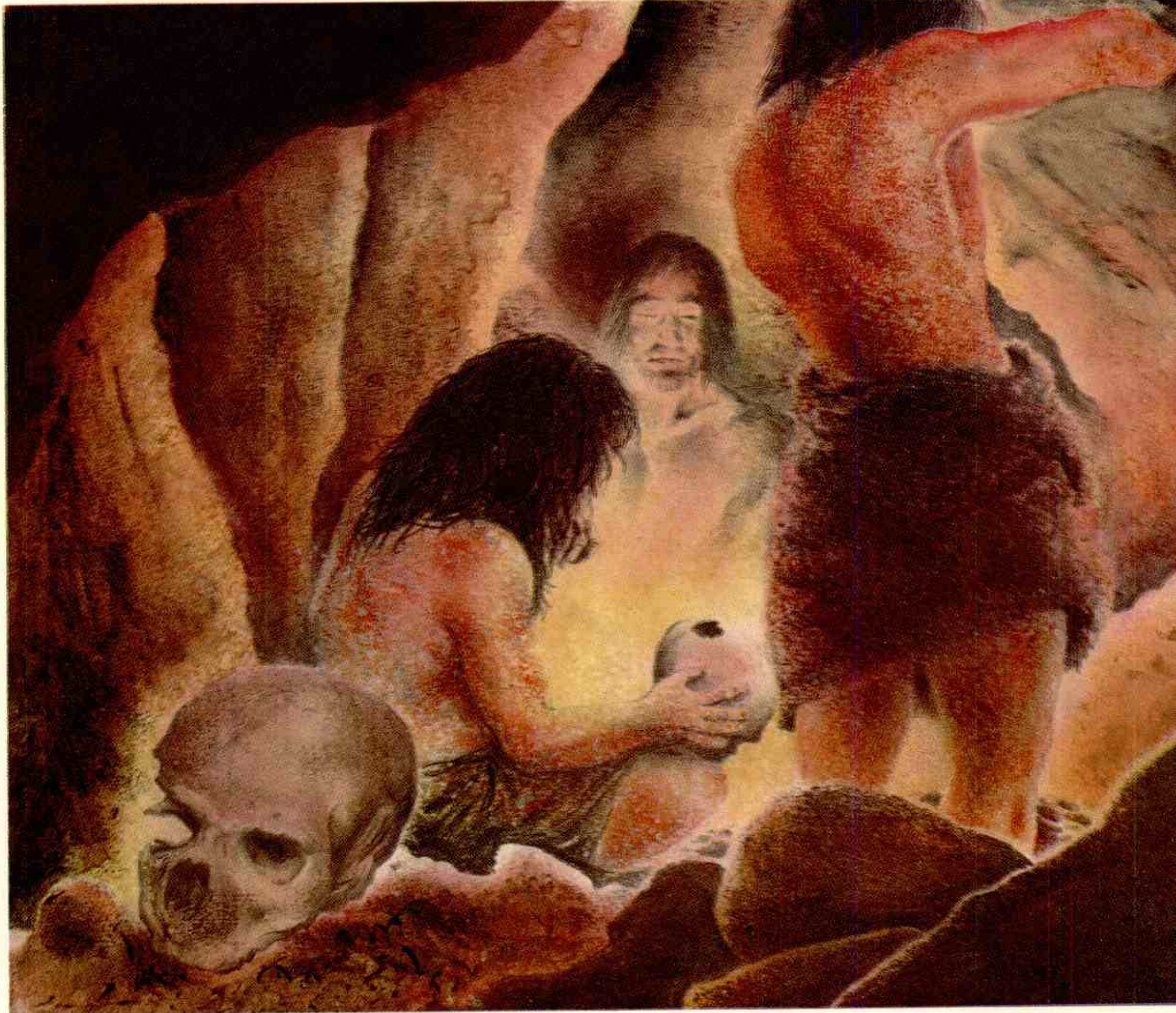
والتديُّن في تاريخ الانسان قد يتجلى في ممارسات وطقوس مختلفة حسب الشّعوب و باختلاف الاقطار. ومن خلال تحليل الآثار المُكتشفة وتأويلها يتبين ان الانسان كان في البداية مفْتونا بالطبيعة وظواهرها الخارقة التي تفوق قدرته البسيطة المحدّدة ومع مُصارعة لأخطارها ومُكافحته من أجل البقاء ومروره بتجربة الخْوف والقلق تطوّر لدَيه الحسُّ الديني الفطري يصْدُر عن رغبات روحية تكمّل ماديّاته وتؤمنُه الاستقرار النّفسي والطّمأنينة بعد أن تمكن من الحصول على الاستقرار المادي.

و يبدو أن البُذُور الأولى للتَّديُّن لدى الانسان كانت منذُ ذلك العهد الذي بدأ فيه تساؤُله حول ما حوْله من ظواهر يعْجز عن تفسيرها تفسيراً مُقْنعا، ومن العوامل المعنوية التي رافقَتْ تجربة الانسانِ التّديُّنية بعض الظواهر التي نوردها كالتالي: الخوف والجوع وثُنائية الولادة والموت.

١ ـ الخـــوف :

سبق ان أشرْنا الى البَشَريات وأشباه البشريات التي كانت تعيش فوق الاشجار فانتقلت الى سطح الارض الواسعة في مواجَهَة الوحوش الضارية التي تكْبرها حجماً وتفوقها قُوّة وخُطورة ثم أشَرْنا كذلك الى انتقال البَشَريات

إعادة إنشاء مشهد لأكل اللحوم البشرية الطقوسي الذي اعتمده القدماء لاحتواء قوة الأعداء الذين يفتكون بهم.



من وضع المشي على أربع الى وضع المشي على القَدَمَيْن. وكان الانسان الأول بعد هذه التجربة يواجه صعوبات كثيرة في اللحاق بالحيوانات المُسرعة في العَدْو أو الافلات منْها هرباً. وقد طَوّرت هذه المخاوف إنعكاسات الانسان الذي بات يتخوَّف من كل الاخطار و يترقَّبُها و يستعد دائماً للافلات منها وتَفَاديها. ورغم التطور الذهني الذي وصل اليه الانسان الحقيقي فلم يتمكن من التخلص من الشّعور بالخوْف الذي بقي لديه من مَوْروثات أجداده الأوائل. وتضَاعَفَتْ مخاوفه بتضاعف قُدُراته الفكرية التي جعلته يفهم معنى الأخطار و يتيقَّن من مَدَى ضعْفِه أمام العناصر الطبيعية المحيطة به التي قلّما يجد تفسيراً لأهم مظاهرها وأسْرارها. ولم يلبثْ فكر الانسان ان قاده بعد ذلك الى تساؤلات أزليَّة مُحَيرة مثل طرْحه السُّؤال عن أصْله وَهَويَّته وكُنْهه وحقيقة مفْهوم حياته ووجوده ووجود الاشياء حَوْله وغيرها من الاسئلة المُحرجة التي بقي الكثير منها بدون جوابٍ مُقْنع بالنسبة إليه.

٢ ــ الجــوع :

لقد سبق أن أشرنا إلى ان أهم الاكتشافات التي توصّل اليها الانسان الأول كانت تُمْليها رغْبته في ضمان تغذيته وسد رَمَقِه.

وممارسَةُ الانسان للصّيد كان تحت هذا الدّافع الغَريزي والطبيعي. وقد أدَّت به التجربة مع مرور القُرون إلى احترام الحيوان الذي يصطاده و يتغذّى من لحْمه لكَوْنه من أهم مصادر حياته و بقائه. وقد يُحْتَمل ان يكون لِهذا الاحترام والتّقديس بعض الأثر في بزوغ الحسّ الديني عند الإنسان حيث كانت هناك أشكال للعبادات تُقَدَّس فيها بعض الحيوانات والكائنات المُبَجّلة. وفي الأوساط التي

تمثيل لدفن نيندرتالي مرتكز على بقايا عثر عليها في تيشيك تاش بروسيا. وكان النيندارتاليون يبدون احتراما خاصا وتقديساً للأموات.



كانت تُعاني من الجَفاف ونُدْرة الماء كان العَطش هو أساس ميلاد ذلك الشعور الديني.

إلا أنّ هذه الظَّواهر الطبيعية كالخَوْف والجوع والعطش لا يمكن أن يكون إلاّ تَجليات مُباشرة وهَامشية لإحساسٍ فطْري أعمق كان منغرزاً في الانسان منذ ان خَلَقَه الله تعالى.

٣ ـ ثُنائِية الولادة والوفاة:

إن ثنائية الولادة والوفاة ظاهرة اثارت العديد من المُلاحظات والتأويلات فيما يتعلق بتطور الفكر الانساني فالإنسان في أحد مراحل مسيرته التَّطورية

إكتشف سِرّ ظاهرة الولادة وايقن أن أصْلها من تكوينه الخِلقي وخاصّياته البيولوجية التي تمكنه من إنْجاب ذُرّية جديدة من صلبه. ومالبث ان إنتبه الى ظاهرة الموت المحْتوم فصار منشغلاً بالطقوس والممارسات السّحرية لعلّه يفْلت منها، وذلك قبل أن يدرك أنها قضاء ومصير مشترك بين كافة الكائنات الحيّة، الحيوانية منها والبشرية،آنذاك اكتفى بالتفكير في الوسائل التي ينتزع بها من الموت بعض البقايا الغالية التي يخلّفها الاقرباء بعد وفاتهم. وذلك ما جعله يطور الطقوس الجَنائزية التي تعَدّدت اشكالها في مختلف العصور.

ومن المرجح ان العامل الاساسي الذي كان وراء تكوُّن الظاهرة الدّينية والعقائدية هو تَساؤل الانسان حول كنهه وذّاته ومَصّيره، حيث كان شديد الملاحظة والتبصر والتمعُّن في الاشياء والظّواهر من حوْله مما جعَله يُدرك بعد تفْكير طويل أنّ هناك أشياء مَوْجودة وملْموسة وان هناك أشياء لاوجود لها. وبالنّسبة لْلانسان الأول كانت

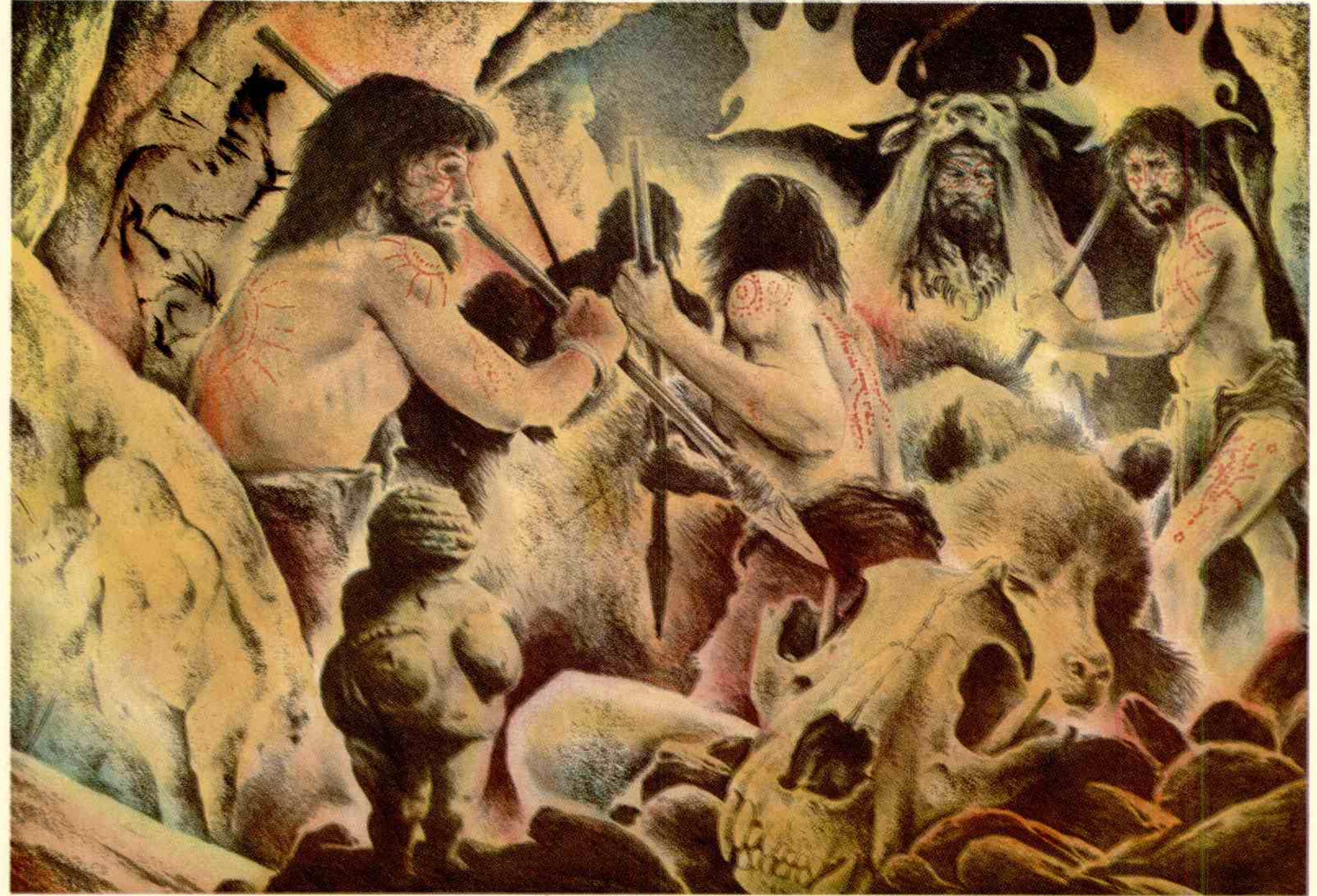
كان الوشم شكلا من الممارسات لدفع الشر واجتلاب الخير. ومازال إلى الآن مستعملا عند بعض الشعوب الافريقية والأسترالية. في الصورة أستراليون أصليون وصدورهم مزينة بالوشم.



الاشياء كلُّها تتوفر على حياتها الخاصّة. وكانتْ رؤيته الوجودية مُخالفة لرؤية الانسان الحالي لانه كان يعتقد أن هناك قُوةَ حيوية تنْقل من حَجَر الى نبات ومن نبات إلى حيوان وبالتالي **فهي قد تنْتقل إلى الانسان نفْسه.**

وكانت الرغبة في احتواء هذه القوة الخفية والسّيطرة عليها من المشاغل الأَساسية في حياة الانسان البدائي المعْنوية. وانطلاقا من هذه المُسلَّمة يمكن افتراضُ أن التّوحُّش وأكْل اللُّحوم الآدمية بالنسبة لإنسان الصّين البيكيني والانسان النّيندرتالي كانت تُمْليها الرغبة في الاستيلاء على قوّة الخَصْم ومَهارته في الحَرْب بَعْد القضاء عليه، أو القريب الذي يكون قد مات موتاً طبيعيا. وتبين للانسان فيما بعد أنه نظراً للموت المحْتوم الذي يترقبه في نهاية حياته، فلابدّ من التّمتع بالعمر الذي يقضيه وهو على قيد الحياة، مما جَعَلَه يُفكّر في تَحْسين ظروف معيشته والانتقال من اختراع الى آخر تقوده في ذلك تجاربه وتساؤلاته المتعددة حوْل الاشياء والظواهر من حوله، وهكذا إنتقل من العيش في الهواء الطّلق الى اللّجوء الى الصخور ثم الاكواخ والكُهوف وبعدها المَساكن الخشبية ثم بيوت الآخرين الى أن اهتدى إلى بناء المنازل الحقيقية. ومع اكتشافه للنار ومنافعها استطاع إبعاد الوحوش عنه وتمكّن من تنْوير ليْله واضاءة الكُهوف التي يسْكنها وطهي صَيْده وغلْي مائه وغير ذلك من الاستعمالات المختلفة. واسْتطاع أن يستعمل جُلود الوحوش التي يصطادها لوقاية جسده من البَرْد القارس كما يسْتلهم قوة وخصائص من يفتك بهم من أعداء ويصنع التّعاويذ والحِلي الخاصة **والوَشْم لِطرْد الشّر ودَفْع الاضرار. كلّها مُمارسات تكشف** عن انشغال الانسان بحياته ورغبته في الحِفاظ عليها من

يبين الرسم أسفله ظاهرة شائعة في كُهوف العصور القديمة : فأجداد الانسان الأوائل كانوا يُمارسون طقوساً خاصّة بقَتْل الحيوانات قَصْدَ آستجلاب الحظ أثناء عمليات الصيد.



كلّ الأعْراض والآفات الطبيعية وغيرها مما يعتقد أنه يتهدّد سلاَمته و يعجل بوفاته وحِرْمانه من لَذّة الحياة.

ومن الأكيد أن الانسان البدائي لم يكن ليَعْرف مفهوم «الخُلود» رغم انه كان يدرك معنى «الدّوام والاستمرار» ولذلك ظل يفكر في الوسائل التي تضْمن له البقاء والاستمرار اطول مدّة ممْكنة محاولاً الافلات من العوائق التي تحدُّ من هذا البقاء كالحرب والوحوش والكوارث الطبيعية. ولا تقاء شر هذه العناصر القويّة التي تفُوق طاقته أوْكل مُهمَّة حِمَايته منْها الى القُوى الخَفيّة والألُوهية والسّحرية التي بدأت تترسخ في اعتقاده وتوحي له بالاستقرار النفسي و بالطُمأنينة. ذلك ممَّا أدّى الى اختراع الانسان مُختلف أشكال العِبادة والتّقديس للتّقرب من هذه القوى في عناصر تـأكّد من قُدْرتها على الدوام والبقاء أكثر منْه ومن غَيْرها من الاشياء الاخرى ومنها الحجارة الجَامدة الراسخة والنّار التي تتجدد باستمْرار و بعض الحيوانات التي كانت تمتاز بطول بقاء خاصّ و بقوّة وخطورة تجعلها مُسيْطرة على غيرها من الحيوانات الاخرى ثم بعض النباتات ذات العمر الطويل وغيرها من العناصر الطبيعية التي أثارت إنتباه الانسان بإحدى خاصّياتها الخارقة. وكان الماء كذلك من العناصر التي قد تكون مَحطّ تقْديس الانسان وتبجيله لما يتمّيز به من سَيَلان متّصل وقوّة جارِفة وفضائل لا تُحصْى على الانسان نفسه وعلى الطبيعة.

واذا استثنينا الدّيانات الكبرى التي سادَتْ لدى السُومريين والمصريين فلم تظهر في العصور الحجرية أي اشكال للتديُن الحقيقي القائم على الاعتقاد في ألُوهية مُعَيُنة. ولا يمكن اعتبار التماثيل النّسائية الصّغيرة التي عثر

كان تقديم جزء من الحَيَوان المُصطاد كقُربان للقوى الخفية في بُحيرة أو الغابة من الممارسات الطقوسية التي يلجأ إليها الانسان القديم لتهدئة الآلهة التي يُرْجى منها كل الخير والعطاء.



عليها بجانب المواقد وخارج الأكواخ اشكالاً لتمثيل مُعْتقدات أُلوهية حقيقية. كما لا يمكن تأويل عملية نحت ونقش بعض الأدوات الخاصة وكأنها تعبير عن معتقدات من هذا القبيل. فبالنسبة للتماثيل الصغيرة، يتعلق الامر بالارتباط السّحري الذي يعتقد الاهالي أنه موجود بين المرأة والموْقد، بينما النّقوش فقد تفسَّر بكون الصيادين يلجأون الى بعض الطقوس المعتَمَدة لاجتلاب الصيد الوفير وتمْكين الاسلحة من إصابة اهدافها. ولا يستَبْعد أنْ تكون الرُّسوم الملَّونة التي عثر عليها على جدران الكُهوف والممثلة للحيوانات المُختلفة، نوعاً من الديانة التي لم نتمكن من إظهار خصائصها، وكلُّ ما يمكن تأكيده من كل هذه المُعطيات أن الانسان القديم كان قد تطور لديه حسّ ديني عميق عبَّر عنه بكيفية فردية من خِلال مُمَارساته الطُّقوسية والسّحرية. ولا يمكن في هذا الاطار وضْع حدٍ فاصل بين الممارسات السحرية والدينية في ذلك العصر. ذلك أنه إذا كان التّدين يسْتوْجب حضُور ألوهية معيَّنة فإن الطقوس السحرية كذلك بحكم اعتمادها على نوع من الخوْف والرَّغبة معاً إزاء الاشياء المقدَّسة، فهي نوع من «العبادة». ويمكن اعتبار الكائن الاكبر «في مغارة روفينياك» «والإله الساحر» في مغارة الاخوة الثلاثة آثار المراحل الانتقالية بين التّجريد والتَّدَيُّن الحقيقي. ولا نتوفّر على وثائق ومعلومات أخرى تمكننا من إعادة انشاء الطُّقوس التي تُمثّلها مثل هذه الرُّسوم بالنّسبة لعهْد الكْرومانيون. الا انه من الواضح ان مثل هذه التعابير التجريدية قد تمخضت عنْها تساؤلات الانْسان المختلفة حول كُنْه وأسرار حياة الأشياء من حوله. وتساؤلات بمعناها الحقيقي، من ذلك مثلاً ما تُؤكده رسوم تمثل كائناً نصفه حيوان ونصفه إنسان كساحر الاخوة الثلاثة الذي يرمز بدون شك الى رغبة التَّسامي فوق الحَيَوان المُصطاد والتَّعبير عن كونه جزءاً من الانسان لأنه يضمن غذاءه وبالتالي حياته.

رسم لمجموعة من الصيادين وكانوا يعمدون الى تقنيات قديمة لمطاردة الوحوش.



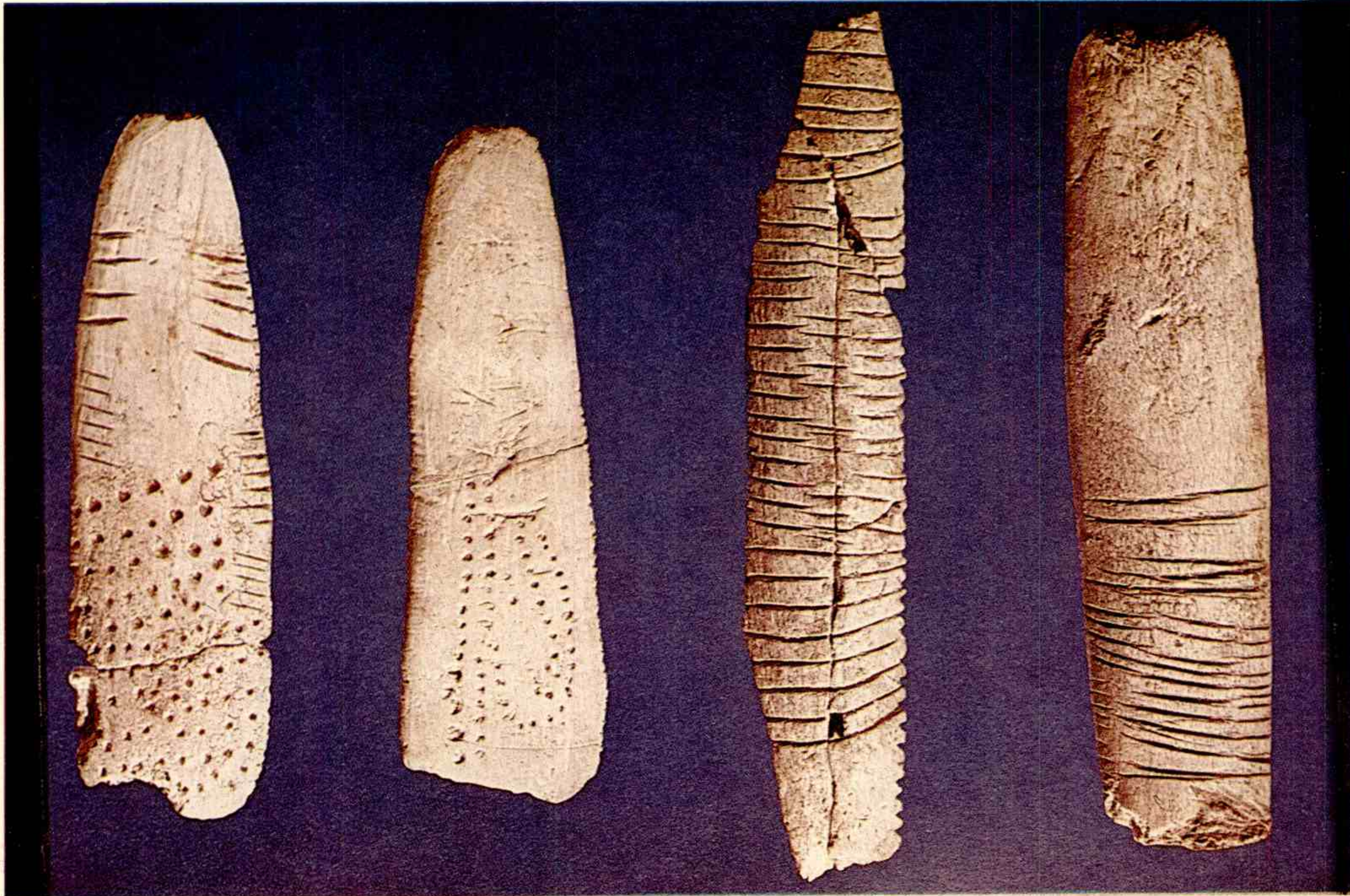
وقد بقيت بعض الديانات المَوْصوفة بالبدائيَّة إلى حدود العصر الحالي محتفظة باعتقادها في الاجداد الطَوطمية المُتَثَّلة قديماً على شكل كائنات نصفها إنسان ونصفها حيوان والتي كانت لا مَحَالة بالنسبة للانسان القديم تحمل الاجابة على العديد من الاسئلة حول الحياة والوجود وغيرها. و يظهر انه من خلال العديد من الاختراعات والتعديلات التي طرأت عليها عبر العصور مع الاحتفاظ بالعناصر القارّة يمكن اكتشاف ما تحتو يه من خصائص ساعدت على ظهور الحسّ الديني.

ويجب الا ننسى ان كل التطورات المتحدث عنها قد استلْزمت عدة آلاف السنين قبل ان تحدث وغالباً ما تكون الاختراعات القديمة معاصرة للاكتشافات المُسْتحدثة.

خلال العصر الحجري الاعلى، كان التقدّم العقلي لأجدادنا منحصراً في التفكير في أنشطة يضمنون بها بقاءهم على قيد الحياة. وفي الصورة عظام محفوظة في سان جيرمان اون لاي (فرنسا).

والهِباتُ التي كان الانسان يقدمها للكَائنات الخَفية على قطع لَحْم الحَيَوانات المُصطادة تدخُل في إطار فرضيَّة الانسان المباشر للكائنات الفَوْطبيعية التي كان يخافُ منها او يتوسَّل اليها. ذلك أن كل صياد كان يرتّجل طُقوسه الخاصَّة التي يرُدُّ بمْقتضاها الى الطبيعة القويَّة ما أخذَه منها على شكل حيوانات، إعتقاداً منه أن ذلك سوف يجعل هذه الأَخيرة تنْعَم بالبقاء والاستمرار لكي تكون دائما متوفرة في الطبيعة.

وارجاع الحيوانات المقْتولة كان يتم بهدف اسْتلطاف القوى الخَفيَّة للابقاء على الانسان نفْسه وعلى الحيوانات التي يستهلك لحُومها. وهذا التّقليد هوما يعرف منذ القديم بـ «القُربان» لجلْب الخير ودفْع الشر وتهدئة غضب الإلاه الذي يملك كلّ شيء و يتحكَّم في الانسان. وافتراض وجود قوى خفية تقوم مقام «الآلهة» التي عَبَدها الانسان فيما بعد قائمة اساساً على احتمال توفُّر الانسان على مَلَكةٍ فكرية مُتطورة الى درجة التَّفكير في الظواهر المجرَّدة. ولكن مع ذلك نَتساءلَ هل في غياب هذا الفكر



كيف نشأ الفن ؟

التجريدي قد يقْدم الانسان على الالقاء بالحيوانات الى المجهول دون هدف ودون تفكير مسبق اذا لم يكنْ يعْتبرها قرابين وهبات يقْصد بها كائنات محْددة فالهَياكل العَظْمية للأَيليّات التي تضُمّ صخورا في قفصها الصّدري والتي عثر عليها في ستيلمور ومايندورف في قاع أحد المُسْتنْقعات لا يمكن أن تُؤَوَّل إلاّ كقرابين لِتلك الحيوانات نفسها لضمان بقائها وتكاثرها او لكائن آخر قد يكون بمثابة مالك تلك الأَيليّات والذي يقدّم له الصّيادون القرابين ليصفح لهم عن ا لفتك بحيواناته. و بدون شك فقد كان الانسان المادیلاني يعتقد ان الهبات والقرابين تُسبب توالد وتكاثر حيوانات كَالأَيليّات رغم أنه سيدرك في الاخير كيفيَّة تناسل وتوالد هذه الحيوانات بكيفية طبيعية. ولا يمكن استبعاد تواجد كائن يمثل إله الأيليّات او المُسْتنقع بالنسبة للانسان الذي يسْعى الى تهدئة غضبه بإهدائه جزءاً مما أخذه منه عن طريق الصيد.

ويمكن ايضاً إحتمال طواف جماعي مقدّس نحو المُستنقع يقوم به المادالينيون لتأدية طقوس وعبادات يرجون من ورائها المزيد من الحيوانات التي يقدّمونها له كقرابين. وبما اننا لا نتوفر على أية معطيات مادية لتزْكية هذه الفرضية او تفنيدها فهي تضاف الى الفرضيات الأُخرى المُقترحة لتفْسير الظواهر العَقَائدية والدّينية لدى الانسان القديم. ونفس الملاحظة يمكن أن نوردها بالنسبة لعظام الماموث التي عثر عليها داخل إحدى المغارات بأُوكرانيا، وهي عظام ملوثة بالأَمْغَر والأَحمر والأسود ومزينة باللّآلِيء والصَّدفات. وكذلك الشَّأن بالنسبة لجماجم الدّببة المُكتشفة في الكهوف النيندرتالية الى جانب عظام البيسون المتجمعة. وبما أن الانسان كان يجهلُ الكتابة

نلاحظ في الصورة التي عُثر عليها في طانزانيا مثالا لرسم الحيوانات بعضها فوق بعض على نفس الجدار.



آنذاك فاننا لم نتمكن من معرفة أسماء الأماكن المقدسة التي كانت تُمارس فيها الطقوس السّحرية واشكال العبادات المختلفة. وهكذا فما لا يمكن التحقُّق منه عن طريق الآثار الاركيولوجية فسيبقى مجهولاً إلى الأبد، إلا أنه من المُستبعد جداً ان يكون الانسان قد عرف التَّديُّن الحقيقي.

اذا كان الفن يعرف بمثابة الرغبة في التعبير عما يُخالج النفس من أحاسيس وعواطف وانشغالات، واذا كان بالتالي نشاطاً فكريا يبتعد عن الواقع وعن الحاجيات المادية والضروريات النّفعية المَحْضة، فإننا لن نستطيع تأكيد وجوده عند الانسان البدائي. فالتُّحف التي عثر عليها بِما فيها من تماثيل صغيرة ورسوم جدرانية وزخارف أثاثية كلها كانت ذات دلالة أسطورية وطقوسية ودينية أو سحرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع المعاش و بضروريات الحياة. اما اذا عرَّفنا الفنَّ باعتباره القدرة على الابداع التجريدي فاننا سوف نجد له عدة أشكال عند إنساننا القديم انطلاقاً من إختراعه للأسلحة الثُّنائية الحَدّ، انطلاقاً من الوعْي بظاهرة التَّماثُل الى تقنيات معالجة البلّيْرات. وهنا نجد الانسان يستخْلص من المادة الجامِدة اشكالاً أليفة تصاحبه في حياته وأنشطته اليومية وتساعده في إنجاز أفكاره وقضاء حاجياته. إلاّ ان العديد من مؤرخي الفَن و الاخصائين لن يقتنعوا بهذا الافتراض ولذلك سنكْتفي بالمظاهر الفنّية التي لا تدع مجالاً للشكّ في كوْنها حقاً من فنون العصر القديم وهي الرّسوم على جدران الكهوف، وخاصّة ما عثر عليه منها في كل من روفنياك ونيوكس والتاميرا وغيرها من الاماكن الاخرى والتي تعدُّ من ألْغاز العصر الحجري.

وهناك من الباحثين من يفترض ان الفن قد نشأ في المناطق التي تكتسي فيها الأرض بطبقات ثلْجية كانت أول مجالٍ نقَش عليه الانسان العلامات الأولى التي كانت **في البداية عشْوائية ودون شكل محدّد اصبحت معقدة** بعد ذلك. ومن الجليد انتقل الانسان الى جدران الكهوف حيث أعاد نفس الرّسوم التي بدأتْ تتطور أشكالها ومعالمها. إلا ان مثل هذه المُحاولات الأولية لا نتوفر **بشأنها على اي أثر حقيقي يؤكد حيْثياتها. ويظهر أن بعد** هذه التجارب التلقائية صار الانسان في جميع الاقطار بتقنيات الصّباغة والرَّسم حيث بدأ في تمثيل عناصر الطبيعة أولاً لِينْتهي الى الاشياء المجردة التي يتخيّلها بعد ان أمعن فيها التفكير والتي كان يعطيها دلالات معيّنة.



في الصورة أعلاه، نلاحظ دافعان منقوشان بطريقة فنية وكانا يستعملان لاغراض طقوسية.

و يبدو أن أول تجْربة في هذا المَيْدان قد ظهرتْ لدى النيندارتاليين الذين عاشوا بتورانو والذين بدأوا بقذْف صخرة بواسطة كرات الطين. وتعدُّ هذه ا لمُسلَّمة من الفرضيات التي تعتمد في تاريخ الفن البدائي. وعرفت المنطقة المُمْتدَّة من أورو با الشرقية الى السواحل الاطلسية نفس المظاهر والتقنيات ا لفنية، وكانت مُتمرْكزة بالخصوص في المنطقة الفرنسية الكانْتابرية. ولا يفسر هذا التمركز بارتباطه بقدرات إبداعية لدى سكان المنطقة تفوق ما يتوفر عليه غيرهم من الشعوب بل الى تعدُّد الاكتشافات التي سهل القيام بها بانتظام في كل من فرنسا واسبانيا حيث تم اكتشاف ٩٠ بالمئة من الكهوف المزيَّنة بالرُّسوم الجدرانية. ومازالت مناطق أُخرى من أورو با لمْ تحْظ بعد بنفس الاهتمام في ميدان الاكتشافات الاركيولوجية و ينتظر ان تأتي بالعديد من المُفاجآت حين يكتب لها الانجاز.

وكما ذكرنا سابقاً فلم تُسَجّل اية آثار لأشكال النشاط التصويري الاول، غير انه لا يعني ذلك اننا نسلم بوعْي القائمين الرسوم القديمة بالطبيعة الفنية لأعمالهم التلقائية تلك. فالعديد من النقوش والرسوم البدائية جد متواضعة إنْ لم تكن رديئة جداً بحيث لا يمكن تَخْويلها

صفة أعمال فنية صادرة عن أفراد واعين بجمالية فن التصوير ولو في شكله البدائي. وقد عثر في أحد الكهوف على رسم متقون لماموث و بجانبه رسوم رديئة لحيوانات اخرى، جعلتْ العلماء يروْن فيها تعبيراً عن الانشغالات الدينية والطُّقوسية. فهي لا تُمَثّل تسْلية الانسان بالاعمال الجمالية بقدر ما كانت تعني ان المكان معدُّ لتمثيل العالم الخارجي الذي يجب ان يقْضي فيه على الحيوان الذي نقشت صورته على الجدار. وقد وجدت على الجدار وفوق رسوم كل من الماموث والبيسون عدّة تحْزيزات يُفْهم منها أن الصيادين قد قتلوا هذه الحيوانات معْنويا ورمزياً قبل أن يذهبوا لمطاردتها في الطبيعة بكيفية واقعية.

وتدل هذه التحْزيزات كذلك على ان الانسان القديم لا يولي للفن اهميته الحقيقية وإلا لما كان أفسد رسومه بتلك التخطيطات الطُّقوسية. وعليه فغياب الخصائص الجمالية في تلك الرسوم دليل على غيابه في تصوُّرات الانسان القديم. وحتى حين قام هذا الانسان برسْم صورته المُصَغَّرة، لم يحاول الاجتهاد في اتقانها ويجهل لماذا ظل مكتفيا بأشكال بدائية رديئة لم يظهر انه طورها خلال العصر الحجري كلّه. ويمكن القول ان اجداد الانسان الأوائل كانوا يختلفون من حيث قُدراتهم التعبيرية عن طريق التصوير، وذلك ما يفسر النسبة الضئيلة التي عثر عليها من التُّحف الفنية المُمَثَّلة في الاشياء المصنوعة (١٥ بالمئة فقط). وقد تبيَّن من خلال مقارنة الرُّسوم الجدرانية المختلفة ان هناك أعمالاً فنية رائعة قد أنجزها ولا شك فنانون مهرة، عثر على أغلبيتها في كل من روفينياك ونيوكْس وألْتامرا وقد يكون من الأهمية بمكان البحث عن هوية هؤلاء الرسامين الذين كانوا يحظون لا محالة بالتَّقدير الكامل من قبل عشائرهم. الا انه مع الاسف بقيت أسماء هؤلاء الفنانين مجْهولة ولا يظهر من اعمالهم سوى بعض العلامات المتكررة في مختلف الرُّسوم، والتي يمكن



اعتـمادها بمثابة توقيعات بدائية وهذه التَّوقيعات تظهر في عدة رسوم منجزة في الاماكن المقدسة والمغارات الطُقوسية مما يبين على أن أهم الاعمال الفنية كانت موكولة للفنانين المعترف بهم من بين أفراد العشيرة، نظراً لمهارتهم. وقد اعتمد الخبراء على تلك الرسوم لتَصْنيفها الى نوع من المدارس الفنية البدائية اهمُّها المدرسة البيريغوْدينيَّة والمدرسة المادَاليْنينيَّة.

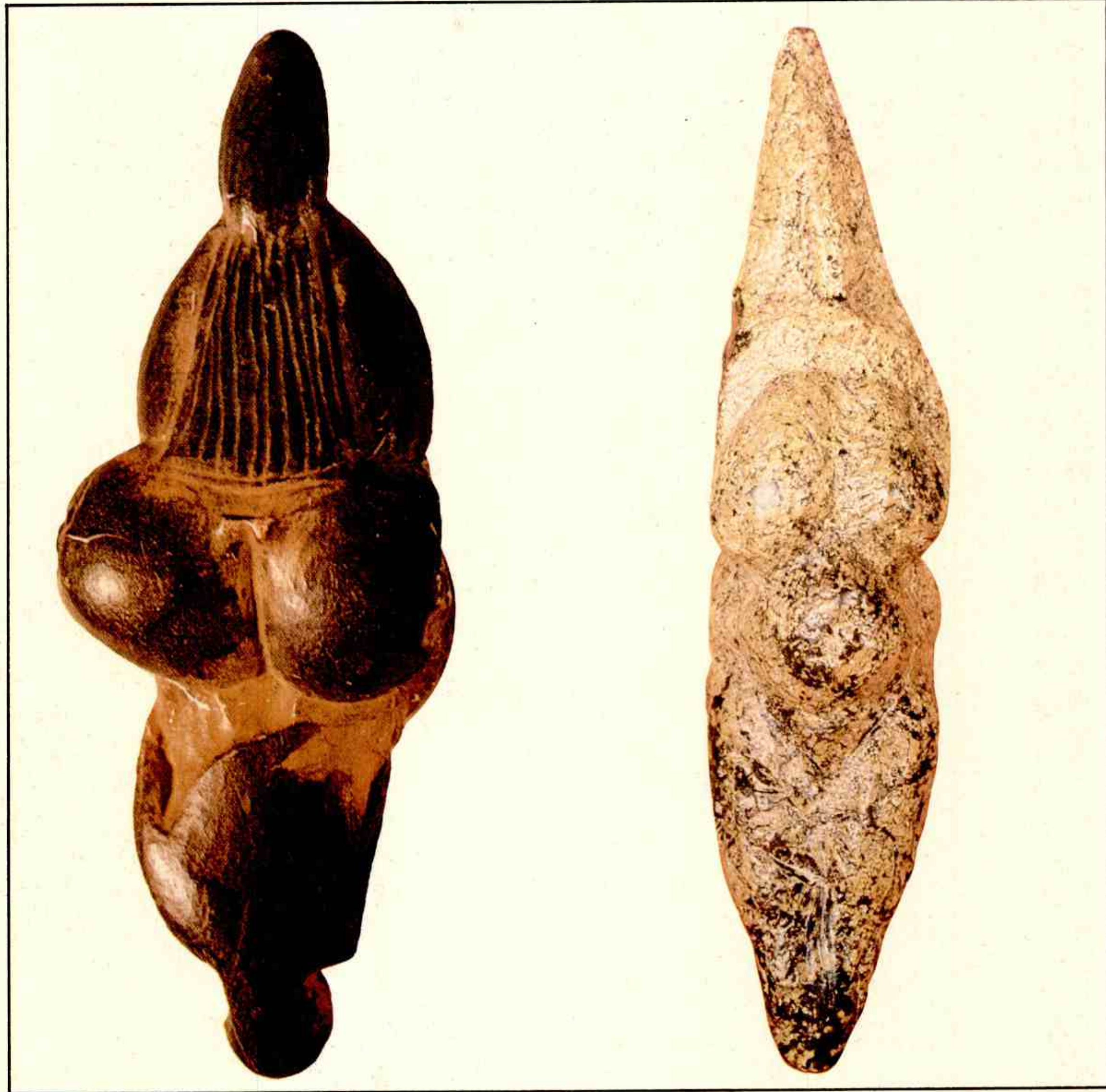
وتتميز المدرسة البيريغوردينيَّة بخصائص بسيطة وساذجة كما تعتمد على تقنيات بدائية كالوتد واستعمال الوان معينة كالأمغر والأصفر والأحمر. ومن أبرز مميزاتها الرئاية المُلْتوية التي تظهر معها الحيوانات مصوَّرة جانبياً بينما قرونها وقوائمها تظهر على الواجهة الأمامية، مما يدل على أن الحيوانات المرْسومة كانت تمثل نوعاً من مصدر الخوف اعتباراً لقرونها الخطيرة، بينما ظهور جانب الجسم يكشف عن الرَّغبة في إبراز حجْمها. وقد ظهرت هذه المدرسة حوالي ما قبل ٣٠٠٠٠ سنة ١٥٠٠٠٠ سنة وقد خلَّفت آثاراً على غيرها من التجارب المُتعاقبة.

ومن بين تفرُّعات هذه المدرسة نذكر المدرسة المُتوسِّطيَّة بمتغيرة القوائم النّصف الرئايّة الممثَّلة في رسوم ليفانْزو ولابيليتا، ثم المدرسة الأرتيكيَّة التي تشمل النُقوش الصخرية الموجودة في الخَلاء وهي تمثل الرنة و بعدها الوعل كحيوانات مرسُومة بكثرة. وتوجد بكثرة في منطقة أوراليس المشهورة بمغاراتها المُحْتو ية على رسوم جدرانية.

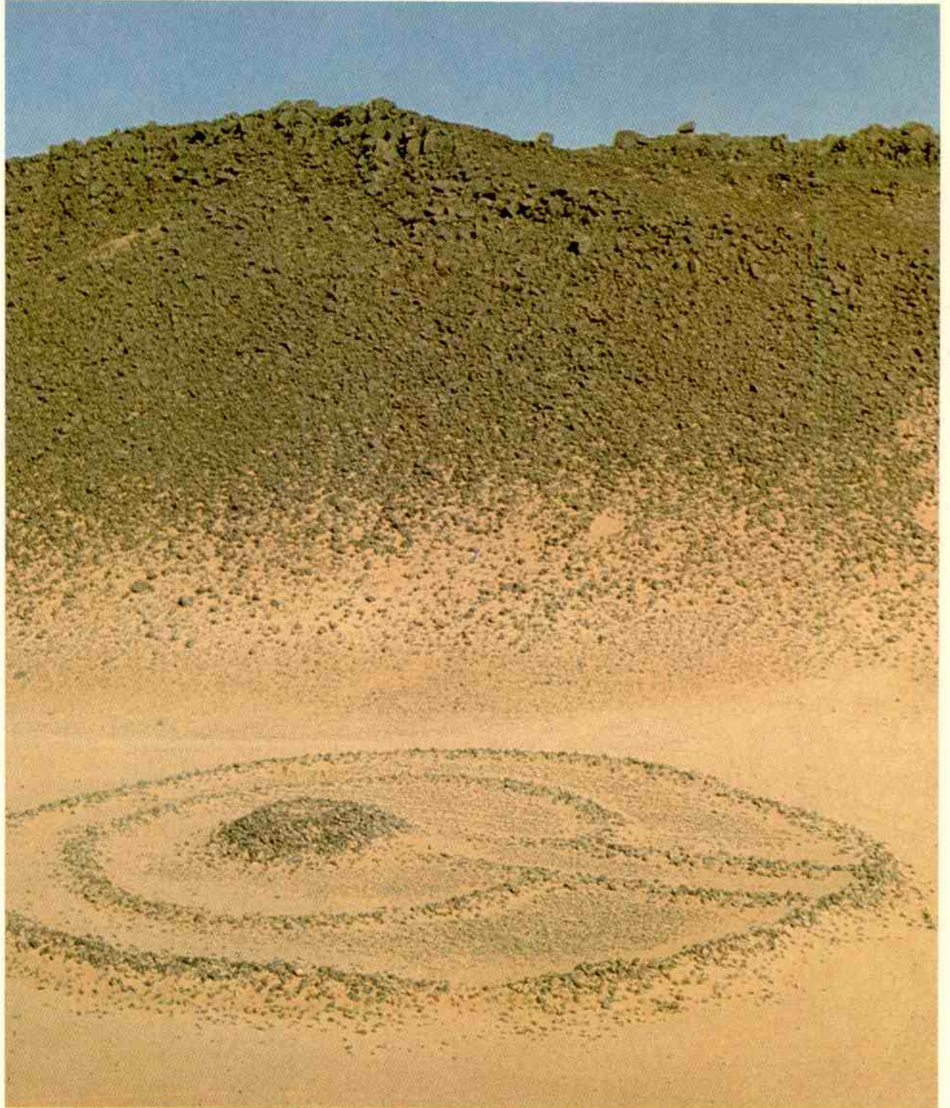
اما المدرسة المَادَالِيِيْنيَة فقد ترسَّخت حوالي ما قبل ١٥٠٠٠ سنة و بقيت صامدة إلى غاية ما قبل ١٠٠٠٠ سنة وتعتبر أيضا مدرسة فكرية.

ففي مغارة ألتاميرا سقف يبلغ طوله ١٨ مترا وعرضه

في الصورة جانبه، نحت يمثل امراة. و يطلق على مثل هذه التماثيل اسم (فينوس).



تسعة أمتار وهي مقاييس يمكن للانسان مُعاينتها تحت نور المصابيح المشتعلة بواسطة ذهن الحيوانات. وتحتوي على نتوءات طبيعية تحمل كل واحدة منها رسْمالبيسون مُستعد للقفز أو في وضع انْطواء على نفسه او متمرغ في التُّراب، وكلُّها رسوم مُزَّينة بدقَّة واتْقان يبدو أن الرَّسّامين استعملوا لذلك فرشاة خاصَّة. وقد تبدو للمُشاهد وكأنها رسوم لا توحي بأي شُعور بالخوف بينما الحقيقة أنَّها كانت ترْمز لأهل زَمانِها بالخوف من خطر الحيوان المرْسوم وفي نفس الوقت تعكس رغبتهم في اصطياده باستمرار. و يستخلص من رسوم الحيوانات والعناصر الطبيعية الأخرى أنها ممارسة لطرد الخوف والفزع الذي يوحيه الوحش وفي نفس الوقت لْلاسْتئناس به كحيوان أليف نظراً للدّور الذي يلعبه في تغْذية إنسان العصر. وبما أن الرسوم الحيوانية تمثل هذه الاخيرة وقطعانها تطارد وهي قافزة نحو المحابس المعدَّة لها وان وجوهها متَّجهة نحو باب الكهوف، فاننا نستبعد فكرة



تمثيل هذه الحيوانات للكائنات الأُلوهية التي يفْترض ان تكون هي الـمُتحكمة في مصير الانسان والحامية له أثناء مُطارَدته لْلوحوش الأخرى.

وفي روفينياك تبين لنوجْييه Nougier ان المغارة تحتوي على طريق مقدَّسة تقود وهي ملتوية الى باطن الكهف انطلاقاً من الاماكن الطُّقوسية المحتوية على رسوم للثَّعابين والماموث. و يتعلق الامر بنوع من المعابد ذات «السَّقف الواسع» الذي لا يخْضع الى نظام التَّماثُل المعروف آنذاك بالنسبة لسائر الكهوف الأُخرى. وعلى جدرانه رسوم لحوالي خمسين حيوانا منضَّدَة يَمْحي أحدها الآخر. وقد نفترض أن كل حيوان يمثل فكرة معينة و يكون تعْو يضه برسم غيره فوقه ذا هدف محدد كذلك. وليس هذا ما يهُمُّنا من السَّقف الكبير الذي لا يرتفع الا بمتر ونصف بحيث لا يسمح إلا بحركات ضيقة جداً، فما يُهمنا هو كون الانسان القديم اختار هذا المكان دون غيره لوضع رسومه الجدرانية التي يظهر من خلالها رسم لأكبر الكائنات البشرية المتميزة بجمالياتها المُتْقنة. ويحاول نوجييه تفسير ذلك باعتبار أن الكهف الكبير ينتهي الى ممر ضيق يرمز الى الطريق نحو باطن الأَرض. والحيوانات المرسومة على الجدران كلها متَّجهة نحو الجانب المُعاكس لمدخل الممر الضيق بينما الكائن الاكبر يشير إلى ذلك الممر بالذات. وهكذا فاننا أمام تمثيل حقيقي للعناصر الكونية لأن الكائن الأكبر يظهر وكأنه يشير الى المكان الذي هدرتْ عنه الحيوانات المرسومة أي مركز الأرض حيث تقطن الآلهة الأرضية. ولدعم هذه الفرضية يذكرنا نوجْييه ببعض الأساطير السيبيرية والصّينية التي يعتبر فيها الماموث إبْناً للأرض. وكيفما كانت درجة صحة تخمينات هذا الباحث فإن ما يمكن تأكيده هو أن روفينياك لم يكن مجرد كهف للرُّسوم الفنية فقط.

وحاصل القول، يمكننا أن نَخْلص الى أن ا لرُّسوم الانسانية الشكل كانت على العموم غير متقنة على عكس رسوم بعض الحيوانات والعناصر الطبيعية. فقد كانت شبه كاريكاتورات تشوه صورة الانسان وخاصة منها صور وتماثيل النساء التي توجد بكثرة. فجسم المرأة مُمَثل على شكلٍ غير متكافىء وغير مُتناسب كما لو أن راسمها أو ناحتها يريد الايحاء بنموذج جمالي سائد في العصر كانت فيه المرأة المحبَّذة بدينة وذات بطْن منتفخ. وقد أطلق البعض على هذه التماثيل النسائية لقب «فِينُوس» رغم ما تمثله من تشو يه للمرأة القديمة جدّة الانسان الحالي (!).